

أروقة

الظلم

عصام المهندس

رواية واقعية

ح) عصام محمد المهندس ، ١٤٣٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المهندس ، عصام محمد
أروقة الظلم. / عصام محمد المهندس، - الرياض ، ١٤٣٠هـ
٢٦٠ ص : ٢١×١٤ سم

ردمك: ٥-٣٥٢٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٠/٦٥٣٩

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٦٥٣٩
ردمك: ٥-٣٥٢٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو نقله في أي شكل أو واسطة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما
في ذلك التصوير بالنسخ « فوتوكوبي » أو التسجيل، أو التخزين
والاسترجاع دون إذن خطي من المؤلف.

البريد الإلكتروني :
essalmohandis@yahoo.com



إهداء وشكر

أشرقت شمس الحقيقة جلية واضحة، و كان فضل الله في كل
المجريات ومن ثم أتقدم بالشكر لكل من صنع الأحداث وساهم في
إشراق الشمس وإضاءة الكتاب على الأفق الفسيح، أضع بين يديهم و
أهدي لهم هذا الجهد الذي قضيت في كتابته وتصويبه خمسة أعوام
متتالية إلى كل من :

جدي مهندس الملك عبدالعزيز رحمهما الله
جدتي رحمها الله
والدي ووالدتي

صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف
زوجتي أم محمد ووالدها العم مساعد الريحان وشقيقه العم سعود
أعمامي سعود وخالد وعبدالرحمن وعماتي
شقيقتي يوسف وإخواني وأخواتي وأبنائي
المحامية القديرة

المحامي القدير مساعدنا سابقاً
أصدقائي الأوفياء وأخص م.أسامة عباس - م.محمد الحيان -
أ.أسعد الريس - أصدقائي و زملائي الأوفياء يقسمي الأجهزة
الطبية والمختبرات خاصة و مختلف الأقسام بمستشفى الملك فيصل
التخصصي ومركز الأبحاث و جبراني وجميع أحبتي .

كما أنني أشكر من كان لهم الفضل - بعد فضل الله - في ظهور
هذا الكتاب في أفضل صورة وأشكر كل - من ساهم في - تصويبه ومن
أشار برأي أو بكلمة غيرت وبدلت فصار رحلة وكساء غير ما كان عليه
فجزاكم الله خير الجزاء وعلى رأسهم

د.عبدالرحمن بن صالح العشماوي
الشاعر والأديب الإسلامي المعروف
الأستاذ القدير . صلاح القين
عمتي موجهة اللغة العربية . رقية المهندس

وليسامحني ويلتمس لي العذر كل من مد لي يد العون فنسيته ولكن
الله رب العالمين لن ينساه .

مقدمة



هذا شيء مدهش

الحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.
نعم هو شيء مدهش ، لم أجد عبارة بعد قراءتي لما ورد في هذا الكتاب
غير هذه العبارة ..

هذا شيء مدهش...

لأنه واقع كالخيال، ويجري على مرأى الديمقراطية وسمعها، ويحدث في
أرضها، ويسري في عروق مجتمعا المدني المتطور.

هذا شيء مدهش...

لأنه يكشف جحور الثعابين، والعقارب والحيات، ويفتح النوافذ،
ليكشف لنا ضوء الحقيقة من خلال ما نخشى وراء جدران الدعاوى
والأوهام من أروقة الظلم ، وسرايب الظلام.

هذا شيء مدهش...

لأن عصام المهندس كاتب هذه الصفحات شاب عربي مسلم، مشرق
الأمل، واضح العمل، بعيد عن دروب الوهم واللهو، حريص كل

الحرص على تطبيق مبدأ « من حسن المرء تركه ما لا يعنيه ».
أنا هنا - لا أزيهه - فنحن لا نركي على الله أحداً، ولكنني أصف حالته،
ومع هذا فقد واجه في ذلك المكان البعيد ما لا يليق إلا بمجرم عنيد .

هذا شيء مدهش...

لن أكشف لكم ملامح ما أثار دهشتي في صفحات هذا الكتاب

« التجربة »، الكتاب « المعاناة »، الكتاب « الحقيقة بدون غموض »، فأنتم
أولى بمعايشة تلك الدهشة التي عايشتها.

لقد نقل عصام لنا تفاصيل الحقيقة بأسلوب واضح جميل.. ولم يبق إلا أن
يقرأ القاريء بوعي وبصيرة، فالوعي هو الجوهرة المفقودة عند كثير من
المسلمين في هذا الزمان.

تحيتي للكاتب وللقاريء ولكل سطر من سطور هذا الكتاب

عبدالرحمن صالح العشماوي



وداعاً بوسطن...
لحظات أخيرة وذكريات حزينة...والى أعلى وطن



السبت الثامن والعشرون من يناير لعام ألفين وأربعة للميلاد
٢٨ / ٢ / ٢٠٠٤ م الموافق للسابع من محرم لعام ألف وأربعمائة وخمس
وعشرين للهجرة ١٤٢٥ هـ / ١ / ٧.... تشير عقارب الساعة إلى التاسعة
صباحاً في مطار لوجان الدولي Logan International Airport
بمدينة بوسطن الأمريكية بولاية ماساسويتش، درجة الحرارة الخارجية
أربعون تحت الصفر المئوي، لم تشرق الشمس في هذا الصباح، حررتني
رجل الأمن من جميع القيود حول معصمي فجلستُ أنتظر على أحد
الكراسي بصالات المطار.

حقاً تبين وفاء المدعي العام بوعده عندما أخبرني بالأمس أنه سيحاول
ترحيلي إلى بلدي في أسرع وقت، وتبين الجانب الإنساني في شخصيته، إن
من يرى المدعي العام على أرض المحكمة وهو يحاول بشتى الطرق إثبات
التهمة وإصاقها بشخصي لا يراه بالأمس لما زارني بسجن الترحيل، إنه
إنسان مختلف لطيف حسن التعامل.
وبينما أعيش في خليط من الفرح والقلق وعدم الاطمئنان، تقدم نحوي
محبياً رجل الجمارك العجوز الطيب...

- صباح الخير.
- صباح الخير، أيها الرجل الطيب.
- مبارك عليك حريتك وبراءتك... كنت متيقن من براءتك.
- أشكر حسن ظنك، حقاً أنت رجل طيب.
- هل باستطاعتي مساعدتك؟
- من المفترض سفري إلى بلدي هذا اليوم، لا أعرف موعد المغادرة،

هل بالإمكان الاتصال بالمدعي العام لتتبين الخبر؟.

- هل تملك رقم اتصال خاص به؟.

- نعم... تفضل ، شكرا على نبيل أخلاقك.

سلمته البطاقة التعريفية التي سلمني إياها المدعي العام بنفسه عندما زارني ليلا بسجن الترحيل ، روعة ذلك الرجل النبيل ورهافة أحاسيسه وكلماته التي داوت بعضاً من جراحي ، فشكراً ثم شكراً أيها الإنسان الطيب ، فموافقك معي تحكي إنسانية الإنسان الغربي ، وتقول في جلاء: إنه شيء ، ونظامه شيء آخر.

لحظات معدودة ثم جاءني الرجل المسن ومعه قطعتان من الكعك الدونات Donut....

- تفضل قطعك من الكعك ، وسأحضر لك كوباً من القهوة الأمريكية الساخنة.

- شكرا، أيها الرجل الطيب، إنني أصوم هذا اليوم شكرا لله وحدا على نعمه، بالأمس أجرت صحيفة بوسطن هيرلد BOSTON Herald لقاءً صحفياً معي، فهل من الممكن الحصول على نسخة منها؟.

- بكل سرور.

غاب عني الرجل الطيب ثم جاءني بصورة المقال المكتوب.

- تفضل.. ظهرت صورتك في الجريدة!! تبدو رائعا.

- شكراً.. شكراً.

- أبلغني المدعي العام بأنه سيحضر إلى المطار الثانية ظهرا، وستقلع الطائرة الثالثة عصرًا، هل تريد شيئاً آخر؟ .

- إنني عاجز عن الشكر أيها الرجل الطيب.

- لا عليك... مع السلامة.

- مع السلامة.

الحادية عشرة صباحاً بتوقيت بوسطن ذهبْتُ في رفقة أحد مسؤولي المطار طالباً التعاون معه!! طرح بعض الأسئلة المكررة المعجوجة وأخذ يدون إجاباتي على جهاز الحاسوب، ولما أتم أسئلته وأجوبتي قام بطباعتها وطلب مني مراجعتها والتوقيع عليها وكان بإمكانني الرضا أو الاعتراض وطلب حضور المحامية، ولكنني لم أفعل لأن الحقيقة جلية واضحة وضوح الشمس، وليس لدي ما أخفيه، أخذت بصماتي سألتني سؤالاً ضحكت منه ولم أخف ضحكتي فمصدرها سخر السؤال والسائل، قال لي: هل تطلب اللجوء السياسي أم تفضل الرجوع إلى بلدك؟! أجبت إجابة نابعة عن القلب بل أرجع إلى بلدي، أطرق رأسه خجلاً من كلماتي الصادقة الصارمة بصراحتها سافرة عن أحاسيس رجل يحب لوطنه وأهله مؤمن بدينه ومبادئه وعقيدته، جلست على المقاعد الخارجية عقب تأديتي لصلاتي، إنها الواحدة والنصف ظهراً أخذت أنظر إلى المسافرين القادمين وأنظر إلى مفتشي الجمارك وهم يقومون بتفتيش بعض حقائب المسافرين وبيننا أنا على هذه الحال أقبل نحوي رجل الجمارك الطيب مرتدياً زيه المدني، ابتدرته مخاطباً...

- تبدو أكثر أناقة في ملابسك هذه.

- (بحزن وخجل) لا أعرف ماذا أقول، لقد مرت بأيام عسيرة

وأنا سيبثين، صدقني هناك أناس طيبين في هذا البلد.

- وأنت أحدهم.. أنا لا أحمل في قلبي إلا التسامح رغماً من كل

الصعوبات والمنغصات التي مررت بها شخصياً وخاض غمارها أهلي وولدي وصحبي . أيها الرجل الطيب إن الدنيا فيها الورود وفيها الأشواك فيها الخير وفيها الشر ، نحن المسلمين ندرك أن أمر المؤمن كله له خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

مد يده في حزن - مصافحا -

- رافقتك السلامة .

- بل إلى لقاء يجمعنا في ظروف أفضل، من أعماق قلبي أتمنى لك كل خير .

ودعني الرجل المسن وذهب غير أن ذكريات تعامله ما ذهبت ولن تمحوها الأعوام من ذاكرتي .

لاحظ من بعيد هامة المدعي العام عند الساعة الثانية والربع مقبلاً يحمل في يده تذكرة سفري وجوازي اللذين حرمت منهما مدة شهرين من الزمن، سلمني معظفي ومحفظتي ورسالة من الحبيبة أم محمد تطمئنني على نفسها ووالدها ، كما سلمني المدعي العام صورة من حجوزات السفر بها موعد مغادرتهم غدا الأحد ، سبحان الله جاءت زوجتي وأبوها وفي نيتهما أن نساfer معاً ، وهأنذا أسافر وأتركهما من غير إرادتي .. عندها بكى قلبي بصمت فلقد فارقت من أهوى ومن معها طابت أيامي وأحلامي، ودعني المدعي العام متمنياً لي رحلة سعيدة ، وعند باب الطائرة برفقة أحد المسؤولين تسلمت جواز السفر وتذكرتي، وجهتي إلى مطار فرانكفورت Frankfurt بألمانيا عبر خطوط السفر الألمانية

لوفتهانزا Luftunhansa لتبدأ رحلتي إلى بلدي المملكة العربية السعودية وإلى مدينة الرياض مروراً بعروس البحر الأحمر جدة، جلستُ على المقعد المخصص لي ، ولما تكاملت وفود الركاب على متن الطائرة اتجهت نحو المدرج، وهاهي تتحرك بسرعة ومعها تتسارع دقات قلبي وتهلّل أسارير وجهي ، شيئاً فشيئاً غادرت عجلاتها الأرض وأخذت في التحليق والارتفاع لتخترق السحاب وترتمي بين أحضانه .. مضيت ملتفتاً أنظر إلى مدينة بوسطن المطلة على المحيط الأطلسي متأملاً بعض معالمها، رأيت محكمة جون جوزيف موكلي القريبة من المطار ومكتب الدفاع الفيدرالي رأيت الشوارع تغص بالسيارات والشاحنات ، كم كان الجو بارداً ! لكن دفء المشاعر فاق دفء المكان من حولي .. يا الله قبل أربع وعشرين ساعة كنت أتردد ما بين المحكمة ومكتب الدفاع لا أدري كيف ستنتهي قضيتي؟! والآن أحمل في يدي ظرفاً فيه خطاب تبرئتي مما نسب إليّ ولا أحمل أمتعة ولا أحمل حقائب.

قطع حبل أفكاره حديث رجل ألماني يجلس بجانبه في درس البكالوريوس والماجستير ودكتوراه الفلسفة في العلوم العصبية ببوسطن، يعمل باحثاً في معهد ماساتشوستس للعلوم والتكنولوجيا MIT أحد أشهر المعاهد المتقدمة في العالم ، حدثني وهو لا يدري من أكون ولا الظروف المريرة التي مررت بها.. فقد سئم العالم الألماني من كثرة الإجراءات الأمنية وقبل مدة تلقى عرض عمل من بلده وهو عائد إليها ؛ لبحث التفاصيل مع الجهة التي قدمت له العرض ، ولن يعود إلى بوسطن إن اتفق معهم، سيتخلّى العالم الألماني عن بوسطن التي عاش فيها وتنفس هواءها وأحب من عمل معهم، أشركني فيما يقلقه بشأن المستقبل العلمي والتقدم

التقني الصناعي لأمريكا بشكل عام ولبوسطن بشكل خاص ، إن مدينة كيوستن لا يكاد يخلو جانب من جوانبها من معهد أو كلية أو جامعة طلابها من شتى أنحاء العالم، عملت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وهلوسة الأمن التي تمارسها إدارة الرئيس الأمريكي على ثني الكثير من راغبي الدراسة من قصدها بل وإلي تغيير وجهتهم إلى بريطانيا وأوروبا وأستراليا ، وحتى سيؤثر ذلك سلباً على الجانب الاقتصادي وسيؤدي إلى هجرة العقول من الولايات المتحدة الأمريكية .

أصغيت إلى كلامه باهتمام ، وأعجبت بطرحه ورؤيته العميقة وتحليلاته الدقيقة.. قضينا الوقت بالحديث عن بوسطن وعمله وسجل إنجازاته العلمي ، تحدثنا عن ألمانيا كدولة صناعية وتناولنا التركيبة الاجتماعية للمجتمع الألماني مقارنة بنظيره الأمريكي الذي تغطي عليه صبغة التفكك الأسري ، خضنا في كثير من القضايا والمواضيع وبعد أكثر من تسع ساعات من التحليق وصلنا إلى ألمانيا ، مررنا فوق الأراضي السويسرية والفرنسية لتهبط الطائرة على أرض فرانكفورت، غادرنا الطائرة واتجهت إلى الصالة التي تضم مكتب الخطوط الجوية العربية السعودية، تشير عقارب ساعتني إلى الساعة صباحاً بتوقيت ألمانيا من يوم السبت الثامن والعشرين من يناير الموافق للسابع من محرم ، بقيت ثمان ساعات على موعد إقلاع الطائرة السعودية المتجهة إلى مدينة جدة توجهت إلى أحد المحلات واشترت بطاقة هاتف ... تكلمت مع والدي وأخي وزوجتي والدها... اشترت إحدى الصحف في محاولة لتمضية الوقت ومعرفة بعض الأخبار ، فقد انقطع عن العالم وأحداثه قرابة شهرين في بلد تصنع الخبر وتفبرك الأحداث.

جلستُ أسترجع شريط الذكريات المؤثر في مرحلة زمنية من عمري، ومضت الأحداث متتابعة بمعاناتها ومفاجأتها وتسهيلات الربانية، مرت الساعات وأنا لا أدري ولا أشعر بالأحداث من حولي أغرق في بحر الذكريات الأليم ، وظلمات الظلم الموحش، الطائرة تشمخ في السماء ومن أسفلها البحر الأبيض المتوسط ياآآآ!! لا أكاد أصدق ما حدث فكلمها انطلقت بذاكرتي من موقف لآخر حمدت الله - عز وجل - على أفضاله وتيسيره ونعمه التي لا تُعد ولا تحصى.

عادت بي الذكريات إلى العاشرة من مساء يوم الاثنين التاسع والعشرين من ديسمبر لعام ألفين وثلاثة من الميلاد والموافق للسادس من ذي القعدة للعام الهجري أنف وأربعمائة وأربعة وعشرين ١٤٢٤/١١/٦ هـ - ٢٠٠٣/١٢/٢٩ م - في ذلك المساء رزقني الرحمن طفلي الأولى.

التقيت في اليوم التالي برئيسي المباشر المهندس عبدالله ، هناي بالمولودة وأخبرني بأن مفاجأة عاجلة بانتظاري ؛ ألا وهي سفري إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد جاءه للتو من ممثل الشركة الأمريكية بالرياض ووكيلها الحصري الموعد الجديد للتدريب على جهاز مضاعف الشريط الوراثي ، وتحدد موعد السفر بعد يومين في حال ترحيبي بفكرة السفر في التوقيت المذكور ، وبالفعل استحسنت الفكرة فمدة التدريب قصيرة لا تتجاوز في مجملها تسعة أيام وستنتقل زوجتي في ضيافة أهلها فترة أربعين يوماً كما هو العرف في عاداتنا.

فاتني الموعد الأول لانعقاد هذه الدورة التدريبية المتخصصة في السادس من ديسمبر ٦/١٢/٢٠٠٣ م، لما تقدمت إلى السفارة الأمريكية بالحلي الدبلوماسي بالرياض آخر شهر شعبان ، وبعد تعبئة نموذج طلب الحصول على تأشيرة الدخول إلى الأراضي الأمريكية، استقبلت طلبي موظفة أمريكية في نهاية الأربعينات من عمرها

- ما سبب زيارتك للولايات المتحدة الأمريكية؟.
- التدريب على صيانة جهاز طبي اشترته المستشفى التي أعمل فيها.
- ما اسم الشركة التي ستلقى التدريب لديها ؟ وما هي تطبيقات الجهاز ؟ .
- إنها شركة أمريكية تصنع جهازاً ذا تقنية حديثة ،يعمل الجهاز على مضاعفة الشريط الوراثي DNA في مجال التشخيص الحيوي.
- هل قمت بزيارة الولايات المتحدة الأمريكية خلال العشر سنوات الماضية؟.
- لا.... مطلقاً.
- هل أنت متزوج وهل لديك أطفال؟.
- نعم ولدي طفلان.
- ربما تطلب منك السفارة الحضور لإجراء مقابلة أخرى،هل لديك مانع؟.
- بالطبع لا.. إنني على استعداد للإجابة عن أي أسئلة إضافية أو معلومات مطلوبة.
- إن تقديم الطلب لا يعني قبوله،قد يستغرق الرد عليك من مسؤولي الخارجية الأمريكية ومسؤولي الأمن الأمريكي قرابة ثمانية أسابيع

على الأقل.

- ولكن موعد انعقاد تدريبي بعد خمسة أسابيع تقريباً.
- ليس باستطاعتي تسريع الأمر، وستسير أوراقك وفق الإجراءات والتعليقات المعمول بها في السفارة.

مرت الأيام، وحان موعد التدريب ، ولم يأت الرد بمنحي التأشيرة ، تلقيت مكالمة بعد خمسة أسابيع مفادها شخصاً بالسفارة الأمريكية يدعى باسل يطلب حضوري إليها بعد إجازة عيد الفطر المبارك ، وبالفعل راجعت السفارة ومعني جواز السفر، سألتُ عن المدعو باسل لم يعرفه أحد إلا أن موظفاً آخر أخبرني بأن التعليقات أوصت بمنحي تأشيرة دخول الأراضي الأمريكية سارية الصلاحية لمدة عام واستلم جواز سفري وحدد لي أسبوعاً لآتسلمه.

شاءت حكمة المولى أن توافقني زوجتي الرأي - بعد تردد - لحضور التدريب في ذلك الوقت لسببين ؛ الأول استفادتي العلمية والمهنية من الدورة المتخصصة لخدمة الوطن المعطاء ودرايتها بشغفي لعملي وتحمسي لتخصصي، ثانيها حبي الكبير للسفر والاطلاع ، وعادة ما تردد مقولة للسفر سبع فوائد ، ولا أخفيكم سرّاً بشغفي للسفر وما زلت أبحث في فوائده وفائدته الأولى على الرغم من انقضاء الأعوام ومرور السنين!! .

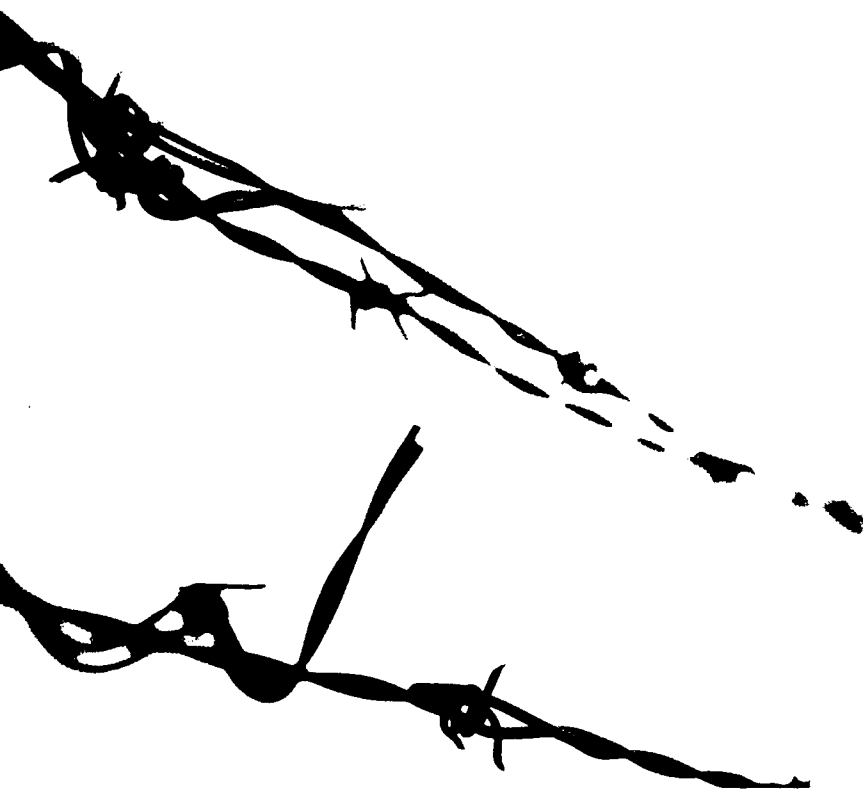
وهاهي صغيرتي «وسن» على عادة أخيها «محمد» وعلى نسقه ومنواله وعلى ما يبدو هذا حال الأطفال وشكوى الآباء والأمهات على السواء فنوم بالنهار وسهر بالليل ، وذلك ما لا يروق لوالدتها كما لا يحلولي على

الإطلاق فيومي مليء بالعمل الذي تحتاج طبيعته إلى يقظة وتركيز يتنافى مع مواويل «وسن» الليلية وصيحاتها المدوية فوق أذنيّ .

اتصل بي صباح ٢/٢ / ٢٠٠٤م الموافق ٩/١١/١٤٢٤هـ المهندس محمد حيث تمثل شركته الشركة الأمريكية ببلدي السعودية ، وأخبرني بأنه أتم حجوزات الفندق المعد لإقامتي منتظراً تذاكر السفر وسيلغني حالما يستلمها ، جلسنا مساء ذلك اليوم أنا وزوجتي ووالدتها تنتظر زيارة المهندس أسامة عباس زميلي بالعمل ورئيسي المباشر سابقاً ، لقد عملت معه ثمانية أعوام ، ربطتني به علاقات قوية وصدافة حميمة ، تميز أسامة في مجال هندسة المعدات ونظم المعلومات الطبية قاده إلى تطوير نظام « إعادة هندسة الأعمال في نظم الرعاية الصحية وسلاسل التوريد» بما يعرف بالحكومة الإلكترونية في القطاع الصحي ، لقد وفر نظامه على المستشفى أكثر من أربعة ملايين دولاراً أمريكياً سنوياً كما أشادت بإنجازته كبرى الصحف ووكالات الإعلام السعودية .

تلقيت اتصالاً من ممثل الشركة الأمريكية في حدود الخامسة والنصف عصراً ليخبرني أنه يود تسليمي تذاكر السفر ، وانفقنا على اللقاء بعد نصف ساعة من اتصاله وفعلاً تسلمت منه التذاكر وحجوزات الفندق محل إقامتي عدا أنها تحمل اسمه فمن المفترض أنه الشخص المرشح لحضور التدريب ، ولم يتمكن من الحصول على التأشيرة في الوقت المناسب .. ودعته متمنياً لي سفرأ سعيداً واستفادة علمية .

مجريات وأحداث ما قبل السفر
إلى الولايات المتحدة الأمريكية



ركبت سيارتي وانطلقت على عجل متوجهاً إلى المنزل وبالفعل ما أن أوقفت سيارتي أمام الدار حتى رأيت عم زوجتي السيد سعود أبو ربحان وحرمه مع ابنه وصهره ، وفي جو مفعم بالود أخذ الأولاد ومعهم ابني يلهون ويلعبون - بين صالة المعيشة وغرفة الضيوف الخاصة بالنساء- تغمرهم فرحة الصغار البريئة ، كنا نسمعهم ينشدون ويتناغمون يلعبون ويمرحون، صرخاتهم وهم يلعبون تملأ الدار بهجة وحبوراً زينة وسروراً وكلنا نغمرنا الفرحة والسرور، وقت قصير مضى فاستأذن الزوار واحداً تلو الآخر ، وانقضى الوقت سريعاً وهكذا تنقضي الأوقات الجميلة دون أن تُشعرنا أو تطلب الإذن بمغادرتها ، توجهتُ إلى غرفة النوم الساعة- وقتذاك- العاشرة مساءً فغداً الجمعة موعد سفر زوجتي ووالدتها وصغيرتي كما هو - أيضاً- موعد سفري.

وبينما أتقلب على الفراش حملني الخيال إلى أمريكا، أخبرني مهندس الشركة بأن طقس مدينة بوسطن بارد جداً ، بل إن الثلوج تكسو المكان كساءً، تخيلت نفسي على الغطاء الأبيض، تذكرت أستاذي القدير الدكتور أحمد ناصف وحديثه المسهب عن أمريكا والشعب الأمريكي، كان - رحمه الله - يعيش في مدينة هيوستن بولاية تكساس مغرماً بحب تلك المدينة التي وافته المنية بها قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ١١/٩/٢٠٠١م ، اطلعت على توقعات أحوال الطقس للأيام الخمسة المقبلة على شبكة المعلومات - الإنترنت - ويقدر ما رأيت التوقعات الطقسية باردة بل ثلجية وجليدية إلا أن سعادي لا توصف...وبينما كنت أشق عباب تلك الخيالات والأفكار خلدت إلى نوم هادئ عميق.

صحوت على صوت أذان الفجر يؤذن بيوم جديد. تملكني شعور غريب وانقباض بالقلب، إحساس بضيق شديد يطبق على أنفاسي لا أدري!! سببه؟ توجهت لما أشرقت الشمس إلى زيارة جدي وجدتي- رحمها الله- في قبريهما في مدينة الرياض ولا أدري! فقد بكيت بكاءً حاراً لم أبكه عليهما منذ زمن بعيد... وقفت على شفير القبر فرجع بي الزمان وأخذتني الذكريات حيث عشتُ أنا وأخي يوسف - الذي يصغرنى بعام واحد - في كنفهما منذ الصغر، كم أحبانا!.. وكم أحببناهما!.. وكم من الحنان والعناية الخاصة لقينا!..، كانت طلباتنا مجابة وأغراضنا حاضرة، لقينا الحب والدلال لقينا النصح والإرشاد..

رجعت إلى المنزل أستعد لصلاة الجمعة وتوجهت إلى الجامع، وما زلتُ أحس بضيق في صدري يكاد يطبق من شدته على أضلاعي...

مالي أحس وحشة بلا سبب كأن قلبي عن زمانه اغترب

الشاعر محمد حسن عواد

سرتُ بعد الصلاة إلى منزل والدي؛ كي أودعه وجلستُ مع أبي في غرفته الخاصة قال من ضمن حديثه لي: وددت ألا تذهب إلى أمريكا!! فالأوضاع غير مطمئنة ثم استدرك لو لم تكن الرحلة في صالحك لتخدم بلدك وبنينا وطنك لما سمحت بسفرك، كن شديد الحذر يا بني.. استنكرتُ حديثه!! فهذه ليست المرة الأولى التي أسافر فيها إلى بلد غربي عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، سافرت إلى هولندا وألمانيا واليابان ولم يشدد والدي النصح كما فعل اليوم، هممت القول أترى - يا والدي-

تقديم الاعتذار عن حضور التدريب أو تأجيله ؟ ولكنني سكتُ ولا أدري آنذاك ما الذي أسكتني؟! دعى لي والدي بالتوفيق... قبلت رأسه ويده وسألت المولى أن يبقيه ويحفظه لنا، فاجأني إخوتي الصغار هدية كريمة مصحفاً جميلاً شكرتهم على لفتتهم الطيبة وودعتهم مغادراً، أتت الأحداث في مجملها عادية إلا ذلك الانقباض والضيق في صدري لا أدري سببه؟! ثم سير الأمور بسرعة لم أعهد لها من قبل.

انصرفت إلى المنزل كي آخذ زوجتي ووالدتها وطفلي إلى المطار حيث موعد سفرهم إلى مقر إقامة أسرتها بمدينة الطائف، لاحظت أم محمد تغير مزاجي ووجوما يعلو ملامح وجهي.. أقلت الجميع سيارتي وتوجهنا نحو المطار وصلنا صالاته.. وحين أنزلت الحقائق، وعند بوابة السفر التالية لباب الطائرة ودعت الجميع وفي العادة تلتفت إلي أم محمد بنظرة أخيرة قبل توغلها داخل الممر الذي نهايته باب الطائرة غير أنها لم تفعل فسرت فعلها بانشغالها بطفلها الحديثة ، ولم يكن السبب كما حدثتني عنه أم محمد نفسها في أمريكا!!!؟

انطلقت بسيارتي أريد منزل والدي لتذكري أن يوم الأحد المقبل هو اليوم السابع لابنتي «وسن» وقت عقيقتها، فأردت توكيل الأمر إلى والدي- حفظه الله- أدركته لتوه قادماً من المسجد بعد أدائه صلاة العشاء، استغرب مجيئي خاصة وأنني ودعته ظهراً فأخبرته السبب، وقف والدي على عتبه الدار يرمقني بنظرة غريبة لم أملك تفسيرها ولكنني تذكرتها فيما بعد بأمريكا.

قصدت منزلي وبمجرد دخولي إليه أحسست بوحشة وهذه حالتي
 إذا خلت الدار من سكانها الحقيقيين زوجتي وطفلي محمد ووسن وكأنها
 ما كانت البارحة تعج وتموج بالأطفال يلعبون ويصرخون يضحكون
 ويكون يتناغمون وينشدون إن الدار ليست بالأثاث ولا الزينة
 والديكورات إن الجمال الحقيقي للدار سكانه زوجتي وطفلي.... خلا
 المنزل من كل شيء إلا من ذكرياتهم ، فهذه لعبة لمحمد ، وذاك فراش
 «وسن» ، وهذه بعض مقتنيات زوجتي...

أين الضجيج العذب والشغب؟

أين التدارس شابه اللعب؟

أين الطفولة في توقدها

أين الدُمي في الأرض والكتب؟

أين التشاكي دونما عرض

أين التشاكس ماله سبب؟

أين التباكي والتضحك في

وقت معا، والحزن والطرب؟

فنشيدهم (بابا) إذا فرحوا

ووعيدهم (بابا) إذا غضبوا

وهتافهم (بابا) إذا ابتعدوا

ونجيتهم (بابا) إذا اقتربوا

بالأمس كانوا ملء منزلنا

واليوم ويح اليوم قد ذهبوا

ذهبوا أجل ذهبوا ومسكنهم

في القلب ما شطوا وما قربوا

إنني أراهم أينما التفتت
نفسى وقد سكنوا وقد وثبوا
حتى إذا ساروا وقد نزعوا
من أضلعي قلباً بهم يجب
ألفيتني كالطفل عاطفة
فإذا به كالغيث ينسكب
قد يعجب العذال من رجل
بيكي ولو لم أبك فالمعجب
هيهات ما كل البكا خور
إنني وبى عزم الرجال أب

الشاعر عمر جهاد الدين الأميري

الانطلاق إلى مطار الملك خالد الدولي
في العاصمة الرياض



جهزت لي زوجتي - رعاها الله ..على عاداتها - لباس السفر وحقبتي السوداء التي أعددتها قبل السفر بيومين، وبعد حمام دافئ لبست ملابسي وحملت حقبتي قاصداً دار عمتي الكبرى « أو العودة كما يحلو لوالدي مناداتها»، وجدت عمتي الوسطى ودعتها على عجلة موصياً إياها أن تبلغ سلامي لعمتي وعمي وانطلقت إلى المستشفى حيث موعدني مع جمع من زملائي المهندسين ، وفي الطريق اتصلت بزوجتي واطمأنتت على وصولهم سالمين.

قاربت عقارب الساعة التاسعة مساءً انتظرت قرابة نصف الساعة، قابلت المهندس أسامة عباس تذكرت حينها أنني نسيت آلة التصوير التي ترافقتني في رحلاتي فألتقط لقطات بالصوت والصورة أسجلها لذكريات الأيام.

تركت حقبتي في سيارتي التي أوقفها بمواقف المستشفى واتجهت في رفقه المهندس أسامة إلى منزلي ... لم أمكث طويلاً ..تناولت آلة التصوير ثم قفلنا راجعين نقصد المستشفى ، وهناك التقينا بالمهندسين محمد الحيان وفيصل الفارسي جلسنا معاً فترة من الوقت وبحسب اتفاقنا سنتجه سوياً إلى مطار الملك خالد الدولي إلا أن المهندس أسامة استأذن لتذكره موعداً نسيه، ودعناه وأقلتنا سيارة المهندس الفارسي إلى المطار وأمام صالة الخطوط الأجنبية ودعنا المهندس الفارسي ، وودعت مدينة الرياض ومشيت وصاحبي إلى داخل صالات مطار الملك خالد الدولي.

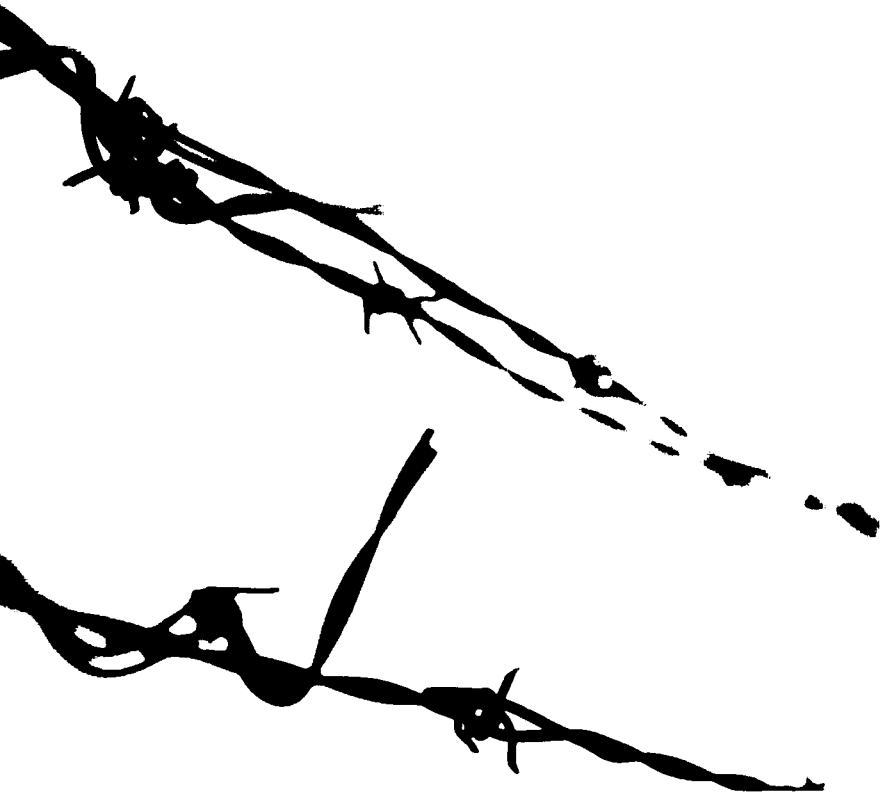
نسيت آلة التصوير هذه المرة داخل سيارة المهندس الفارسي فأشار صاحبي الحيان بالاتصال بزميلنا لاستعادتها غير أني لم أفعل فلعل في الأمر خيرا لا أعلمه، قصدنا موظف الخطوط الألمانية لوفتهانزا وقبل وصولنا إلى الموظف عبرت حقائبنا جهاز الفحص بالأشعة السينية - أشعة إكس - أرشدنا الموظف نحو الجهة المقابلة حيث خطوط السفر الألمانية وللمرة الثانية تخضع حقائبنا للفحص عبر جهاز الفحص بالأشعة السينية، طلبنا من موظف الخطوط الألمانية الجلوس في مقاعد متجاورة على متن الطائرة فأخبرنا بعدم توفر طلبنا فالطائرة تغص بالركاب، حصلنا على بطاقتي صعود الطائرة..رافقتني صاحبي الحيان إلى الصراف الآلي فقد كنت بحاجة إلى مبلغ أضيفه- تحسباً لأي طارئ مادي- إلى بطاقات الائتمان معي وبعد حصولي على كفايتي من النقد توجهنا معاً إلى موظف الجوازات.

إنها الواحدة والنصف بعد منتصف الليل وما إن جلسنا حتى داهمني النوم وكذلك صاحبي الحيان ، ذهبت في سبات عميق فلست ممن يهوى السهر ، ومن عادتي الذهاب إلى الفراش مبكراً، أنام مبكراً وأصحو مبكراً، تنبهت من نومي وإذا برجل من رجال الأمن برتبة ملازم قد فتح حقيبتي السوداء يفتش محتوياتها!!! نظرت إليه نظرة استغراب فهو لم يوقظني كما لم يستأذني ، وعندما رأى كل هذه الاستفسارات والتساؤلات والاستغراب على صفحة وجهي تكلم موضحاً أريد تفتيش محتويات الحقيبة،فهززت رأسي أن تفضل فما زلت في نعاس، جاءه أحد الأفراد منادياً ملازم طارق هل تريد المساعدة؟ رد عليه بالنفي وهو يكمل تفتيش الحقيبة في بحث يدوي دقيق.. وكنت أرقبه بعينين ناعستين ، أخرج الدليل الإرشادي للجهاز الذي سأتدرب عليه ، طلب

جواز سفري ثم نظر إلى وجهي وإلى الجواز بيده سألني عن وجهة السفر
التي سأقصدها ، علق مماًزحاً شيء جميل أن يتفق اسم وظيفتك مع اسم
عائلتك، بادلته الابتسامة.....

سلمني الجواز لما اطمئن بأن كل شيء على ما يرام وراح يفتش حقيبة
زميلي المهندس الحيان ثم توجه إلى حقيبة مسافر آخر.

إقلاء على جناح طائر ألماني



تشير عقارب الساعة إلى الثانية وخمس وأربعين دقيقة و ما هي إلا بضعة دقائق حتى أعلن عن موعد إقلاع طائرة الخطوط الجوية الألمانية اصطف الركاب في صف الانتظار أمام بوابة السفر المعنية، فضلت وزميلي الانتظار على خوض الزحام ، وعندما دخل معظم الركاب توجهنا نحو البوابة وإلى داخل الطائرة .

إن الطائرة مزدحمة بالركاب فتشتت عن مكان شاغر فوق المقعد المعين لي الجلوس عليه لأضع حقبتي فلم أجد، وكان أقرب مكان شاغر تمكنت من وضع حقبتي فيه يبعد بنحو خمسة مقاعد خلفي أودعت فيه حقبتي ، في تلك الأثناء ، لم أر زميلي السيد الحيان فمقعده بالخلف، يجلس بجانبني رجل تبدو ملامحه أنه من شرق آسيا هادئ الطباع، ما زلت أشعر بنعاس وإعياء.. رميت جسدي على الكرسي ورحت في سبات عميق ولما أفقت ونظرت إلى الساعة علمت أنني نمت قرابة خمس ساعات متواصلة، توجهت إلى دورة المياه وفي طريق عودتي لمحت زميلي الحيان يجلس على أحد الكراسي..

اقتربت منه ابتدرته السلام وسألته عن أحواله، فأخبرني بأن كل شيء على ما يرام تركته متوجهاً إلى مقعدي، أدبت صلاة الفجر جالساً وما كدت لأفرغ من صلاتي حتى أضيئت الأنوار مؤذنة الركاب بأن وجبة الإفطار حان موعدها فعدت الحياة إلى أرجاء الطائرة، ملاحو الطائرة كل يؤدي واجبه تعلقو وجوههم الابتسامة، والركاب بين مستعد لتناول الإفطار وبين عائد وذاهب إلى دورات المياه ونائم لا يدري ما يدور حوله، ومن بينهم الراكب الشرق آسيوي، تناولت إفطاري وشربت قهوتي وجعلت

أنظر إلى السماء من خلال النافذة، منظر إشراق الشمس فوق السحاب حيث ملكوت ملك السماوات والأرض آية عظمى.. خيوط الشمس الذهبية تشق عباب السحاب لتنتشر في الأفق الفسيح شعاعها.. تمنيت لو أن بحوزتي آلة التصوير... وهل تستوعب عدسة آتي جمال المنظر الخلاب!! فلا يملك الإنسان سوى الوقوف شاخصاً منبهراً متأملاً لا يجد من عذب الكلمات ورائع الأوصاف وجميل الألفاظ وكل المعاني اللطاف ما ينطق به أو يصفه إلا التسبيح والتبجيل لمبدع الأكوان.

لم يدم المنظر طويلاً حتى سترته أكوام الغيوم وتحدرت من بين طيات المزن رعود وبروق وزخات، ثم شلالات السماء تسقي الأرض أعذب القطرات وأطيب الرشقات، منظر آخر لا تستطيع وصفه الكلمات، وانقضى وقت أضعت به الإحساس بالوقت من فرط ما أرى.

أعلن قائد الطائرة لجميع الركاب العودة إلى مقاعدهم وربط الأحزمة استعداداً للهبوط، وهبطت الطائرة بمطار فرانكفورت الدولي بالأراضي الألمانية.

في مطار فرانكفورت كانت لنا قصة



عندما استقرت الطائرة توجهت نحو المقاعد الخلفية في الجهة الوسطى، تناولت حقيبتى السوداء فأطيتها ، ظهرى واتجهت نحو الباب خارج الطائرة الذي ماج بنا في السماء طيلة سبع ساعات مدة رحلتنا من الرياض إلى فرانكفورت العاصمة التجارية لألمانيا.

انتظرت زميلي الحيان ولما خرج من الطائرة توجهنا معاً إلى صالة المطار قابلنا أحد ملاحى الخطوط الألمانية لوفتهانزا الأرضيين سألتناه عن صالتنا حيث الطائرة المتجهة إلى سان فرانسيسكو وجهة زميلي الحيان وعن الطائرة المتجهة إلى بوسطن حيث وجهتى، ساعتان حتى يحين موعد مواصلة صاحبي وثلاث ساعات تفصلني عن موعد مواصلة السفر إلى بوسطن توجهنا سوياً إلى السوق الحرة نقضي بعض الوقت، الجو بارد على الرغم من صالات المطار الدافئة، الساعة السابعة والنصف صباحاً بتوقيت ألمانيا، الجو غائم وممطر بين الفينة والأخرى، أناس ذاهبون وآخرون قادمون ، ذاك يجري وهذا يهرول وهذا يتحدث وذاك يضحك عالم وضعجج وصخب لا ينتهي مررنا بمحلات التحف والهدايا، نظرنا إلى بعض المجوهرات والساعات ذات الماركات العالمية الشهيرة ناقشنا الأسعار وارتفاع اليورو ونخبطه المستمر مقابل الدولار الأمريكي، تذكرنا سفراتنا معاً إلى فرنسا وألمانيا وإلى دبي واليابان، نعم إنها سفرتنا الأولى التي نسافر إلى وجهتين مختلفتين ، تعودنا على السفر معاً مرات عديدة. سرنا نجوب السوق الحرة بالمطار وبعد ساعة ونصف مدة تجوالنا أراد رفيقي بوابة السفر المتجهة إلى سان فرانسيسكو رافقته فما يزال لدي متسع من الوقت، ولما طال الطريق وخفت تضئع طريقي توقفتُ واستأذنتُ الصديق بتركه لأعود إلى صالتي... ودعته وتمنيت

له رحلة ممتعة وتدريباً متميزاً فبادلني السلام بأحسنه والأمنيات بأرقها وأجملها.

شعرت في طريق عودتي بأن قدمي تعبنا وكلتا من المشي وطول الوقوف فقررت التوجه إلى بوابة السفر المتجهة نحو المدينة الأمريكية بوسطن مررت بنقطة التفتيش الألمانية، أودعت حقيبتي داخل جهاز الأشعة السينية ، وأفرغت ما بحوزتي ثم مررت بمنطقة تفتيش أخرى وللمرة السادسة أخضع حقيبتي ونفسي إلى تفتيش!!! سُمح لي بدخول صالة الانتظار..

جلستُ قرابة الساعة أو تزيد قليلاً قبل أن يُنادى على ركاب الرحلة ٤٢٢ المتجهة إلى مدينة بوسطن على متن الخطوط الألمانية لوفتهانزا ... مسار الرحلة مباشرة من فرانكفورت إلى مطار لوغان الدولي..فضلت الانتظار إلى انقضاء الزحمة... ٣٤٥ ركباً على الطائرة بحسب القائمة الرسمية - المنافست - ، ولما انقضت الزحمة قليلاً اصطحبت حقيبتي الوحيدة واتجهت إلى داخل الطائرة، أرشدني الملاحون إلى مقعدي، لم أجد مكاناً شاغراً لحقيبتي السوداء فوق المقعد المخصص لي، بل وجدته يبعدي بعشرة مقاعد أمامي ، أودعت فيه حقيبتي ، ثم توجهت لأجلس على الكرسي ٣٤j ، تشير عقارب الساعة إلى الحادية عشرة والنصف صباحاً بتوقيت ألمانيا أشرقت الشمس على استحياء لتختفي أحياناً خلف الغمام، اكتمل الركاب وأخذ الجميع مقاعدهم استعداداً للسفر،اعتذر قائد الطائرة عن التأخير الناجم عن سوء الأحوال الجوية، وأخبرنا بالزمن الذي سوف تستغرقه رحلتنا قرابة ثباني ساعات.

توجهت الطائرة نحو المدرج وأُعطي الإذن للقائد بالإقلاع وما هي إلا دقائق وستبدأ ، رحلتنا فوق المحيط الأطلسي ، السماء فوقنا والماء من تحتنا ويا له من منظر! لم أتأمله جيداً ، فعن يميني تجلس فتاة أوروبية الملامح تجلس بجانب الشباك الذي من خلفه المنظر الرائع ، وعن يساري يجلس الشاب الأسمر ذو الملامح الأفروعربية، أخذت قسطنطين من النوم في رحلتي من العاصمة الرياض إلى العاصمة التجارية لألمانيا فرانكفورت، تناولت مصحفني - هدية إخوتي- وأخذت أتلو آياته الكريمة حتى حان موعد وجبة الغداء ووجدتها فرصة سانحة للحديث مع جليسي ذي الملامح الأفروعربية ...

- مساء الخير، كيف حالك اسمي عصام .

- مساء الخير مرحبا .

- أعمل مهندسا للأجهزة الطبية بمستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث بالرياض.

- وأنا أعمل بمهنة المحاماة ومتخصص في تعويضات إصابات العمل.

- إذن يعجبك العرض المرئي، الذي تجري أحداثه داخل حجرات المحكمة.

- إنه حقا كما تقول ، من أي البلاد أنت ؟

- من المملكة العربية السعودية.

- لقد زرت السعودية قبل عشرة أعوام وبالتحديد مدينة جدة عام ١٩٩٤م.

- عشرة أعوام!! لقد تغيرت المملكة كثيرا فهي تشهد نهضة عمرانية منقطعة النظير، إن زرتها فسوف تراها في صورة أخرى غير التي

رأيت.

- أنت تشوقني لزيارة قريبة إلى بلدك.

- حتما، وستكون في ضيافتي . من أي البلاد أنت ؟

- أنا أمريكي من مواليد ١٩٧٥م ببوسطن، والدتي إريترية تحمل الجنسية الأمريكية وتعمل في أيديجان كمسؤولة للشؤون القومية لرعايا الولايات المتحدة الأمريكية في أريتريا، بدأت رحلة العودة بعد زيارتها- من أسمر العاصمة إلى مصر مروراً بفرانكفورت وأخيراً إلى بوسطن.

- بالتأكيد..إنها رحلة شاقّة، أما أنا فبدأت رحلتي من الرياض مروراً بفرانكفورت وهأنذا معك إلى بوسطن لأتدرب على جهاز طبي متخصص.

- رأيتك تقرأ في كتاب تحمله بين يديك أهو القرآن؟.

- نعم ، كيف عرفت!

- كما ذكرت لك فأمي تعيش في بلد فيه كثير من المسلمين وقد رأيتهم هناك.

في تلك الأثناء ناولتنا المضيئة أطباق الطعام في لطف وابتسامة تعكس حسن الضيافة، بدأت في تناول طعام الغداء وكذلك صاحبي ، أما الفتاة ذات الملامح الأوروبية فلإنها نائمة ، انشغلنا عن الكلام بالطعام.. ناولته دجاجتي ... شكرني كثيراً وسرّ أيها سرور، وعلى مائدة الطعام حدثته عن مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث فهو من أكثر المراكز الطبية العالمية تقدماً ، فكثير من الكفاءات الوطنية لدينا تلقت العلم والتدريب في الغرب بشكل عام وفي أمريكا وكندا وأوروبا بشكل

خاص، كما يضم هذا الصرح العريق أكثر من خمسين جنسية مختلفة تجمع مختلف الثقافات وشتى التقاليد والعادات في ظل انسجام وتكيف منقطع النظير، بدت دهشة صاحبي الأمريكي واضحة مما يسمع ، وفي المقابل جعل يستمع بشغف طالبا المزيد.

ثم حدثني عن جغرافيا بوسطن وأفضل المعالم والشواهد التي لا بد من زيارتها بالإضافة إلى جامعة كامبردج العريقة ومعهد ماساسوسيتش للعلوم والتكنولوجيا الشهير MIT وبعض المتاحف التاريخية والأماكن السياحية والثقافية التي تعطي الزائر بعداً تاريخياً وثقافياً وحضارياً عن البلد وأهله، حدثني كثيراً عن المعبر الفسيح Big Dike مبيناً أن بوسطن واجهت زيادة كبيرة في عدد السكان والوافدين إليها ، وشهدت ازدحاماً في طرقها ، فتوجه مسؤولو البلدية إلى قرار بشق نفق تحت الأرض يربط شعث المدينة المتناثر؛ ليساهم في تخفيف وفك خناق الزحمة، وكانت كلفة المشروع قرابة مائة وخمسين مليار دولاراً ، ويعتبر ثالث أكبر مشروع على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية ، سعدت لمعلوماته فعلى ما يبدو أن إجازة نهاية الأسبوع فرصة لزيارة ورؤية هذه الأماكن وزيارة تلك المواقع.

أخبرني الشاب الأمريكي أن بوسطن مدينة كبيرة بها الكثير والكثير من المراكز والكليات والجامعات التعليمية ، وأخبرته أنني سأسكن فندقاً في حي يبدأ اسمه بحرف W - الواو- ذكر لي عدة أسماء ، ولما تحجرت طلبت أن يمهلي بعض الوقت- وحالاً- نهضت من مقعدي وانجهتُ إلى حقيبتني وفتحتها وكانت المرة الأولى التي أفتح حقيبتني منذ

سفري البارحة ؛ لأتناول منها ورقة حجوزات الفندق، عدت مسرعاً إلى مقعدي مناوياً إياه الورقة التي تحمل اسم الفندق وعنوانه، وعدني بإرشادي إلى حيث الحافلة المتجهة إلى الفندق ، كما نصحتني بعدم ركوب سيارة الأجرة لغلاء ثمنه.. شكرته على لطفه ثم تركته يتابع ما تبقى من أحداث العرض.

ذهبت فتوضأت واصلت صلاتي على مقعدي وجلست أتابع بعض أحداث العرض على الشاشة، رأيت قاضياً يجلس على منصة عليا كان الأثاث من حوله فخماً على يسار القاضي ، وأسفل منصته منصة أخرى بها أشخاص -الشهود- يتناوبون عليها بمحاذاة المنصة منضدتان يجلس خلفهما شخصان يتناوبون الحديث تارة لهذا وأخرى لذلك ضجرت ومللت سريعاً من العرض تلحفت البطانية وأظنني رحت في نوم غير عميق، قارب الساعة أو الساعتين.

استيقظت وإذ بالمضيئة تجمع ساعات الاستماع التي سلمتنا إياها في بداية الرحلة، أعلن القائد تعليماً بالرجوع إلى المقاعد استعداداً للهبوط على أرض مطار لوغان إنترناشيونال بالمدينة الأمريكية بوسطن المطلة على المحيط الأطلسي، التفت نحو الشاب الأمريكي مشيراً بيده - نحو النافذة - هذه بوسطن سعادة المهندس، أخذ يشرح لي أجزاء المدينة الشمالي منها والجنوبي، لم يتح لنا القائد رؤية المنظر البارومي للمدينة فعادة ما يطوف قائد الطائرة على معالم المدينة قبل الهبوط بطائرته على الأرض ، ويبدو أنه كما الحال بنا أتعبتنا الجلسة الطويلة في رحلة طال التحليق فيها ثماني ساعات متواصلة، وما إن فرغت من تعبئة الأوراق

الخاصة بالجوازات والجمارك - التي ناولتني إياها المضيئة - حتى هبطت
الطائرة على أرض المطار تمام الساعة الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة
ظهراً بتوقيت بوسطن.

كمين في مطار لوجن الدولي



اتفقت مع الشاب الأمريكي أن نلتقي بالمطار بعد الفراغ من الإجراءات اللازمة، كان يوم السبت ٣/١/٢٠٠٤م الموافق ١٠/١١/١٤٢٤هـ التوقيت في بلدي الثامنة وخمسة وثلاثون دقيقة مساءً ، فارق التوقيت بين الرياض وبوسطن ثمان ساعات ، توجهت إلى موظفي الجوازات أمامي طاوور طويل .. ثلاثون أو أربعون رجلاً وامرأة يصطفون ، لوحة إرشادية متدلية من سقف المكان زرقاء اللون مكتوب عليها لغير حاملي الجنسية الأمريكية ، وأخرى حمراء اللون مكتوب عليها لحاملي الجنسية الأمريكية بالجانب الآخر.

الطاوور يسير سيراً انسيابياً ، عندما اقترب بنا الصف إلى حيث موظفو الجوازات رأيت التوقيت المحلي في تلك الصالة يشير إلى ١٠:٢٠ ظهراً ، لاحظت قيام موظفي الجوازات بسؤال الراكب ثم تصويره بآلة تصوير رقمية موصولة بالحاسب الآلي ، وأخذ بصمة السبابة اليسرى عبر ماسح ضوئي موصل بالحاسب ، تذكرت أنني قرأت في الصحف رفع السلطات الأمريكية حالة التأهب - الطوارئ - إلى اللون البرتقالي إثر تلقيها تهديدات لهجمات محتملة داخل أراضيها ، ولما جاء دوري توجهت إلى الشباك رقم ٥ أو ٧ - فيها أتذكر - رأيت الشاب الأمريكي في طاوور حاملي الجنسية الأمريكية وفيه عدد أقل مما أتاح له مغادرة الصالة سريعاً ، سلمت جواز سفري إلى موظف الجوازات ، طلب مني النظر باتجاه آلة التصوير الرقمية ووضع سباتي اليسرى على الماسح الضوئي ، بعدها طلب مني التوجه معه لإكمال إجراءات إضافية فجنسيتي تتطلب ذلك الإجراءات ، سرت معه إلى منطقة أخرى سلم فيها جواز سفري إلى موظف آخر بمنطقة تسمى منطقة الفحص الثانوي Secondary

Inspection Area - بعد وضعه في مطروف أصفر اللون - أمرني الموظف بالانتظار لحين منادائي، شعرت بالحرارة فخلعت معطفي.. أحسست بالجوع والإرهاق... لا بأس فلم يتبق إلا هذه المنطقة بعدها أقابل الشاب الأمريكي لأتوجه إلى الفندق فأستريح من تعب الرحلة الشاقة الطويلة.

بعد نصف ساعة من الانتظار - في صالة صغيرة الحجم فيها عدد قليل من الكراسي وعدد كثير من الواقفين على أقدامهم ينتظرون أن يُنادى عليهم من قبل أحد الموظفين - طلبني أحد المسؤولين.. فتناولت حقيبي واتجهت خلفه إلى حجرة ضيقة، أرشدني بلطف إلي ترك حقيبي بالخارج وكيف أترك حقيبي؟! لم أفعل ذلك الفعل مطلقاً، إنه مكان عام به عدد من الغادين والعابرين، ثم ألا يمكن أن يصادها رجال الأمن حين لا يعلمون من يكون صاحب الحقيبة المتروكة وحدها!!!، ألا يحتمل أن يعذب بها أحد المارة؟! نعم فكرتُ وتحيرتُ وترددتُ ولكنني أتبع الأوامر وإن كنت غير مقنع بهذا الأمر تحديداً، لم أناقشه.. أسندت حقيبي إلى إحدى الكراسي.. وفي الغرفة أخبرني بأنه تسجيل متطلب ويحتاج لتوجيه بعض الأسئلة التقليدية:

- ما اسمك؟ .

- اسمي عصام محمد المهندس.

- ما طول المدة التي سوف تقضيها في بوسطن؟.

- تسعة أيام، مدة التدريب وإجازتي نهاية الأسبوع.

- حسناً، أين ستسكن طوال هذه المدة؟.

- ستكون إقامتي في حي والشم Walthum .
- ذكرت أنك هنا لحضور تدريب متخصص، فأين سينعقد التدريب؟
- في مصنع الشركة .
- جيد، ماهي أرقام الاتصال التي يمكننا التوصل إليك إذا تطلب الأمر؟.
- هناك مدربي الشركة الأمريكية المصنعة لمضاعف الشريط الوراثي سوف أكون برفقتها معظم الوقت.

كان الموظف بطيئاً في إدخاله المعلومات عبر جهاز الحاسوب من أمامه وفي نهاية المقابلة شكرني وتمنى لي إقامة سعيدة !! بادلته الشكر، نهضتُ واقفاً وقبل مغادرتي الغرفة أخبرني بأن عليّ المرور لهذا المكتب قبل مغادرتي الأراضي الأمريكية لتسليم نفس ورقة التسجيل التي أحملها - وحتى لا أنسى دونت الملاحظة ورقم المكتب - وطلب مني التوجه إلى منطقة العفش والجھارك بالطابق السفلي.

صالة الجمارك.... ومرارة المعاناة



اتجهت مسرعاً مسروراً نحو حقيقتي ومعطفي اللذين أعياهما التعب
فاستندا على طرف إحدى الكراسي، غبت عنها قرابة ثمان دقائق مدة
مقابلتي مع المسؤول ، لم يتبق لي إلا القليل لأستمع بمنظر المدينة التي
رأيت جزءاً منها قبل هبوط الطائرة منبت نفسي برؤية عوالم ومناظر كثيرة
سأرى الأمطار الثلجية تكسو الأرض غطاءً ناصع البياض سأستنشق
الهواء الأكسوجيني النقي ليعث في الجسد والروح نشاطاً وانتعاشاً
غير محدود.. عندما أصل - وكان حديث النفس - إلى الفندق ستكون
الساعة الرابعة عصرأ ، الثانية عشرة منتصف الليل بتوقيت بلدي،
سأجرى اتصالاً بوالداتي وزوجتي بعدها سأقوم بأخذ حمام دافئ وأنام
ساعة، عقبها أقوم بجولة استكشافية حول الفندق كما هي عادتي، ففي
سفري أحب التجوال وأهوى الاستكشاف سأتصل بالشركة وأخبرهم
بوصولي ؛ لأتعرف على جدول التدريب بعد غدٍ الاثنين ، يدور كل هذا
في خلدي وأكثر !! فيا ترى ما هو شكل الفندق؟ وكيف غرفه ومرافقة
وخدماته؟ جعلت بحق أستبق الزمن بأفكارتي خطوات نحو السلم
نزلت سلاله مسرعاً فلقد تأخرت كثيراً على صاحبي الأمريكي، قطع
استرسال خطوات أقدامي صوت رجل يرتدي بدلة كحلية اللون نحيل
الجسم متوسط القامة أبيض البشرة فرنسي الدماء، تعلق شفثيه ابتسامة
لم أرتح له، ذلك شعوري لأول وهلة رأيتُ فيها أحد مفتشي الجمارك
بالمطار وبعد أن رمقني بنظرة مريبة ، رفع صوته قائلاً ..

- أعطني جوازك.

- تفضل !!!.

وبعد تفحصه وتقليبه لصفحاته بعض الوقت

- اتبعني .
- أجل !!! .

أخذ المفتش يمشي مشياً متمهلاً حثيثاً وأنا أسير خلفه، اتجهنا نحو سير تفتيش الأمتعة، المنطقة شبه خالية إلا منه ومني وبعض المسؤولين في مكاتبهم وبعض المارة من المسافرين القادمين الذين لم يوقفهم أحد!!

- هل لديك حقائب أخرى؟ .
- لا .
- هل تملك أكثر من عشرة آلاف دولار؟ .
- لا .
- هل أعطاك شخص ما شيئاً لتدخله إلى أمريكا؟ .
- لا .. أبداً ! .
- لماذا تزور أمريكا؟ .
- من أجل التدريب على جهاز طبي حديث .
- ما هو؟ .

ذكرت له اسم الجهاز، وشرحت له باختصار بعض النواحي الفيزيائية والنظريات التشغيلية لعمل الجهاز قرأت في تعابير وجهه أنها المرة الأولى التي سمع فيها عنه .

- هل تسمح لي بتفتيش حقبتك؟ .
- نعم تفضل .

لبس قفازين ثم باشر فتح الحقيبة، أخرج منها كتابا قرأته على متن الطائرة عنوانه ١٠٠ فكرة للتسامح تطبيقات عملية للتسامح .. يتناول تطبيقات البرمجة اللغوية العصبية وهي تطبيقات للتسامح وإصلاح العلاقات المضطربة أو المقطوعة بالكلية ، لا ولن أنسى نظرتي لي أثناء الشرح المختصر الذي قدمته ، بدا واضحاً أنه لم يفهم شيئاً مما قلته، أخرج من حقيبتي فرشاة الشعر وكريماً وبعض المطويات التوضيحية للجهاز، حملت فيها وتركها مع بقية الأغراض التي أخرجها ووضعها جميعاً على سير التفتيش ، بعد ذلك أدخل يده في الجيب الأمامي للحقيبة وأخرج بعض الأدوية - ففي سفري أحرص على أخذ بعض العلاجات الخاصة بنزلات البرد وبعض الفيتامينات، تفحصها جيداً وفتحها جميعاً، وضعها إلى جانب الكتاب وتلك الأوراق وفرشاة الشعر والكريم.

أدخل المفتش يده داخل جيب حقيبتي السوداء وأخرج ثلاث عينات صفراء أسطوانية الشكل لا يتعدى طول الواحدة منها إنشاً ونصف الإنش - حوالي ٥, ٣ سم - .. أمسك بواحدة منها :

- (برود) ما هذه ؟.

- (باستغراب) فيما تبدو لي أنها تلاوين رسم زيتية !!!.

وأشرت بيدي راسماً على الهواء في حركات وصفية توضيحية قاصداً طريقة الاستخدام

- (بنبرة حادة) قلت لك ما هذه ؟ .

في إشارة أن إجابتي غير مقنعة له، فطريقته في إعادة السؤال تقول ذلك بوضوح لا يخالجه الشك. إنني أقف على جانب من سير التفتيش صامتاً محتاراً لا أدري بماذا أجيب!!! والمفتش يقف على الجانب المقابل .

يفصل بيننا قرابة نصف المتر هو عرض السير وقد تزيد قليلاً أردت مسك العينة التي بيده نهرني فتناولت العينة من فوق سير التفتيش وأخذت الورقة التي بها حجز الفندق حتى ألون -أرسم- عليها مبيئاً له كيفية الرسم أو التلوين، وعندما أمسكت العينة بيدي وعلى مقربة مني أدركت أنها ليست تلاوين زيتية كما ظننت .. رفعت رأسي نحو المفتش وإذ بي أرى منظرًا ارتعبت منه أكثر، رأيت العينة بيده انكسرت وتنساب منها بودة سوداء اللون...

- (بنبرة أحد وأقوى !!) للمرة الثالثة، أسألك ما هذه .. أجب ؟

وقفت مذهولاً صامتاً !!!!

كانت نظراته تقدح لهباً بدا كذئب مفترس أو كضبع جائع مسعور.. تسمرت قدمائي وانطبقت على بعضها شفتائي وجحظت عينائي، سكْتُ ولم أجد جواباً فأنا- بالفعل - لا أعرف ماهية العينات وما جعلني - في بداية الأمر - أصفها بتلاوين رسم زيتية، سبيان :

أولهما الشكل الظاهري للعينات شكل تلاوين زيتية . والسبب الآخر زوجتي ممن يهوى الرسم واستعمال أدوات الرسم بشتى أنواعها.

سرحتُ أفكر يا تُرى ماذا تحوى تلك العينات ؟ وما هي المادة السوداء المنسكبة ؟ أتراها مخدرات ؟ أم مادة بيولوجية خطيرة ؟ وفي ظل الغيوبة الفكرية والصدمة العنيفة والموقف غير المتوقع وكل المشاعر التي أحسست بها غير أني لا أستطيع وصفها، أمرني المفتش بعدم الحركة والتزام المكان ، غاب عني للحظات وأتى برفقة رجل طويل القامة ضخم البنية أحمر البشرة خفيف الشارب مفتول الساعدين، وفي لهجة أمريكية تمتزج بالصراخ ...

- تناول العينة وأخذ يتفحصها ثم انفجر صارخا) تكلم ما هذه ؟ .
(مشيرا إلى العينات على سير التفتيش) .

- (شارحا بالتفصيل) أمسك مفتش الجمارك واحدة من العينات وسألني عنها فأجبتة تبدو تلاوين رسم زيتية ثم
- (مقاطعا بصوت كالرعد قوة وشدة) هذه ليست تلاوين هراء...
هراء ما الذي تقوله لي!! أنت تكذب علينا أنا لا أصدقك!! أنا لا أصدقك!!

حاولت الشرح .. حاولت التبيان والإيضاح لكنه لم يتح لي فرصة، أخذ يلوح بكلتا يديه أمام وجهي حتى إنني خشيت على نفسي.

أمرني مشرف الجمارك -رئيس المفتش - بالتوجه إلى غرفة أشار نحوها بعد أن اطلع هو وبعض مسؤولي الجمارك الآخرين على العينة التي انكسرت بيد مفتش الجمارك ، تحركت نحو الغرفة خائفاً مضطرباً فقد بلغ الخوف مني مبلغه، شخصت عيناَي وتسارعت دقات قلبي وجف حلقي وتجمدت الدماء في عروقي .. توجهت إلى مصير غير معلوم وفي

غرفة مساحتها لا تتجاوز ثلاثة أمتار مربعة بها دكة حديدية للجلوس عليها ، ومنضدة من الحديد ، أجلسني وأوقف على الباب حارساً مراقباً لحركاتي الساكنة.

جلسْتُ والأفكار تنهيني وأكف الملع تتناوبني ، أحاول استرجاع شريط ذاكرتي، أحقاً ما يحصل لي أم أنه كابوس سأفوق منه بعد قليل، استرجعت عدم اطمئنان والدي لهذه السفرة ، نعم تذكرت وقفة والدي عند عتبة الدار وتذكرت نظرتي ، وأدركت الآن معانيها يا له من موقف! ويا لها من لحظات! تذكرت مخاوف زوجتي.. تذكرت أحاسيسي وضيقه صدري التي أطبقت على أنفاسي... تذكرت بكائي عند قبوري جدائي، نعم مرت أحداث ما قبل السفر أمام ناظري كفلم وثائقي متلاطم الأحداث، ولاح التساؤل الكبير في نفسي ماذا سيحدث لي؟! ما الذي سيفعلونه معي؟! لم أهدئ لشيء عدا أنني تيقنت أنني في ورطة ومكيدة حيكّت لي بإتقان ولن يخلصني منها إلا أرحم الراحمين .

«ورفعت رأسي إلى السماء مستغيثاً ربي ..ربي وأوشك الدمع أن ينبثق من عيوني بل من قلبي وكياني» .

فؤاد تندبل ، المقتون

وبينما حالي بين شدّ وجذب بين حيرة وتساؤل بين خوف وتوجس توجه نحو أي أحد مسؤولي الجوارك ، أمرني بخلع حذائي ووضع ما

بحوزتي على المنضدة الحديدية ، فكانت تذكرة وجواز السفر ومصحفي
وبوصلة الاتجاه إلى مكة المكرمة ومحفظة نقودي وما بداخلها من أوراق،
ساعتي اليدوية ودفتري تدوين الملاحظات ، ومفتاح منزلي وسيارتي
وهاتفني الجوال ، جلس يتفحصها واحدة واحدة

انصرف المسؤول وتركني مع الحارس المتحفظ إذ لم تغب صورتي عن
عينيه للحظة، في خاصرته مسدس وعصا وبعض القيود الحديدية وجهاز
اتصال لاسلكي في منظر مقصود ؛ لإرهاب وإخافة المقابل وليعلم هو
وأتباعه أنه لم تخفني عصاه ولا مسدسه ولا أدري ؟ إن أخافهم مصحفي
وأدخلت في قلوبهم الهلع بوصلتي ... فهما هويتي ووجهتي ... وليته
وليتهم يعرفون ساحة ديني وبساطته وتبسطه مع الغير ..فيا ترى ما
الذي أخافهم وأفزعهم وأدخل الرعب في قلوبهم !!!.

التحقيق ومسرحية الافتراء



حوالي الرابعة عصراً وقد تزيد قليلاً دخل الغرفة رجل وامرأة..
- مرحباً.. أنا من إدارة الهجرة وإنفاذ الأنظمة Immigration and
Low Enforcement وهذا زميلي يعمل معي بنفس الإدارة .
- مرحباً .

بعد إجابتي على أسئلتها التقليدية عن اسمي وسبب قدومي لأمريكا
ورحلتني من الرياض إلى بوسطن وعن أسئلة مكررة.

- حدثني عن العينات التي أخرجها مفتش الجمارك من حقبتك ؟ .
- أنا لا أعرف كيف جاءت؟! ولا أدري من وضعها؟! داخل
حقبتي !! .

وجعلت أنظر إليها وإلى مرافقها الذي يدون ما أقول في ورقة يحملها
نظر إلى أمراً..

- وجه كلامك إلى السيدة فهي من تسأل وليس أنا !.
في إشارة منه بعدم النظر إليه مطلقاً، قسوة وفضاظة غير عادية كنت
أتكلم وأتلفت بعفوية ولكن !!!.....

- ذكرت لمفتش الجمارك بأنك من قام بتجهيز الحقبة بنفسك.. أحقا ؟ .
- أبداً، غير صحيح أنا لم أذكر ذلك مطلقاً كما لا أتذكر
سؤاله عن قام بترتيب وتجهيز حقبتي !! .
- (باستغراب) من قام بترتيب وتجهيز حقبتك؟! .

- زوجتي قامت بإعدادها قبل السفر بيومين.
- هل تخصصك الحقيقية أم تخصص شخصا آخر؟
- بكل تأكيد تخصني ، أنا لا أستعير حقائب الغير مطلقا ، لقد كانت الحقيقية في صحبتي عدة سفرات ماضية.
- أرايت تلك العينات من قبل؟!.
- لا، إنها المرة الأولى التي أرى فيها تلك العينات.
- لماذا ذكرت للمفتش عندما قام بتوجيه السؤال عن ماهية العينات ؟ لماذا وصفتها بأنها تلاوين رسم زيتية؟.
- لأنها حقا تشبه التلاوين في شكلها الخارجي.
- أريد الاتصال بوالديك أود التحدث مع زوجتك وأهلك.
- لا.. لا تفعلني .. حبذا لو أخبرني سفارة بلسدي المملكة العربية السعودية.

رفضت اتصالها بوالديّ وزوجتي فوالدايّ شيخان.. كبيران..
مريضان وزوجتي متعبة تقضي فترة ما بعد الحمل وحتىها سيؤثر خبر
كهذا على حالتهم الصحية.

في حوالي السابعة والنصف مساءً جرى اللقاء الأول مع محققيّ المباحث
الفيدرالية Federal Bureau of Investigation برفقتها مسؤول
من شرطة ولاية ماساسويتش State Trooper Massachusetts
قدم الجميع أنفسهم ومازلت لا أصدق ما يدور حولي من أحداث
ومجريات، فمن مهندس جاء للتدرب إلى متهم في استجواب تحت ضغط
نفسي رهيب.. أسئلة وأجوبة مراقبة وملاحظة تفحص وترقب.

ترى ماذا تحمل تلك العينات؟! أهذه الدرجة هي خطيرة حتى يستجوبني موظفوا الجمارك وحماية الحدود ، وكذلك مسؤولو الهجرة وإنفاذ الأنظمة وسيتم استجوابي من ممثلي هيئة المباحث الفيدرالية ومعهم ممثل شرطة الولاية ، سلمني محقق المباحث الفيدرالية FBI ورقة مكتوب عليها لائحة الحقوق Advice Of Right أمرني بقراءتها بصوت يسمعه الجميع

- هل تعي وتفهم ما تقرأه علينا ؟ .

- نعم أدركه وأفهمه تماما.

- والآن اكتب اسمك نهاية كل فقرة تقرأها.

- حسنا.

إن فقرات لائحة الحقوق مكتوب فيها ما يلي :

قبل أن نوجه إليك أي سؤال لا بد لك من معرفة حقوقك.

١- لك الحق أن تبقى ساكناً.

٢- أي شيء نقوله من الممكن أن يستخدم كدليل ضدك في المحكمة.

٣- لك الحق في طلب مشاورة المحامي قبل سؤالك.

٤- لك الحق أن يحضر محاميك أثناء التحقيق معك.

٥- إذا لم يكن بمقدورك تعيين محامٍ للدفاع عنك، فإنه سوف يعين لك محامٍ إذا أردت .

٦- إذا قررت أن تقوم بالإجابة عن الأسئلة الموجهة إليك بدون

وجود محام فإنه من حقلك التوقف عن الإجابة متى ما أردت .
وقعت أمام كل عبارة قرأتها وأبدت استعدادي للإجابة عن أي تساؤل
أو استفسار يوجه إليّ، بدأ محقق المباحث الفدرالية يسأل ويدون صاحبه
إجاباتي ، واستغرق زمن استجوابهم حوالي الساعتين .

نعم جلست مشدود الأعصاب متوتراً بعض الشيء ، فلا أملك تفسيراً
عقلانياً لما يحدث معي ويبارس، إن السؤال الملح هل ما يدور حولي من
أحداث حقيقة أو خيال؟! أهو حلم وكابوس؟! أم صحو ويقظة؟!
ذهول! وهلع! استغراب! ومشاعر أخرى لم أتبينها حينذاك .. إلهي ..
مولاي ماذا دهاهم هل أصابهم الجنون ، أم إنه الحقد الأسود الدفين
نحونا نحن المسلمين!!؟

تضمننا الأربعة بل الخمسة إذ إن خامسنا حارس الغرفة التي لا تتجاوز
في مساحتها ثلاثة أمتار ، بلون حيطانها الصفراء وبابها الرمادي، إضاءتها
بيضاء خافتة ... منضدة حديدية ودكة مثبتة على الجدار لا يتجاوز
طولها متراً ونصف المتر ، وعرضها ربع متر إن برودة المسطبة ثم برودة
الأرض - مجرداً من حذائي - تتسرب إلى أطرافي ، تعب وإرهاق فأكثر
من تسع عشرة ساعة بين طيران وانتظار في مطار فرانكفورت وأكثر من
ثمان ساعات في مطار بوسطن بين الجوازات ومنطقة الفحص الثانوي
والجمارك ، وأخيراً بين أيادي المحققين.. كل تلك الظروف لم تراع، ولم
تستشعر من قبل حماة حقوق الإنسانية وطالبي الفضيلة ، ممن تناوب
على استجوابي واحداً تلو الآخر ، وكنت أردد في نفسي لا بد من ظهور
الحقيقة وسيعرفون ألا علاقة لي بهذه العينات، وسيسمحون لي بالذهاب

إلى الفندق ؛ كي أستريح وعلى أسوأ الأحوال فسيتم ترحيلي إلى بلدي ،
ذلك أقصى ما دار في خلدي ...

آه ما أصعب الإحساس بالتعدي والظلم والبحث في ذاكرة أصابها
الذهول من هول المصيبة وفداحة الموقف!!! لقد تحجرت في المحاجر
الدموع ، وخنقت في الحناجر كل الحروف وتبعثرت الأفكار ، تجرد
التحقيق من أدنى المشاعر الانسانية فكيف يجرى التحقيق مع إنسان
أنهكه طول السفر، كان محقق المباحث الفيدرالية حاد النظر جامداً
كجمود المنضدة والكرسي بارداً كبرودة الجو المحيط عابس الوجه شاحباً
متجهماً .

- ما اسمك ؟ وكم عمرك ؟ وأين تعمل ؟ وما طبيعة عملك ؟ .
- اسمي عصام محمد المهندس من مواليد ١٩٧٠ / ٨ / ٣م أعمل
بمستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث بمدينة الرياض
عاصمة المملكة العربية السعودية بمسمى وظيفي مهندس أجهزة
طبية .
- هل تحمل لقباً أو كنية تعرف بها NickName ؟ .
- لا أبداً .. لا يوجد .
- هل أنت متزوج ؟ ومنذ متى ؟ وهل لديك أطفال ؟ وكم تبلغ
أعمارهم ؟ .
- متزوج منذ أربعة أعوام ؟ ولدي طفلان «محمد» وعمره عامان وثمانية
أشهر ، و«وسن» فعمرها خمسة أيام .
- (بجمود) أين درست تخصصك في هندسة الأجهزة الطبية ؟ .

- درسته بجامعة الملك سعود بمدينة الرياض .
- إنك تجيد اللغة الإنجليزية تحدثاً ، وقراءة ، فهل سبق وأن قمت بزيارة للولايات المتحدة الأمريكية ؟ .
- لا.. ولكن دراستي عبر مراحل التعليم المختلفة الابتدائي والمتوسط والثانوي خاصة الجامعية تستدعي إجادة اللغة الإنجليزية، كما أن المستشفى تضم أكثر من خمسين جنسية وسيلة الاتصال فيما بيننا اللغة الإنجليزية.
- إذن هذه المرة الأولى التي تزور فيها الولايات المتحدة الأمريكية ؟
- نعم إنها المرة الأولى .
- اشرح لنا طبيعة عملك كمهندس أجهزة طبية وماذا يعني تخصصك ؟ .
- أعمل بمستشفى الملك فيصل التخصصي وهو مستشفى تخصصي من الدرجة الثالثة يحوي الكثير من الأجهزة العلاجية التشخيصية، ويستدعي وجود التقنية المتطورة أباذي مدربة ؛ لتشغيلها وصيانتها وإصلاحها إذا ما تطلب الأمر ، هذا بعض من تخصصي والذي يفوق ذلك الدور .
- كم مضى من السنين وأنت تعمل في المستشفى المذكور ؟ .
- أنا على وشك إتمام عامي التاسع .
- هل تشعر بمشاعر عدوانية أو سلبية نحو الأمريكان ؟ .
- لا .
- ولا العسكريين منهم ؟ .
- لا .
- أنت مسلم سني أم شيعي ؟ .
- أنا مسلم سني .

- هل لك رأي معين حول الأحداث بالعراق بعد دخول الجيش الأمريكي؟.
- سمعت وقرأت عبر وسائل الإعلام أنهم جاءوا لتخليص العراق وليس لي ميول أو اتجاهات سياسية ولا أعرف أكثر.
- كيف الأمن في بلدك السعودية؟.
- سافرت كثيراً لدول في أوروبا وآسيا وأفريقيا ولم أر أكثر أمناً من بلدي.
- هل تنتمي إلى تيارات دينية معينة؟.
- لا.. لست أنتمي إلى أي تيار ديني.
- ماذا تعرف عن الوهابيين؟ ألك صلة بهم؟.
- لا أعرف عنهم شيئاً.
- كيف تتعامل مع الأمريكيان في بلدك وكيف يعاملون على وجه العموم؟
- الشعب الأمريكي وخصوصاً من هم في بلدي جاؤوا لكي يسهموا في النهضة العلمية والتقنية التي تشهدها ، نحن الشعب السعودي نكن لهم الاحترام والتقدير نقدر لهم جهودهم وإخلاصهم، نعاملهم أحسن المعاملة بأمر من ديننا وتوجيه من ولاة أمرنا.
- ما هي الدول التي سافرت إليها؟.
- سافرت إلى دبي ، الكويت ، البحرين ، مصر ، الأردن ، تركيا ، ماليزيا ، سنغافورة ، ألمانيا ، فرنسا ، هولندا ، اليابان.
- هل سبق لك السفر إلى أي من باكستان ، إيران ، أفغانستان ، ليبيا ، الجزائر ، السودان ، الفلبين؟.
- لا لم يسبق لي ذلك.
- هل لك اتصال بتنظيمات مشبوهة؟.

- لا.. لست على علاقة بأفراد ولا تنظيمات مشبوهة.
- هل أنت من المتشددين أو المتطرفين؟
- ديننا دين الساحة واليسر والسلام، وليست متطرفاً ولا متشدداً.
- هل تصلي أو تتردد على أماكن العبادة كثيراً؟
- نعم خمس مرات باليوم .
- ألا تعتقد أن خمس مرات باليوم كثيرة جداً؟
- أنا مأمور كمسلم بذلك ، وأنا أتبع تعاليم ديني .
- هل سافرت وحدك أثناء سفرتك إلى أمريكا؟
- في رحلتي من الرياض إلى فرانكفورت برفقتي المهندس محمد الحيان.
- ومن غيره؟ .
- أبداً أنا وهو فقط.
- ومن هو محمد الحيان؟
- محمد الحيان زميلي بالعمل نعمل معاً بالمستشفى نفسه وبذات القسم والشعبة.
- منذ متى وأنت تعرفه؟
- منذ خمس سنوات مدة عملي معه.
- ماذا تعرف عنه؟
- هو شاب طيب ذكي ومتزن.
- هل لديه تطرف أو ميول سياسية؟
- لا .. أبداً.
- كيف التقيت به قبل السفر؟
- بالمستشفى حيث أوقفت سيارتي، ثم توجهنا إلى المطار.

- بسيارة محمد الحيان ؟ .
- بل برفقة زميلنا المهندس فيصل الفارسي التقينا بالمستشفى وأخذنا بسيارته إلى المطار .
- في أي يوم وكم كانت الساعة ؟ .
- مساء أمس الجمعة حوالي الحادية عشرة قبل منتصف الليل بتوقيت السعودية .
- من رتب حقيبتك ؟ .
- زوجتي من قامت بترتيبها وإعدادها .
- وهي من وضع المواد ؟ .
- لا.. بالطبع .
- وكيف عرفت أنها لم تفعل ؟
- أنني أثق بها ثقة مطلقة، ومتأكد من حبها ومن أنها لم تضع لي هذه المواد .
- محمد الحيان إذن هو من وضع المواد ؟ .
- لا.. بالطبع .
- إذن أنت تتهم فيصل الفارسي الذي قام بتوصيلكم إلى المطار ؟ .
- لا .. لا أنا لم أقل ذلك .
- من تتهم ؟ .
- لا أتهم أحداً على الإطلاق ، ما أعرفه أنني لا أدري كيف وصلت المواد إلى داخل حقيبتني ، بالطبع أنا لم أضعها ولا أعلم من قام بوضعها ولست أدري ما طبيعتها ولا طريقة استخدامها ، ما أعرفه أنني مررت بأربع نقاط تفتيش بمطار الرياض ونقطتي تفتيش بمطار فرانكفورت قبل صعودي إلى الطائرة المتجهة نحو

بوسطن، لقد غابت الحقيقة عن ناظريّ عندما نمت بالطائرة ولا أدري إن فتحها أحد الركاب أو فُتحت بمنطقة الفحص الثانوي بمطار لوغان هنا ببوسطن عندما أمرني الموظف بترك الحقيقة بالخارج والدخول معه في الغرفة التي استغرق مكوثي فيها حوالي ثماني دقائق.

- هل تشير بأصابع الاتهام إلى مسؤولي الجمارك أو الأمن بالمطار؟.
- لا أتهم أحداً ولكنني أسرد ما حدث لي.
- ما سبب زيارتك إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى بوسطن بالتحديد؟.
- أنا في رحلة تدريب على جهاز اشتراه المستشفى التي أعمل بها وأنا المهندس المرشح لحضور التدريب.
- هل من المفترض أن يتواجد ممثل الشركة في استقبالك؟ .
- لا أبداً.. لا أحد.
- أين ستسكن وهل لديك حجز مؤكد؟ .
- سأسكن بحي والثم، ولدي حجز مؤكد .
- بماذا تفسر أن حجز الفندق بحوزتك باسم آخر وليس باسم عصام المهندس؟.
- للأسف لم يتمكن مهندس الشركة بالرياض من تسليمي حجز الفندق المدون فيه اسمي وأعطاني ورقته مؤكداً وجود حجزاً باسمي في الفندق المذكور.
- الآن قُصّ عليّ الأحداث بالترتيب منذ أن التقيت بزملائك بالمستشفى إلى أن تقابلنا سوياً في هذه الغرفة؟!!

وبدأت أحدثه بما جرى منذ إخباري بالسفر من قبل رئيسي المباشر بالعمل ، وتقديم أوراقي لسفارة واشنطن بالرياض إلى أن حطت قدمي مطار بوسطن ، ما أكثر ما قاطعني مستوضحاً بعض الأمور ، وكذلك زميله والشرطي بسيل من المقاطعات والاستيضاحات والاستطلاعات والتساؤلات.

لقد بلغت آنذاك درجة من الإعياء والتعب حتى إنني كنت أعتصر ذاكرتي وأراقب كلماتي وحروفي المنهكة المتعبة ، أتأني مراراً وتكراراً قبل نطقها ، لأنني وقعت على لائحة الحقوق فكل كلمة من الممكن استخدامها ضدي وإن لم أقصدها، سمعت عمّن يتحدث عن مسؤولية الكلمة في تلك الأثناء ، أحسست وأدركت حقيقة المقولة ووعيت أبعادها ، ولأول مرة في حياتي أتحدث الإنجليزية وأتجاوز بالإنجليزية مدة تجاوزت ست ساعات يا له من موقف!! ويا لها من ساعات!! بل أياماً ودهوراً صعبة عصبية عسيرة طويلة، لي الحق في التوقف عن الاسترسال عدا أنه ليس لدي ما أخفيه ، فلم أقترف جرماً ولا ذنباً حتى أتوقف عن محاورتهم والإجابة عن أسئلتهم السخيفة تارة ، والاستفزازية تارة أخرى، كنت على يقين لا يداخله شك، أنها أسئلة لثيمة فيها مراوغة الثعالب وخبث الذئاب ، لقد أكرمناهم..أنصفناهم وما ظلمناهم.. ضحكنا في وجوههم وما عبسنا..ألنا الحديث معهم وما قسونا فلماذا كل هذا الشزر والتعسف ولماذا التعامل الفظ ، والأسلوب العنجهي والظلم الأعمى، أسئلة لإضافة تهم جديدة ومن جهة أخرى التشهير باسم بلدي وسمعته، بلدي الذي ملأ الأصقاع نبلاً وعطاء ، فلير العالم بأسره ولتحك الدنيا أجمعها العدالة الأمريكية والتعامل الراقي والأدب

الرفيع والسلوك الأمثل عبر الأزمان مع أعزل مسلم ، جريمته مسافراً
قاصداً العلم إلى بلدٍ اختلفت فيه موازين الأعراف ، وتبدلت الحقائق ،
وتغيرت المفاهيم ، وتكبلت فيه العلاقات ، ولبس الذئب جلد الحمل
الوديع.

رحم الله القائد المغوار صلاح الدين الأيوبي ، لما مرض قائد الجيش
الصليبي الذي كان يحاربه أرسل له طبيبه الخاص ، كي يعالجه فأين أنتم
من هذه الأخلاق ؟ وأين أنتم من هذا السمو في التعامل ؟. هذا هو
الإسلام وعظمة المسلمين ، هذه حضارتنا وليست حضارتكم المزيفة
وشتان ما بين الثرى والثريا .

انتهيت من سرد قصتي كاملة لمحققَي المباحث الفيدرالية ومسؤول
شرطة الولاية التاسعة والنصف مساءً ، تحاملت على نفسي لأبدو
متناسكاً راسخاً صلباً ، ولكن الإعياء بلغ مني مبلغاً ، وكذلك البرودة
تغلغلت إلى كل ذرة في جسدي ، لا أستطع الاحتمال ولا تحمل أكثر مما
مضى .. جلست أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر لحظة انتهائي من سرد
كل شيء ، فقد قلت كل شيء أعرفه ، تحدثت عن كل ماله علاقة وما
ليس له أي صلة بهذا الموضوع رجاء أن أسمع ما يسرني أو ما يهون ما أنا
فيه من هم وكرب.

تكلم محقق المباحث الفيدرالية متسائلاً

- هل نحضر لك شيئاً تأكله أو تشربه ؟ .

- لا... فأنا لا أشعر برغبة في تناول شيء.
- هل تعلم أن المادة التي وجدت في حوزتك هي مادة البيروتكنيكل
Pyrotechnical Device .

سمعت ما قال- وما أدركت آنذاك أنها مصطلح يطلق على خليط من
أملاح الفسفور ومواد قابلة للاشتعال والانفجار - هزرت رأسي ولم
أسأله ماذا تعني هذه الكلمة ولا أبعادها فما زلت أتوقع أن يكمل بإطلاق
سراحي أو يارجاعي إلى بلدي ولكنه أكمل فقال

- عصام المهندس أنت متهم بتهمتين...

الأولى: حمل مواد متفجرة على متن الطائرة.
الثانية: الإدلاء بمعلومات خاطئة عمدا لموظف الجمارك.

عصام المهندس أنت رهن الاعتقال.

نطقها فانطفأ بصيص الأمل وتلبدت غيوم الحزن بدنياي .

نزلت كلماته على سمعي ثقيلة كالرصاص عنيفة مدوية كالصاعقة
ولهول الصدمة وهول الفجيرة تسمرت في مكاني ، وتولاني حزن عارم
حزن ممزوج بالرغبة في الصراخ ، لقد أحدثت كلماته زلزلة عظمى في
أعماقي وروحي وكياني وأطرقت رأسي نحو الأرض أفكر في مصيري

فماذا عساي ألقى في غربتي؟! إنه قضاء الله عز وجل ولا مفر منه إلا إليه.

أدرت الحقيقة الواضحة كفلق الصبح ساطعة سطوع الشمس، فلم تكن الساعات الطويلة ووابل الأسئلة لاستشفاف الحقيقة ولا لمعرفة الأحداث بقدر ما كانت لكيل التهم وتدبير المكائد وتلفيقها والتضليل والتلاعب بالألفاظ والكلمات حتى تستخدم ضدي في دهاليز محاكمهم وهيئات هيئات يبلغوا مقاصدهم، فأحكم الحاكمين مطلعٌ عليم خبير، لم أتوقع كلمة الاعتقال توجه إلي! فلماذا؟ وأين؟ وكيف؟! وغيرها من أسئلة الاستفهام والاستغراب والاستنكار تدور في محيط رأسي المتعب بعد أكثر من خمس وعشرين ساعة قضيتها بين سفر وتحقيق وشتى ممارسات الضغوط التي تعرضت لها لأول مرة في حياتي، تجربة قاسية ومعاناة مضيئة فلم أتعرض في حياتي للتوقيف أو الحجز فكيف بالاعتقال خارج أرض الوطن؟! وبسبب مجهول لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه فخ نصب لي عن علم وتخطيط مسبقين بمطار لوغان .

وتوالى أحداث السبت الكئيب



عندما سرد مسؤول المباحث الفيدرالية قائمة التهم الموجهة إلى شخصي المسلم وأتبعه بخبر الاعتقال أحسست بكيانِي يتزلزل وسرى إلى قلبي حريق راح يحرقه ، بل يشويه .. فقام ممثل شرطة ولاية ماساسيوسيتش بوضع القيد الحديدي على معصمي، وسار بي مع مسؤولي المباحث الفيدرالية عبر الباب الخلفي إلى ساحات المطار الخارجية.

خيم الظلام جميع الأرجاء، الجو شديد البرودة، السحب المطرة تطوق سماء المدينة.. انطلقت بنا سيارة الشرطة في ساحات المطار المليء بالطائرات، وإلى خارج المطار تجوب شوارع مدينة بوسطن المبتلة بشلالات السماء المنهمرة ، الأنوار خافتة محاطة بهالات من الضباب، الحركة في الشوارع أقرب إلى السكون ، بل أطبق على المدينة صمت رهيب، أقرب تلك المناظر وأشاهد المشاهد من خلف زجاج نافذة سيارة الشرطة ، لا أدري إلى أين وجهتنا؟ دارت بي الدنيا مرات ومرات وكأن الأرض تموج من تحتي موجاً رددت في نفسي هل ما يدور حولي من أحداث حقيقة أم كابوس؟! وقفت بنا السيارة أمام مبنى لم أتبين معالمه فالظلام والأمطار الغزيرة لا تتيح رؤية واضحة، تحدث الشرطي إلى حارس المبنى، ففتح لنا الباب وعبرت السيارة وأغلق الباب من خلفنا، ولما وقفت السيارة في الموقف المخصص نزل ممثل الشرطة ومحققي المباحث الفيدرالية، سرت مقتاداً في معيتهم إلى داخل المبنى ، ولأول مرة تُؤخذ لي صورٌ فوتوغرافية وُرفعت بصمات كلتا يدي، إنني أرتمي الجيتز وقمصا أزرق اللون ومعطفاً يحميني من برد المدينة الثلجية، وقبل إيداعي الزنانة قضت تعليقات ممثل الشرطة بخلع حذائي ومعطفي وسمح لي باصطحاب مصحفِي فقط.

أدخلت الزنزانة التي لا تتعدي مساحتها ثلاثة أمتار إنارتها صفراء خافتة، ومن فوقها آلة تصوير للمراقبة يوجد بالزنزانة مرحاض ومسبطة خشبية مثبتة على الحائط تكفي للجلوس، أقفل الباب من خلفي، يالها من لحظة حرجة للغاية بدأت أفقد الإحساس بالزمان... جلست على المسببة الخشبية محتاراً، توقفت الأفكار في عقلي، فقدت الإحساس بما حولي تكأكات على نفسي، أطرقت رأسي إلى الأرض وللمرة الأولى بكيت بكاءً حاراً... ذرفت الدموع من عيني كالطرر، أحسست بهبوط ودوخة أصابتنني كيف لا! وطول الرحلة والانتظار ومن ثم دوامة التحقيقات التي مررت بها كفيلاً بشعوري بتلك اللوعات والآلام والآهات، أسندت رأسي على الحائط ورحت في إغفاء لا أدري مدتها.

إن الساعة بالتأكيد تجاوزت منتصف الليل ... صوت خرفشة من خلف باب الزنزانة فتحت عيني؛ لأستبين الأمر إنه السجنان وضع من تحت الباب وجبة -من اللحم- ومشروب غازي تركتها مكانها، ولم تمتد يداي نحوها، لا أشعر برغبة في تناول شيء على الرغم من إحساسي بجوع يمزق أحشائي، ما يشغلني هو النهاية!! كيف ستنتهي المحنة التي أواجهها؟

في ليلة ليلاء أغفي بدرها وطغت على النجم الكليل غيوم
ماجت بصدري آهة مكتومة وسرت بنفسي لوعة وهموم
وظفقت أبكي والظلام يلفني واليأس يذكي لوعتي ويديم
وخشعت لله الكريم مهابة إن الخشوع لغيره مذموم

الشاعر يحيى توفيق

أغمضت عيني مرة أخرى ونمت ساعة ساعتين ثلاث ساعات أكثر أم أقل لا أدري، فمعالم الزمن والوقت في ذلك المكان من المستحيل تحققها، عندما فتحت عيني أدركت يقيناً ما أنا فيه حقيقة لا خيال وواقع أعايشه، سلمت أمري إلى المولى عز وجل ..

نهضت من مكاني فتوضأت ورجعت إلى المسطبة الخشبية، فهي مكان جلوسي ونومي، فتحت مصحفني وأخذت أتلو آيات الرحمن فنزلت عليّ السكينة والطمأنينة، قرأت ولا أدري كم من الوقت مضى تالياً للقرآن، في تلك الأثناء أتاني إحساس بدخول وقت صلاة الفجر لا أعرف مصدره ووقفتُ على الدكة أو المسطبة كبرتُ ناوياً أداء صلاة الفجر.

وبعد الصلاة رفعت يداي إلى الكريم أبتهل وأبكي أدعوه أرجوه أتضرع إليه ... (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلمني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بي غضبك، أو أن ينزل بي سخطك لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)
دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عندما عاد من الطائف بعدما لاقى من أنواع الأذى من أهلها.

إن في الرياض أهلي ومتزلي ، وفي مكة روحي وقلبي ، وفي بوسطن
جسدي إنني ممزق الروح والقلب والجسد..

أنت مولاي تراني ودموعي فوق خدي
أقطع الليل أقاسي ما أقاسي فيه وحدي

محمد حسن عواد

وكانت ليلة دهماء طويلة عملة..كثيبة..وحدة قاتلة أحس كأن الدقائق
والشواني أياد أئمة تخنقني تعذبني ،فتُح باب الزنزانة بعد فترة من الزمن
طالت، طلب مني أحد رجال الشرطة السير معه، وفي غرفة من الغرف
قابلت رجلي المباحث الفيدرالية اللذين قابلتها بالأمس بمطار لوغان
الدولي أمراني بالجلوس ، قال أحدهم : جئنا اليوم لمساعدتك فتعاونك
سيساعدك كثيراً أجبت في نبرة حازمة : بالأمس قلت ما أعرفه وأخبرتكم
عن كل تساؤلاتكم التي وجهتموها إليّ ، ما سأقوله لكم اليوم ما هو إلا
إعادة وتكرار لما قلته البارحة ، أرجو ألا تتصورا أنني سأقوم بتغيير أقوالي
نظر كل منهما بالآخر ثم تركاني وحدي ، وذهبا إلى الغرفة المجاورة.

يوجد في الغرفة التي أجلس فيها ساتر زجاجي مظلل فكانا يراني
ولا أرها، بعد دقائق حضرا يحمل أحدهم هاتفي المحمول ..طلبنا مني
إعطاءهما أرقام وأسماء من بقائمة الهاتف، فقممت بترجمة المحتويات من
العربية إلى اللغة الإنجليزية، جلس أحدهم يسجل أقوالي بينما ظل الآخر
ينظر إلى وجهي ، كأنها يقرأ شيئاً مكتوباً على قسماته ، وبعدما أفرغاً ما
في جعبتيها من أسئلة ، صرحت لهما برغبتني بوجود محام أتناقش معه
في شؤون قضيتي ، فجاءني الرد من أحدهم أن غداً هو الاثنين، سوف

أعرض على المحكمة الفيدرالية جون جوزيف موكلي ، وبإمكاني طلب
محامياً يتولى الدفاع عني ، أعدت إلى الزنزانة وحمدت الله على ما أنا فيه
من ثبات وتماسك .

إنها العاشرة صباح يوم الأحد.. وكم كنت سعيداً لمجرد معرفتي
بالوقت ، وأدركت أنني سلبت نعمة لظالما تنعمت بها ، ولم أدرك ذلك
إلا في محنتي هذه ، أقسم المولى عز وجل بالوقت بل أنزل سورة كاملة في
محكم تنزيله لأهمية الوقت العظمى في حياة الناس، الوقت يعني الحياة
يعني النظام يعني الإنتاج وهو الأيام والشهور والسنوات من خلاله
تحدد الواجبات وتقضى المصالح والحاجات وحياة بلا وقت جسد بلا
روح، قدمت لي وجبة الإفطار فرددتها وكذلك الغداء والعشاء، قضيت
الوقت في ذكر وتفكير فيما سيحدث لي.

وطلع فجر يوم الاثنين ، وأخرجت من الزنزانة ، وجهتنا هي المحكمة ،
لبست حذائي ومعطفي ، وضع القيد في معصمي أركبت سيارة الشرطة ،
بدا الجو نلجياً.. الكساء الأبيض يغطي المدينة ، لم تشرق شمس الصباح
كما رأيت ، بل حجبتها الغيوم عن العيون ، إن كانت تظل أحيانا على
أرجاء المدينة إطلالة العذراء الخجول من بين أكوام الغيوم، جلست
أتأمل منظر المدينة المقعمة نشاطا وحيوية على الرغم من برودة الجو ،
الطرقات تزدهم بالسيارات ، وتعج الشوارع بالمارة ، هذا يفتح متجره
وآخر متجه إلى مدرسته ، وذاك يعدو ليركب الحافلة ، إنها بحق دنيا تعج
بالحياة وأناس تتحرك بحرية.. ما أجمل الحرية!! وما أقيح الظلم في بلد
يعتلي منبر الدفاع عن الحريات ؛ ليذبح الإنسانية بخنجر الحرية!! ادعى

بعضهم زوراً وزيفاً أنهم حماة الحرية ، نصبوا تمثالاً أسموه تمثال الحرية،
تُرى لو تكلم التمثال؟! لقال : كفاكم سخرية وكفاكم شعارات
وواقعكم يحكي خلاف ما ترددونه .

رجلا الشرطة يتبادلان الحديث فيما بينهما ويرتشفان القهوة الساخنة،
تشير عقارب ساعة السيارة التي نقلنا إلى الدقيقة السابعة والعشرين ،
يبدو أننا اقتربنا من مقر محكمة جون جوزيف موكلي، ياله من مبنى كبير
جداً، اتجهت سيارة الشرطة نحو الباب الخلفي والذي يسمح بدخول
السيارة ذات الهوية الرسمية - كما مكتوب على اللوحة الإرشادية -
توقفت السيارة تماماً ، وأطفئ المحرك ، وأغلق باب المرآب من خلفنا
نزل الشرطيان ، وفي صندوق خاص وضعنا سلاحيهما ، فغير مسموح
بدخول الأسلحة بعد هذه المنطقة- بحسب إرشادات اللوحة المعلقة -
طرق أحدهم الباب عبر جهاز النداء - الإنتركوم - بعد لحظات فتح
الباب لهما، اتجه الشرطيان نحوي وأنزلاني من السيارة بعد أن طوقوني
بطوق من الحراس كمجرم خطير من كبار المجرمين ، سرت في رفقتها
إلى داخل مبنى المحكمة، اتجهنا بي إلى غرفة مجاورة لباب المرآب تحوي
مكتب أمني خاص بالمحكمة ، جرى التحقق من هويتي وتم رفع بصماتي
وقبل أخذي إلى وحدة للحجز - لحين عرضي على القاضي - أعلنت
رغبتني في الحصول على محام يتولى شؤون قضيتي .

أخذت إلى وحدة حجز فيها عدد كبير من المحتجزين، في قضية كانوا
الخصم وكانوا فيها الحكم... توجهت مع أحد رجال الأمن إلى حيث
مكان المحامي الذي سيتولى شؤون وملف القضية ، ولما شارفت الساعة

على الحادية عشرة والنصف قبيل الظهر، تحركت وقدمائي مقيدتان بالحديد والحسرة تعصرني والعبرة تخنقني والأرض من تحتي بالكاد تحملني، أدخلني في غرفة لا تتجاوز مساحتها متراً مربعاً، وعبر جهاز اتصال مثبت على الحائط خارج الغرفة قال في لهجة أمريكية إن المتهم في الغرفة رقم واحد ثم دلف، أفل الباب من خلفه، أمامي نافذة زجاجية تحوطها شبكة من الحديد لترى من خلفها رؤية لا تبينها جيداً، يوجد بالنافذة فتحات للمحاذنة.

دخلت امرأة بيضاء البشرة سوداء الشعر، قصيرة القامة على مشارف العقد السادس من عمرها يعلو محياها ابتسامة، جلست على مقعد أمامها بعد أن خلعت معطفها، ووضعت حقيبة تحملها بيدها نظرت إلى ساعتها...

- صباح الخير، أنا المحامية بمكتب الدفاع الفيدرالي سأتولى أمر الدفاع عنك حضرة المهندس.

- شكراً.

- قرأت قليلاً في الأوراق المقدمة من المدعي العام، هل تشرح لي ما حدث معك باختصار شديد.

بصوت متهدج وأطراف ترتعد من البرد، بدأت أقص عليها ما جرى من أحداث، وما حصل من مجريات لما أخبرتني بأننا في مكان يسمح لنا بالحديث دون أن نسمعنا أحد، وما إن فرغت حتى فاجأني المحامية

- (بلهجة واثقة) أنا أصدقك .

- (باستغراب) ماذا قلت، من فضلك أعيدي جملتك الأخيرة.
- حضرة المهندس ، أنا أصدقك .
- كل من قابلت قبلك لم يصدق عدم معرفتي لتلك العينات ، كل من قابلت قبلك يطلب مني قول الحقيقة ، ولست أدري ما الحقيقة التي يطلبونها مني .
- (بتعاطف واضح) لامست قضيتك شيئاً في قلبي منذ أن سمعتها .
- لم أعمل عملاً يخالف القوانين، ولا أعلم كيف وصلت العينات إلي حقيتي .
- ببساطة...توافرت فيك شروط مناسبة لخلق قضية وافتعال مشهد إجرامي جدير بعرضه على الرأي الأمريكي أنت مسلم عربي سعودي ، وهذا يكفي لزجك في هذا المأزق ، جلسة اليوم مع القاضي الماجستير جلسة استماع سيقوم القاضي بسرد الاتهامات التي أحالها المدعي العام إليه ، وسيحدد في الجلسة كفاية الأدلة لإقامة الدعوى ضدك من عدمه .
- أحقاً!! الله المستعان.
- (تنظر إلى الساعة) والآن ... إلى اللقاء سأقابلك بقاعة المحكمة.
- حسناً إلى اللقاء.

لقد كانت المحامية الأمريكية صادقة وجريئة في إبداء رأيها!!! تباً ثم تباً لكم أيها التعساء البائسون المفترون ، تباً أيها الظلمة الحاقدون فهامي المحامية الشريفة تصدح بشهادة الصدق ، والحق كاشفة مكائد النظام الغاشم المفترى اللئيم ، الذي طالما تظاهر بلباس الحمل المسالم الضعيف و الناصح الوفي الأمين ، مخفياً خبث الذئاب ، لطالما أخفى

وجهه القبيح بقناع التحضر والتقدم رافعا شعارات الزيف من مساواة وعدالة وحرية، تبا لهم زجوا بي في غياهب سجونهم ، بعد أن حاكوا لي تهمة مدبرة ومؤامرة خسيصة.. ماذا اقترفت ؟ .. ماذا اقترفت ؟ وبأي ذنب... أخذت على حين غرة ؟ لقد كشفت المحامية مثال الإنسان الغربي المحايد الإنسان الطيب الطاهر ، كشفت لعبة النظام الأمريكي المقامر بحياة الإنسان والشعوب ، النظام الذي يضمم سوء النية وخبيث الطوية والمعاملة اللاإنسانية، فشكراً ثم شكراً ، لقد علمني ديني أن أقول بملء فمي للمحسن : أحسنت ، وللمسيء : أسأت ، فجزاء الإحسان الإحسان وجزاء الإساءة الإعراض والترفع عن الرد بالمثل .

إن نظاماً أباد الهنود الحمر ، وطمس هوياتهم ..إن نظاماً ألقى القنابل النووية على اليابان فقتلت مئات الألوف ، وشردت ودمرت ويطمت..إن نظاماً دمر وتجبر وتعسف لجدير بأن يزج بمثلي في متاهة ملفقة ، ومشهد مفتعل وقضية محبوكة.

حضر من أرجعني إلى وحدة الحجز السابقة وجدتها دافئة بشكل لا يعكس مطلقاً الجو الخارجي، درجة الحرارة كما أخبرتني المحامية والتي لاحظت ارتعاد فرائصي هي الأربعون تحت الصفر المثوي، بعد دقائق حضر أحد السجنائين وأمرني بالانطلاق معه ، يداي وقدماي مغلولتان بالأكبال الحديدية ، يرافقه ويرافقنا رجل أمن آخر، وقفنا أمام المصعد وعبر جهاز اتصال بجانبه طلب السماح لأخذي إلى أحد قاعات المحكمة بأحد الأدوار العلوية ..أدخلت المصعد إنه مجهز بمساحة لحبس عدد ممن

يرادهم ذلك، صعد بنا إلى الدور الذي فيه قاعة المحكمة وقبل دخولي إلى القاعة حررت قدمائي من القيد الحديدي، توجهنا نحو منضدة الدفاع (Defense) - حسب لوحة صغيرة على المنضدة - بانتظاري المحامية تبادلنا التحية، قاعة المحكمة مفروشة بفرش فاخر ومزينة بالديكور الخشبي مما أضفى على القاعة الكثير من الفخامة والجمال، بجانبنا منضدة يجلس عليها المدعي العام (Prosecutor)، على يمين منضدتنا منصة علوية هي منصة الشهود، ومن أمامنا منضدة تجلس عليها فتاة شقراء هي سكرتيرة القاضي (الماجستير) تعلقو القاعة منضدة القاضي الذي يشرف على قاعة المحكمة إشرافاً تاماً، بالخلف منا عدة كراسي يجلس عليها عدد من الناس، لم أتبين هوياتهم، ولما أخذ الجميع مقاعدهم سألت سكرتيرة القاضي كلا من ممثلي الإدعاء والدفاع عن استعدادهما فالقاضي سيحضر بعد دقائق معدودة.

حضر القاضي (الماجستير) أبيض البشرة تحالطها حمرة الدماء.. أمرد متوسط القامة.. بُني الشعر.. ضخم الجسم.. على عينيه نظارة، يرتدي فوق بدلته رداء القضاة الأسود الشهير-والذي كنت أراه في العروض السينمائية، وفي العرض الذي عُرض مؤخراً بالطائرة المتجهة بنا من فرانكفورت إلى بوسطن- أشارت لي المحامية بالنهوض ولما جلس القاضي نطقت سكرتيرة القاضي:

- نحن هنا اليوم للنظر في القضية رقم 041004-PBS، والمقامة من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ضد السيد عصام محمد المهندس أطلب من الفريقين التعريف بشخصيتها.

- أنا ممثلة الدفاع السيد عصام المهندس في القضية.
- أنا ممثل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في القضية.
- تكلم القاضي (الماجستريت) - وهي درجة قضائية أقل من القاضيل -
موجهها كلامه نحو منضدة الدفاع...
- إن الادعاء يتهمك بتهمتين :
- الأولى: حمل مواد متفجرة على متن الطائرة .
- الثانية: الإدلاء بمعلومات خاطئة عمدا .
- هل تقر بالذنب ؟ .
- أيها القاضي أنا غير مذنب .
- هل لديك القدرة على تحمل نفقات الدفاع ؟ .
- بعد مناقشة الأمر مع المحامية لبضع دقائق
- إنني أطلب من المحكمة تحمل نفقات القضية.

شاهد الزور



بدأ الاستماع إلى القضية، طلب ممثل الحكومة المدعي العام شاهد الإثبات وشرع في محاورته ..

- هل من الممكن أن تعرف بنفسك ؟ .
- أنا مسؤول الجمارك التنفيذي لمدة تزيد على العشرين عاماً والمسؤول عن لجنة مكافحة الإرهاب بمكتب المباحث الفيدرالية ببوسطن .
- هل سمعت باسم شخص يدعى عصام المهندس .
- نعم سمعت .
- متى كانت أول مرة تسمع فيها هذا الاسم ؟ .
- في الثالث من شهر يناير لعام ألفين وأربعة ٢٠٠٤ م .
- هل بإمكانك إخبار هيئة القضاء والسادة المستمعين ماذا تعرف عن السيد عصام المهندس ؟ .
- تلقيت مكالمة هاتفية في منزلي مفادها المدعو عصام المهندس يستجوب بشأن مضبوطات وجدت بحوزته أثناء تفتيشه بمنطقة الجمارك بمطار لوغان الدولي عقب مغادرته الطائرة على متن الرحلة أربعمائة واثنين وعشرين القادمة من فرانكفورت بألمانيا والمنطلقة من الرياض .

ثم بدأ يقص القصة التي قصها عليه مفتش الجمارك ورئيسه المباشر ومجموعة من المسؤولين ، لم ألتق به إلا هذه المرة ، على أرض قاعة محكمة جون جوزيف موكلي ، لكنه جلس يسرد القصة ويدافع بحماس ويتهم بحماس أشد كما لو حضر وشاهد لا كمن سمع ونقل وحكي له .

سألته المحامية ..

- هل رأيت بعينك العينات ؟ .

سألته بعد أن رفعت إحدى أقلام الطباشير بيدها: أتشبه العينات ؟ .
وما كان ليجيب فهو لم ير شيئاً، تذكرت إحدى المسرحيات العربية الهزلية
فكيف بشاهد يشهد ولم ير شيئاً ؟ .

دارت أسئلة كثيرة وأجوبة عاتمة وانتهى الوقت المحدد للاستماع على
لقاء تحدد بيوم الأربعاء ٧ / ١ / ٢٠٠٤ م الثانية ظهراً لاستكمال النظر في
تفاصيل القضية، وأخذت في صحبة رجال الأمن إلى حيث أتيت ياه...
باليه من صخب وشد وجذب وجدل وخصام ارتفعت فيه الأصوات
واحتدت الآراء، لم أستوعب ما حدث فوتيرة الحوار الجاري بقاعة
المحكمة سريعة، حاولت استرجاع الأحداث لأستوعب أبعاد ما حدث
بينما أنا على تلك الحال قطع الدوامة الفكرية نداء رجل الأمن فالمحامية
تريدني في لقاء يجمني معها، ذهبت معه ولما أغلق الباب من خلفي،
دخلت السيدة الوقور وجلست على الكرسي تنهدت ...

- أنا مستاءة مما حصل !.

- إن ما رأيته بقاعة المحكمة من مشادات ومقاطعات ما كنت لأراها
إلا في الأفلام السينمائية !.

ابتسمت المحامية ثم تناولت كتاباً ضخماً من حقيبتها وأخذت تقلب
صفحاته ثم قالت ..

- إن مجموع التهم التي يتهمك بها المدعي العام هما تهتان الأولى: حمل مواد متفجرة على متن الطائرة وعقوبتها ما بين ١٢-١٤ شهراً.

الثانية: الإدلاء بمعلومات خاطئة عمداً وعقوبتها ٥ أشهر مجموع العقوبات ما بين ١٠-١٤ شهراً لأنك لم ترتكب مسبقاً ما يخالف القانون، هذا في حال لم تُجمع وحُسبت كل تهمة على حدة، أما إذا وافق المدعي العام على جمعها مع بعضها فتصبح المدة ما بين صفر وستة أشهر مع إيقاف تنفيذ الحكم الصادر، ويمكنك الرجوع إلى وطنك.

- ماذا؟؟!

جاءت المعلومات مفاجئة فاجعة لي.

- سأبذل قصارى جهدي فمن المفترض أن تنتهي هذه التفاهة في المطار ولأمر ما بأنفسهم أحضروك إلى المحكمة.
- إنني في رحلة عمل لا تتجاوز في مجملها التسع أيام بعدها لا بد لي من العودة إلى عملي إن مكوثي وتغيبي مدة أطول قد يتسبب في فقدان عملي .
- سأتولى الاتصال برؤسائك وإخبارهم بما حصل لك.

وانتهى اللقاء وأرجعت إلى الزنزانة من حيث أتيت، عقارب الساعة تشير إلى الثالثة والنصف عصراً، أذكر أنني جلست أنتظر ولم أدر أن عليّ

الانتظار حتى يفرغ الجميع من جلساتهم، ولما شارفت السادسة مساءً أخذت مع مجموعة من المحتجزين مكبلاً، إنهم يرتدون الزي الموحد ذا اللون البرتقالي مما ذكرني بزي أسرى جوانتانامو وأركبنا حافلة كبرى، لا أدري إلى أين ستكون الوجهة؟! ولا إلى أين المآل!؟.

وسرت وحدي شريداً محطم الخطوات

تهزني أنفاسي تخيفني لفتاتي

كهارب ليس يدري

من أين أو أين يمضي

الشاعر كامل الشناوي

وكانت أناث منخوقة.. وآهات دفينه.. وشكوى حرى إلى المولى القدير، انطلقت بنا الحافلة من طريق إلى آخر حتى وجدنا أنفسنا في الخط السريع، استغرقت الرحلة أربعين دقيقة وعند الساعة مساءً هدأت السيارة من سرعتها أمام بوابة إصلاحية يبلي ماوث كوريكشينل كورتي (Ply-mouth Correctional Country) وأذن لها بالدخول، الثلوج تغطي المكان بكساءٍ أبيض اللون، دخلت السيارة التي نقلنا إلى داخل مرآب المبنى الكبير، كنت ألحظ بصعوبة تلك المناظر عبر نافذة صغيرة تطل على مقصورة السائق، ولما توقفت محركات السيارة فُتح الباب الخلفي وبدأنا بالتزول وإلى داخل المبنى، اللون رمادي في كل الأنحاء وشتى الاتجاهات، لون كثيب و منافذ ضيقة.

في منطقة الاستقبال جرى تحريرنا من القيود التي تحيط منطقة البطن

ومن بقية الأشخاص ، فكل اثنين مقيدتين مع بعضهما لسبب أمني، أدخلنا إلى صالة أكبر ، وما زالت القدمان واليدان مقيدتين، جلسنا بعض الوقت... تزين الصلاة ساعة حائطية ورائي - تلفاز- ومكاتب لرجال الأمن، بعد وقت حُررت أيدينا وأرجلنا من القيود الحديدية، وُوزعت علينا سلة بها ملابس برتقالية اللون سروال وقميص وحذاء رياضي ، وآخر خاص بدورة المياه ، بطانية خفيفة ووسادة هزيلة تحتاج إلى وسادة توسدها ، فرشاة أسنان ومعجون-من قلته- لا يكاد يغسل أسنان طفل، صابونتان وكوب بلاستيكي، منشفتان ، وزوج من مناديل الحَمَام ضحكت بيني وبين نفسي بمرارة لا تغسلها أنهار الدنيا كلها، وفي غرفة قريبة من الصلاة أمرت بخلع جميع ملابس الخارجية والداخلية دون حفظ لأدنى حقوق الإنسان والحياء والحشمة، ويبدو أن هذه الكلمات غريبة في قواميس هذا المكان بل والمجتمع برمته، وعلى مضض حصل التفتيش المهيمن ورجعت إلى الصلاة أنتظر إتمام إجراءات التسجيل، ولما جاء دوري جرى استخراج بطاقة عليها اسمي وصورتي وتاريخ ميلادي ورقم يخصصني وتم رفع بصمات يدي عبر جهاز المسح الضوئي الموصل بالحاسب، طلب مني رجل الأمن الجلوس لحين إعداد الزنزانة التي سأمكث فيها.

كل شيء من حولنا كتيب رجال الأمن لا تعرف وجوههم الابتسامة، ولكنهم يجيدون السخرية ويمسنون التهكم والغمز واللمز، الجدران من الخرسانة الصلبة ، كل شيء صلب وكتيب كأية أصحاب المكان، الألوان تجلب الهم والحزن والكرب ، الأبواب فولاذية صلدة لا نوافذ ولا حياة نباتية جلسْتُ على كرسي حديدي يشتكي من البرودة،

جلستُ أرتعد وأرتعش أنظر إلى الرائي من أمامي، يجلس بجانبني بعض الأشخاص ينتظرون نفس مصيري، نزيل بل حبيس زنزانة لا أدري كيف تكون؟ ومن الرفيق فيها؟ وُزعت وجبة العشاء شطيرة وعصير وتفاحة، نظر أحدهم إلى وجبتي بعد أن التهم شطيرته في طرفة عين سألني إن كنت سأتناول الشطيرة أم سأدخرها لاحقاً؟ فهمت ما يرمي إليه فقدمت له شطيرتي والعصير، واكتفيت بالتفاحة لعلّي أكلها لاحقاً فتكون وجبتي الأولى منذ حطت قدماي هذا البلد.

بدأت نشرة أخبار الثامنة مساءً وأخذ المذيع يقرأ النشرة ومن بين الأخبار «مُثل اليوم أمام محكمة جون جوزيف موكلي المهندس السعودي عصام محمد المهندس متهم بحمل مواد متفجرة على متن طائرة قادمة من مطار فرانكفورت إلى مطار لوغان الدولي وبإدلائه بمعلومات خاطئة عمداً الموظف الجمارك» سمع جميع من بالصالة الخبر كما سمعت، غير أنني تفاجأت وذهلت مما سمعت أيعقل أن من أذيع خبره واسمه أنا؟! إنها جزء من مسرحية التلفيق على الإسلام، إنهم يريدون طمس معالمه من القلوب وإطفاء نوره حين خالط بشاشة النفوس، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو تآمر المتآمرون، فالله غالب على أمره وناصر دينه لاحمالة، بعد إشارات ونظرات من بعض رجال الأمن عرف الجالسون أنني المقصود، علق بعضهم متهمكاً يومك أسود من ليل أدهم، وقال أحدهم تباً لك!!! انتهى مستقبلك، وقال آخر الموت خير من بقائك... ضحك وسخرية، نظر إليّ أحد مسؤولي الأمن بنظرة غاضبة.. صاح بأعلى صوته -موجهاً كلامه بل صراخه إليّ- انهضّ، وسار بي مزجراً مهدداً متوعداً، أدخلني غرفة وأحكم إقفال الباب من خلفي، مكثتُ في الغرفة ولا أدري ما

سبب غضبته ، ولم أتبين أسباب حجزي غير ما سمعت وشاهدت وعقب عشرين دقيقة فتح رجلا أمن الباب ، وأمراني بخلع قميص السجن والسروال ذي اللون البرتقالي ، حاولت أن أفهم لم هذا التعامل القاسي والجفاء تجاهي رد أحدهم هنا تسمع الأوامر ؛ لتنفيذ لا لتناقش، أنا الآن أمرك بخلع الملابس لا تضطرنني لاستخدام العنف معك، وتحت وطأة التهديد وفارق البنية الجسمانية، خلعتُ وبقيتُ بسر والى الداخلى، ثم وُضعتُ في غرفة باردة بل ثلجية وانتظرت كثيراً وطال الانتظار.

مكثتُ على حالتي من التاسعة مساءً حتى السادسة صباحاً، ولا أحد يأبه بها أفاصي وأعاني، إن درجة الحرارة الخارجية- بحسب نشرة الأحوال الجوية - ٤٠ درجة مئوية - تكأكات على نفسي كما يلتف القنفذ على نفسه إذا ما داهمه مكروه ، وكان من يطل بين الفينة والأخرى من الشرفة الزجاجية على الباب ، ولما بلغ مني الإعياء مبلغه اقتربت من

الباب وبكل قوة جعلتُ أطرق بيديّ على جنباته حتى جاء المسؤول المناوب ومن خلف الباب

- (بمظاظه) ماذا تريد ؟.

- لماذا أنا بهذا المكان على هذه الهيئة ؟.

- إن أردت إعطائك اللباس ونأذن بذهابك إلى الزنزانة المعدة لك، فعليك أن تذهب لدورة المياه حتى تتأكد من خلو جوفك من المتفجرات.

- ألهذا السبب فقط ، أظل عريانا مدة تسع ساعات !!

- نعم .

- لم يخبرني أحد بذلك، كان بإمكانكم التأكد عبر أجهزة الفحص الطبية وبواسطة جهاز الأشعة السينية بالتحديد .

لم يبال بكلامي، إنه يتحدث معي بنبرة عنجهية حاقدة.. مجرمة.. بغیضة ذهبتُ إلى دورة المياه المكشوفة ، وتأكد من عدم وجود ما ترمي إليه ظنونه السيئة ، وتم تسليمي اللباس البرتقالي ، لبستُه وشعرتُ بشيء من الدفء على الرغم من برودة الجو، قُيدت يداي ورجلاي بالقيود وطلب مني الانتظار حتى يأتي رجل الأمن الذي سيرافقني إلى زنزاتي، شهد المنظر عدد من حراس المكان قام أحدهم يهزأ بشكلي، قال سوف نقضي عليكم البتة لن نسمح لأمثالكم بالمجيء إلى هنا ، وكنت أسمع غير مبال بما يردد ثم استطرده قائلًا... ..

- هيا .. اطلب المساعدة من محمد.

وكان العليح يقصد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهنا لم أحتمل تجرؤه على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهكذا بدا الحقد جلياً وكشر عن شراسة أخلاقه ولؤم طبعه.

- (رددتُ بحدّة) نعم إن رب محمد سيساعدني قريباً جداً.

لقد نفس الخبيث عن خبث طويته وأبانت كلماته حقيقة يحاولون إخفاءها ودرسها حقيقة (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) سورة البقرة، آية ١٢٠

وذكرني بموقف أجداده وأسياده في قديم الأزمان قبل أربعة عشر قرناً عندما هاجر نبينا عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة وكانت يهود تتوعد الأوس والخزرج بأنه أظلمهم زمان يخرج فيه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبأنهم سيتبعونه وينصرونه وسيقتلون ويطردون ما عداهم من سكان المدينة ، فلما ظهر من غير جنسهم إذا بهم يناصبونه العداة عبر كل الأزمان ، وفي كل الأمصار ، وها هو حفيدهم يرث حقد أجداده ولؤمهم وخستهم .

بدا على وجهه الوجع والوجوم وذهب -الوعد- وجاءني رجل أمن آخر، تحدث إلي بنبذة هادئة لطيفة وكأنه يعتذر عما صدر من زميله...

- أنت هنا!! ألم يأت أحد لأخذك إلى زنزانتك؟

أجرى اتصالاً بالوحدة التي سأستقر فيها كما أخبرني، وما هي إلا دقائق حتى جاء رجل الأمن الموكل بمرافقتي فسرت معه عبر ممر طويل أحمل أغراضى مكبلاً بالحديد في يدي ورجلي وفي الطريق...

- ماذا فعلت حتى توضع في وحدة كبار المجرمين؟

- لا أدري!! .

- وضوئك في وحدة معزولة - وحدك - حتى لا تؤذي أحداً وتستسلط

عليك آلة تصوير بغرض مراقبتك.. أنت خطر!! .

- نصحتني محاميتي ألا أتحدث في شأن قضيتي مطلقاً.

استاء من إجابتي واغتاظ من لزومي الصمت فكانت ردة فعله أن أمرني بإسراع الخطى، كان المر طويلاً وقدمائي مفيدتان ولا يمكنني إسراع الخطى، مررتُ في طريقي بصالة للعب كرة السلة وأخرى للممارسة السباحة، قاعة مخصصة لإعطاء المحاضرات العلمية وأخرى لدروس الحاسب الآلي ومكتبة للقراءة، جعلت أقلب نظري في المرافق التي أمر عبرها حتى وصلت إلى الوحدة جـ القسم الشمالي تمتع باب ضخمة الحجم فولاذي البنية رمادي اللون، سرنا نحو الوحدة رقم ١١٠، أحاطتني نظرات أغلب من في الوحدات المجاورة، جاء تصميم المكان من دورين؛ سفلي وعلوي، في كل دور عشر وحدات، تكفي الوحدة شخصين، ولا تتعدى مساحتها المترين مربع بها دورة مياه وسريران من الحديد مثبتان على الجدار؛ أحدهما يعلو الآخر، يحوط الوحدات السفلية -وأنا أظن إحداها- مساحة مائة وخمسين متراً مربعاً، وعلى أحد الجوانب يوجد هاتف، دخلت وحدثني منهك القوى متعباً جانعاً طريداً أريد رمي جسدي على الفراش وإن لم يكن مريحاً، غطيتُ السرير بالغطاء الأبيض، وضعت الوسادة الهزيلة على السرير، والتحفت للحاف الذي لا يستغني عن لحاف آخر؛ كي يدفئه اجتهدت لأعرف اتجاه القبلة وقمت فتوضأت وأديت الصلاة، وبكيت بكاءً طويلاً، ودعوت ربي يا إلهي..... يا إلهي يا من يرى مكاني ويسمع مناجاتي .

نظرتُ عبر نافذة تطل على الفناء الخارجي، مازال الجليد يتساقط ليكسو الأرض لوناً أبيضاً بديعاً.. عدت إلى فراشي وأسلمتُ نفسي للنوم وماكدت لأنعس حتى فُتح باب الزنزانة، واستبشرت خيراً فلعله الفرج .. طلب السجناني مني جمع أغراضني فسيتم نقلني مؤقتاً إلى وحدة مجاورة

لحين تثبيت آلة تصوير لمراقبتي على مدار الأربع والعشرين ساعة، الملمتُ أغراضي واتجهتُ إلى حيث أخذني السجنان .. الجو بارد وجسمي ماعاد ليحتمل، الجوع يعصرني عصراً، أضعت الإحساس بالوقت غير أنني أدرك تماماً ضياء النهار وعمته الليل، دخلت الوحدة المجاورة وأخبرني السجنان بعودتي إلى الوحدة رقم ١١٠ حالما يفرغ فريق الصيانة من تثبيت آلة المراقبة فيها.

مضى من الوقت ما مضى قبل أن أسير في صحبة السجنان ، فريسي الوحدة يريد رؤيتي والتحدث معي، تركني معه مقيد اليدين والرجلين ومضى ، إن النظام عندهم ألا ينتقل السجنين من مكان إلى آخر إلا مكبل اليدين والرجلين ، قرأتُ هذه التعليقات في غرفة المسؤول .. سألني عن اسمي وبلدي وجنسياتي ، ولما أراد الاسترسال صرحت برغبة محاميي إلى عدم الحديث مع أحد في شأن قضيتي، تضايق كثيراً وزجر، أخبرته بأنها تعليقات محاميي ، وأنا أتبع التعليقات اغتاض كثيراً وطلب من مأمور السجن إيداعي الزنزانة ، أخذني السجنان إلى الوحدة السابقة لحين يتم الخلاص من تثبيت آلة المراقبة، بعد وقت مضى وُزعت وجبة الغداء قطعة خبز وقليل من الأرز وخضار مع اللحم بلغ مني الجوع مبلغه أكلتُ الأرز وأكلتُ التفاحة التي احتفظتُ بها أول ما دخلت الإصلاحية ، ورددت باقي الطعام ما مسسته ، مضت برهة وحضر سجان آخر لأخذني إلى طيبة السجن التي قامت بفحص ضغطي وقياس حرارتي.

- ما وزنك ؟ وما طولك ؟ وهل تعاني من مشكلات صحية ؟ .
- أزن قرابة ٧٤ كلغم وطولي ١٩٣ سم وحالتي الصحية مستقرة والله الحمد.

- هل تتناول بعض الأدوية بانتظام ؟ .
- لا..أبدا .
- هل تتحسس من بعض الأدوية أو بعض المواد الأخرى ؟ .
- لا..بحسب ما أعرفه .
- أتشرب الخمر ؟ هل تتعاطى المخدرات ؟ .
- لا... والله الحمد .
- ولماذا ؟! .
- أنا مسلم أدين بالإسلام وذلك محرم علينا نحن المسلمين .
- (في حيرة!!) ترى ما الذي أتى بشاب مثلك إلى هذا المكان دخلك جيداً ولك أسرة ! وتشغل منصباً مرموقاً!! .

ولم أرأت إجحامي عن الإجابة قالت مطمئنة نفسي :

لا أحد يسمع ما نقوله ثم إنني طيبة وإنسانة !!! .

قصصُ لها بعض قصتي باختصار شديد ...

- (بحسرة..) يبدو أننا بدأنا نفقد الحرية في أمريكا شيئاً فشيئاً، ولا أدري ماذا يُجئ لنا المستقبل، حضرة المهندس ، أتمنى لك حظاً أوفر .

ماذا أقول أنا الحبيس المظلوم المقهور المغلوب على أمري في تهمة دبروها في ليلة دهماء حالكة السواد ؟ أين أمريكا التي وصف عدالتها الواصفون وتشدق عن حريتها المتكلمون ؟ مسكينة أنت أيتها الطيبة ..

هي عصابة البيت الأسود تدير دفة الأمور عكس كل الشعارات المرفوعة والإرادات النبيلة .

لم تحف الطيبة دهشتها بطلاقه حديثي معها بالإنجليزية ، كم كانت مفاجأتها لما عرفت أنني ما تعلمتُ اللغة في أمريكا ولا بلندن وإنما ببلدي السعودية؟! وكم كانت دهشتها من التطور الذي تشهده بلدي في شتى المناحي حين أطلعتها على جانب منه!؟

- هل بدأت تحس ببعض الأصوات؟ أو بدأت تكلم نفسك؟
بإمكاني صرف بعض الأدوية المساعدة لمثل هذه الأعراض .
- (بحسرة) لا!!! شكرا للكلماتك وتعاطفك معي .

« إن الوحدة والفراغ والأوهام هما المنفذان الواسعان للأوهام القائلة إلى قلب الإنسان حتى تشخه الجراح فيسقط صريعاً بوخزها وآلامها ، لا يقر له قرار ولا يحس بشيء من متع الحياة ، ولا يهتأ بمأكل ولا مشرب ولا يطمئن لنوم وإنما تتنابه أثناء الأحلام المرعبة فتتغص مضجعه ، فيبقى منهك الجسم خائر القوى متلبد الرأي، قد أسود العالم كله من حوله فلا يبصر إلا ظلاماً في ظلام ، ولا يتجه وجهة إلا وترآى جميع المسالك أمامه مسودة في وجهه، فتستولي عليه الحيرة وتضيق عليه الأرض بما رحبت»
الأديب حمد الجاسر، من سوانح الذكريات- الجزء الأول

ولما أرجعتُ إلى الوحدة المؤقتة، ومضى وقت طويل قبل مجيء السجنان ليخبرني بأن الوحدة مهياة لاستقبالي، وما إن ذهبت إلى الوحدة ١١٠

وتيقنُ من غروب الشمس حتى أدت الصلاة كانت مشاعري بين خوف من جهل المصير ، وبين أمل وطموح فتارة أبكي بكاءً حاراً حتى تجف الدموع من كثرة الدموع، وتارة أهدأ على أمل موعد يوم الأربعاء موعدني مع محاميتي والقاضي (الماجستير) والمدعي العام، وتارة أطل من خلال فتحة النافذة المطلة على فناء من الأفنية المحيطة حيث الأشجار العارية والطيور المحلقة، ومضى الثلاثاء ثقيلًا لم تتخلله أحداث غير أنه سمح لي بالتجوال في الساحة المحيطة بالوحدات لساعة زمن، مشيتُ مدة قصيرة مقيداً بالحديد في قدمي ويدي ، ولم أكمل ما بقي من وقت متاح فكيف بمكبل مثلي التمتع بمشي !! حاولت الاتصال بأهلي ولم أتمكن أتممت بقية الوقت داخل وحدتي وحيداً .

بزغ فجر الأربعاء ولما حانت الرابعة جاء السجنان محضرا معه طعام الإفطار ، وأخبرني بموعد المحكمة ، الإفطار حليب وبيض مسلووق وقطعة تفاح وخبز، أتذكر أنني تناولت قطعة التفاح ورددتُ الباقي، تركني السجنان دقائق وعاد يحمل معه القيود الحديدية، أخرجني من وحدتي مكبلاً مغلولاً- في طريقة خاصة أذكرها- يوجد بالباب شباك صغير منه يقدم السجنان الوجبات ، وأيضاً من خلاله يتم تكبيل اليدين قبل فتح الزنزانة ؛ ليتم تكبيل الرجلين، فتح السجنان الباب ، الملمتُ جميع الأغراض، ووضعتها في حقيبة بلاستيكية سلمني إياها، وسرتُ معه إلى صالة الاستقبال، فتم حجزني في غرفة حتى حانت السابعة، جرى تقييدنا كل ثلاثة أشخاص معاً، ولكنني تعرضتُ لتفتيش مهين، ولما فتح الباب الخارجي أحسستُ بأطرافي تتجمد بل تكاد تنكسر من شدة البرودة، حاولتُ -عبثاً- مع المسؤول ارتداء معطفي ولم تفلح كل المحاولات

معه، ولما تكاملت أعدادنا انطلقت السيارة بنا إلى محكمة جون جوزيف موكلي، كان الجو غائماً ممطراً والطريق من بيلى ماوث Ply Mouth -اسم مدينة إنجليزية- إلى بوسطن المدينة مزدحماً، ازرققت أطراف يدي ورجلي من البرد على الرغم من تعطف قائد السيارة بتشغيل التدفئة الخاصة بالمقصورة التي تقلنا، إننا نعبّر الطريق السريع باتجاه بوسطن، كنت أرى من خلال فتحة تظل على مقصورة سائق السيارة وأستمع برؤية ألوان السماء والأرض والمباني واللوحات الإرشادية والسيارات والناس العابرة، إنني باختصار أطل على الحياة وقد عُرِزْتُ عن الحياة وما أصعب العيش على هامش وجنات الحياة!! اللون الرمادي في إصلاحية بيلى ماوث لون كل شيء محيط بنا، أما الأبيض هو لون الجليد المتساقط الذي يكسو الفناء المطل على غرفتي بل زنراتي، إن الحياة فيها جامدة إلا من أصوات أزيز وصرير الأبواب الحديدية التي تحكم قبضتها علينا إحكاماً شديداً، الأنفاس معدودة والهمسة محسوبة أما الكلام فأوامر تُعطى لتنفيذ، وبيننا أنا في حلقة لما تصادفه عيناى على جنبات الطريق، وقف السائق أمام مبنى المحكمة وأذن له الحراس بعبور البوابة المؤدية إلى داخل المبنى الضخم الذي لا أكاد أرى إلا جزءاً يسيراً منه عبر نافذة، هي المظل الوحيد لنا على عالم الحياة أو المحيط الخارجي، أنزلنا واحداً تلو الآخر، ومن ثم أدخلنا إلى المحكمة، ولكم كان الفارق كبيراً بين درجتي الحرارة بالداخل والخارج، بدأت الدماء تتدفق في أطرافي، وضع الجميع في زنزانه، وأمرني السجنان بالسير معه، فتح لي باب زنزانه تبعد عن الآخرين وما أن أقفل الباب من خلفي حتى أدركت غايته، زنزانه انفرادية شديدة البرودة خلافاً عن الأخرى المدفأة.

قاربت الساعة التاسعة صباحاً ، وموعدي -فيا أتذكر- الثانية والنصف ظهراً ، جلستُ في خلوة أونس نفسي بالذكر والاستغفار والدعاء والتضرع بين يدي المولى الكريم، المكان صامت التعبير لا نوافذ ولا فتحات ، بل آلة مراقبة مثبتة على جدار رمادي اللون تحوطه قضبان حديدية ومرحاض لقضاء الحاجة ، ومسطبة حديدية لا تزيدني إلا شعوراً بالصقيع ، إنني أتألم ألمين نفسياً وآخر بديناً غير مباشر، توقعت نزول المرض في أي لحظة من تغيرات الطقس التي تعرضت لها ومن جسد لا ينال إلا أقل القليل من حاجته من الراحة ومن الطعام!!! .

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم فالمخاطر كلهن أمان

أمير الشعراء أحمد شوقي

كيف يمرض؟ بل كيف يوهن أو يحس بذلٍ من يستشعر معية الخالق ومسير الأكوام المطلع على كل الأحوال والأمور؟!؟

فُتح باب الزنزانة أمرني السجنان باللحاق به، حسب التعليمات لا بد من وضع اليدين خلف الظهر ، فكنت أسير من خلفه ببطء لثقل قيود القدمين ، أخبرني أن المحامية تود الجلوس معي وأخذني إلى إحدى الغرف جلستُ على كرسي من أمامي شبك ترى من خلفه رؤية متعثرة، لحظات ودخلت بعدها المحامية ، بادرته بسؤال عن وضعي في إصلاحية بيبي ماوث وقصصت عليها سوء المعاملة والقسوة التي تعرضت لها وعن محاولاتهم لاستدراجي في الحديث عن قضيتي، وعن تمنعي الذي حمدته

لي كثيراً ، استاءت المحامية مما حصل ، لمست استيائها في نبرات صوتها لقد كرهت الظلم والقسوة التي تمارس معي ، ويتعامل بها في دهاليز سجونهم ، لكن ما حيلتها والأمر ليس بيدها ، وليست ثمة دليل حسي تستطيع محتجهم به ، وبكفيني منها هذا الشعور شعور إنساني يسفر عن جانب من جوانب الشخصية الغربية والإنسان الغربي ، شعور لا يرضى الظلم والتعدي السافر على حريات الآخرين ... حدثتها عن خبري الذي سمعته في الرائي ... فردت إن الأوساط الإعلامية تعاملت مع الخبر بشكل جيد فصورني لم تعرض على صفحات الصحف ، ولا شاشات القنوات ، سألتها متى سأخرج ؟ فجاء الرد إنها ستحاول اليوم أمام القضاء لإخراجي تحت كفالة مالية قدرها خمسين ألف دولار أمريكي - ٥٠,٠٠٠ دولار أي ما يقارب ١٨٧٠٠٠ ريالاً سعودياً - المبلغ كبير ولكنه كفالة مالية لحين بدء المحاكمة ، ولضمان حضورني فيها لو وافق القاضي على ذهابي إلى وطني ، أرجعني السجنان إلى الزنزانة الجليدية ، ولما حان الموعد سعدنا عبر المصعد المعتاد ، دخلنا قاعة المحكمة وحُرت قدماي من القيود قبيل دخولي القاعة وقبيل جلوسي حُررت يداي أيضاً، التقيتُ بالمحامية وتبادلنا التحية يعلو وجهها ابتسامة تفاؤل ، جلستُ واثقاً من فرج المولى عز وجل فكل شيء عنده بقدر ، ولما اكتمل الفريقان ؛ الدفاع والادعاء دخل القاضي (الماجستير) وعرف كلا الفريقين بنفسه للنظر في قضيتي ، وقفت المحامية قائلة :

- استلمت بالأمس عددا من الرسائل المتعلقة بنزاهة موكلي وسيرته الحسنة في مجتمعه ، الرسائل من رؤسائه وزملائه ، وأخرى من والده وشقيقه وبعضاً من أهله وجيرانه .

أخذت تقرأ جانبا من هذه الرسائل وتستشهد ببعض منها، جاء موضوع الرسائل مفاجأة سارة لي فلم تخبرني عنها قبل صعودنا والتقائنا بقاعة المحكمة ثم تقدمت المحامية باقتراحها...

- سيدي القاضي إنني أقترح الإفراج عن المهندس السعودي وإرجاعه إلى بلده حتى أوان البدء في محاكمته مقابل كفالة مالية مقدارها خمسون ألف دولار.

وقف المدعي العام معترضا ...

- سيدي القاضي... أبدا لا يكفي أن نطلق سراحه لمجرد شهادات حسن سيرته وسلوكه التي قدمتها محامية الدفاع، ولا لمجرد مبلغ الكفالة الموعود، نريد ضمانات مؤكدة تضمن حضوره متى رأت الحكومة الأمريكية.

انفعلت المحامية لمداخلة المدعي العام، واحتد الإدعاء لتصريحات ممثلة الدفاع، وهنا تدخل (الماجستير) القاضي لتهديته الطرفين...

- أرى الانتظار حتى موعد الجلسة القادمة للتأكد من توفر مبلغ الكفالة المقترح، كما ترى المحكمة أنه لا مانع من قبول اقتراح الدفاع إذا ضمنت الحكومة السعودية عودة السيد المهندس في الموعد المقترح لبدء المحاكمة.

ولكن المدعي العام كان له رأي آخر...

- سيدي القاضي لقد ألغت إدارة الهجرة تأشيرة الدفاع ، ولن يتمكن من دخول أمريكا لإتمام المحاكمة إذا غادرها الآن.

وجاء رد القاضي حاسماً..

- بإمكان المحكمة إصدار أمر يسمح للدفاع بالعودة ودخول الأراضي الأمريكية بغرض إتمام إجراءات المحاكمة .

ولما انتهى الوقت المحدد اقترح القاضي إكمال المباحثات يوم الجمعة ٢٠٠٤/١١/٩م نظرت نحوي السيدة المحامية وعلى محياها ترسم علامات الارتياح والسعادة ، ولم يرق للمدعي العام ما قاله القاضي .

ولما تقابلت مع محاميتي في غرفة المقابلة بالطابق السفلي....

- إن المؤشرات لا توحى بالاطمئنان المطلق ولا القلق ، سأقوم بالاتصال بأخيك يوسف-الذي يبلغك تحية والديك وجميع أهلك وأصدقائك ووقفهم بجانبك وهو معهم ؛ كي يقوم بتوفير مبلغ الكفالة وسأجرى اتصالاً بمحامية السفارة السعودية ؛ لأبحث معها خطاب الضمان، لا بد من توافر مبلغ الكفالة وخطاب الضمان قبل - بعد غد- الجمعة .

- (باهتمام) أعانك المولى القدير .

- هل تمكنت من الحديث مع أهلك ؟ .

- لا.. للأسف لم أتمكن من ذلك .

- ولماذا ؟ .

- هناك بعض الإجراءات الورقية الناقصة.

- لا بأس سأندبر الأمر مع إدارة إصلاحية بيبي ماوث.

- لا أعرف كيف أقدم شكري على ما تبذليته من جهود ؟.

- أريدك قويا، حسنا إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

انتهى اللقاء الثالثة والنصف عصرا، ولما حان وقت العودة وفرغ من تقرر له الرجوع معنا إلى الإصلاحية ، وانطلقت بنا السيارة، وأرخصي الظلام سدوله على أرجاء مدينة بوسطن ، ارتحت معه أعصابي المشدودة طوال يوم بدأت أحداثه الرابعة فجراً ، وفي طريق عودتي إلى مقر حسي بالزنزانة التقيت ببعض السجنائين ، فقد اشتهرت قضيتي بين السجنائين والمساجين، وكل من قابلته ما بين مستفسر لما يحدث أو ضاحك مستهزئ، ولم أكن أعير اهتماماً لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك إلى أن وصلت الجناح جـ الزنزانة ١١٠، انطلقت أصلي صلاة المغرب ، وإلى حين صلاة العشاء أنطرح بين يدي أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين متألماً متحسراً أشكو بثي وحزني إلى الله، ثم رحمت في سبات قلق.

عادة ما أصحو على جلبة السجنائين وهم يوزعون الإفطار حوالي الرابعة فجراً قبل شروق الشمس ، ومن خلال النافذة ولما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، أقف مؤدياً صلاة الفجر، وأشرفت شمس يوم الخميس، إن انتشار شعاع الشمس وهي تشرق منظر جميل كيف لا! ونحن لم نر الشمس منذ أيام بل منذ دخولي هذا

المكان « ليس تحت الشمس أجمل ولا أبهى من الشمس ».

الشاعر العراقي بدر السياب

أما منظر الأشجار الكثيفة المتلفلة على بعضها بعضا ... عارية من الأوراق.. ملطخة بالثلج الأبيض، منظر مبهر لما تتساقط قطرات الماء كحبات لؤلؤ تتناثر على الأرض ؛ لأرى الأغصان بلون أخضر زاه .. طيور النورس تحلق في السماء جماعات ... منظر ممتع من خلف القضبان، ومن نعم الله التفكير في مخلوقاته وعظمته ووحدانيته وملكوته، طاف بي الخيال إلى والدتي وجميع أهلي كيف حالهم بعدما سمعوا خبري، راجعت حساباتي مع نفسي في خلوة على غير تخطيط ولا سابق موعد.

جاءني السجان قائلاً إن محاميتك تريد التحدث إليك عبر الهاتف، ولما حادتها في مكتبها قالت لي : إنها نسقت مع مأمور السجن بحيث يمكنني الاتصال بأفراد أسرتي ، كما أخبرتني أنها تحدثت مع رئيسي بالعمل ، وأبدى استعدادة لمساعدتي بشتى أنواع المساعدة المادية والمعنوية ، كما أوصاها بنقل مشاعره ومشاعر الأصدقاء والزملاء وجميع المتعاطفين ممن يعرفونني وممن لا يعرفونني ، إن الجميع يبلغونني تحياتهم ودعواتهم الصادقة ، كما بلغها موقف إدارة المستشفى ووقوفهم بجانبي إلى زوال المحنة وانكشاف الغمة مهما كلف الأمر من جهد أو مال ، إنه بحق موقف مشرف يعكس المحبة والتألف وشعور الجسد الواحد ، وكنت سعيداً لسماح هذه الأخبار ، متعطشاً للمزيد فإنها المعين الذي أنهل ، منه وحياض الصبر وهذا فضل الله علي أولاً وآخراً ، ورجعت إلى زنزاتي أشعر بدفء يسري أنحاء جسدي على الرغم من برودة الجو المحيط بنا،

وكم هي دهشتي عندما أرى بعض المساجين يرتدون السروال القصير -الشورت-، سرحت أفكر في زوجتي وكيف تلقت الخبر؟ وما تزال في أولى أيام نفاسها، وكيف حال طفلي الصغيرين، ابني «محمد» وبنيتي «وسن»؟ قطع شريط أفكارني نداء السجان يطلبني إلى غرفة الطيبة غير التي قابلتها المرة الأولى، فقامت بإجراء اختبار الدرر الرثوي PPD عبر حقني بلقاح تحت الجلد لترى النتيجة بعد يومين، وأعدت إلى وحدتي وزنزانتي أنتظر غروب شمس يوم الخميس وشروق شمس يوم الجمعة، لما غربت الشمس أدت صلاتي، وكما هي عادتي أجلس قليلاً ثم أوي إلى النوم، اعتدت القيام حوالي الرابعة فجراً أترقبه حتى أصلي، وأظل مستيقظاً حتى أنام مساء ...

فأنا تراني في المعامع هادراً
وحينا بمحراب المناجاة جاثياً
أجد ربي في صلاتي ساجداً
ويقرع أبواب السماء دعائياً

الشاعر غير معروف لدي

وكم تمنيت أنهم سمحوا لي باصطحاب مصحفي؛ ليؤنس وحدتي وليكون سلوكي! كما تمنيت بعض الأوراق وقلم؛ لأكتب فالكثابة متنفس ودوحة وارفة ترخى بظلالها على روح الكاتب.

أشرقت شمس يوم الجمعة بلا شمس، من المفترض أنه آخر يوم من أيام التدريب على الجهاز الطبي الذي أتيت من أجله إلى بوسطن

وعودتي إلى الوطن الغالي يوم الأحد... ولكن قدر الله وما شاء فعل، جاء السجن؛ ليسألني عن رغبتي في الاستحمام؟ وكيف لي الاستحمام في حمام مكشوف!! يراك فيه الجميع فلا حياء من الخالق ولا خجلاً من المخلوقين!! الرابعة فجرا سلمني السجن وعاء؛ لأجمع فيه أغراضى بها فيها فراشي، رددت الإفطار -كعادي- إلا التفاحة أذخرها إفطاراً إذا غربت الشمس، اقتادني السجن إلى منطقة الاستقبال، وهناك أودعني غرفة لحين تكامل بقية المسجونين ممن هم على موعد في المحكمة، وحانت السابعة ولا أملك من أمري شيئاً عدا الانتظار، وتفاجأت بالسجن يحضر لي لباسي الذي جردت منه يوم أدخلت هذا المكان لبسته مستبشراً مسروراً، وبعد الإجراءات المعهودة من تقييد ومبالغة في إحكام القيود أركبنا السيارة التي ستنقلنا إلى محكمة جون جوزيف موكلي، الطريق مزدحم والجو بارد إلا أنني أغرق في جو من دفء ملاسبي ومعطفي، ودفء السيارة التي نركبها، قائد السيارة ومن يرافقه يرتشفان القهوة الساخنة في هذا الجو الصقيعي، وتلك متعة حُرمتها منذ زمن.

تحدث من بجواري قائلاً حكم علي القاضي بعشرة أعوام، فرد من بجواره قضيت بالسجن ثلاثة أعوام فلا تقلق، ما هي إلا أول ثلاثة أشهر بعدها تعتاد المكان وتأنس الأشخاص، جالت بي الخواطر والأفكار إنها المرة الأولى التي أجالس بها أناسا هم هذا الباع من التاريخ الإجرامي والسجلات غير المشرفة، ومضي كل منها يحدث الآخر عن تجاربه ومغامراته، لم يعجبني حديثهما ولا يروق لي، وذهبت أشغل نفسي عنهما بالنظر من خلال فتحة تظل على مقصورة السائق إلى معالم الطريق حتى استقرت بنا السيارة داخل مبنى المحكمة، وأنزلنا إلى الداخل وللمرة

الثانية -عمداً- يقوم المسؤول بأخذي إلى الزنزانة الثلجية وحدي دون سبب يذكر إلا الحقد الأسود واللؤم المتغلغل في شخصيته، وأحمد الله كثيراً فمعطفي وملابسي التي ارتديها خفت كثيراً من برودة الزنزانة الثلجية.

شروط الإطلاق والعودة إلى الوطن



قبيل أوان مواعدي مع القاضي التقيت بمحاميتي التي بدورها زفت لي البشري بتسلمها شيكاً مصرفياً باسم الحكومة الأمريكية بمبلغ وقدره ٥٠,٠٠٠ دولاراً أمريكياً أرسله أخي يوسف، كما أنها بصدد الحصول على خطاب من سفارة بلدي السعودية تضمن ظهوري أمام القضاء الأمريكي لإجراء المحاكمة متى تقرر، بكيت وحمدت الله كثيراً، صُعد بي إلى قاعة المحكمة ..تكامل الجميع وحضر القاضي (الماجستير) عندها وفت محاميتي ..

- أعلن أمام محمكتكم الموقرة وكل الحاضرين بأن الشيك المصرفي المقدر بخمسين ألف دولاراً أمريكياً تحت تصرف خزانة الحكومة ، ونحن بصدد تسلم خطاباً من الحكومة السعودية يضمن ظهور السيد عصام المهندس أمام القضاء الأمريكي في الوقت الذي يحدده القضاء لبدء المحاكمة.

- (الادعاء معترضاً) أرى سيدي القاضي أن توفر مبلغ الكفالة بهذه السرعة يعكس زهد المبلغ نظير رجوع المتهم لبلده وأهله، وتتوقع الحكومة أن المتهم سيقوم بتسديد المبلغ لأصدقائه وأهله على دفعات وأقساط ميسرة، أو سيقومون بإعفائه من سداد المبلغ بالكلية لذا سيدي.....

- (المحامية غاضبة): إن موكلي لم تثبت عليه تهمة أو تورط في استخدام ما وجد في حقيبته حتى يلوذ بالهرب من القضاء، ثم إننا لم نستمع إلى رأي الخبراء بشأن العينات.

وتعالى الأصوات بين ممثلة الدفاع وممثل الحكومة
صدح المدعى العام بصوت جلجل أركان القاعة....

- سيدي القاضي، راجعت الحكومة الأنظمة والقوانين وخلصت
إلى عدم وجود مذكرة تفاهم بين الحكومتين، السعودية والأمريكية في
تسليم المطلوبين للقضاء فيما لو طلبت الحكومة الأمريكية تسليمه
لها، وفي نظر الحكومة أن بقاء المتهم لحين محاكمته سبب وجيه لضمان
ظهوره وإصدار الحكم؛ انتصاراً للعدالة وتحقيقاً لها.
وتعالى صوت المحامية.....

- سيدي القاضي، لقد تحدثت مع المسؤولين في السفارة السعودية، وأنا
على وشك الحصول على خطاب الضمان من الحكومة السعودية
يكفل ظهور السيد المهندس أمام القضاء متى ما طلبت المحكمة؛
لذلك أناشد الحكومة التريث، وأطالبها بعدم استباق الأحداث.

لقي رأي المحامية استعسان القاضي (الماجستير) أما المدعي العام
فلم يرق له حديثها مطلقاً، وشكك فيما تقوله المحامية بشأن الخطاب
وحاول-عبثاً- الرجوع إلى قضية الشيك المصرفي إلا أن القاضي أوقفه
من الاستمرار، وأمر بإطلاق سراحه بحسب شروط محددة، عندها
هدد المدعي العام باستخدام حقه في نقض حكم القاضي (الماجستير)
وتحويل القضية إلى القضاء الأعلى، ولما شارف الوقت على الإنتهاء وجه
القاضي الدفاع والمدعي العام في الجلوس معاً ليصلا إلى اتفاق مشترك.

أمر في مذكرته إطلاق سراجي وعودتي لبلدي وفق الشروط التالية:

١- يتعهد الدفاع كتابيا في محكمة مفتوحة- معلنة - بمثوله ورجوعه من السعودية والتعاون التام مع الحكومتين ، الأمريكية والسعودية للمثول أمام المحكمة من أجل القضية.

٢- يوقع الدفاع على كفالة مالية - ضمان - مقدارها خمسون ألف دولارا أمريكيا نقيدا في سجلات المحكمة.

٣- عند عودة الدفاع إلى الأراضي السعودية، يتعين عليه البقاء في عنوان سكنه الحالي وعدم التحول من دون الحصول على إذن مسبقا.

٤- يتصل الدفاع على مكتب خدمات ما قبل الاستئناف قبل الرابعة مساء - بحسب التوقيت الأمريكي - كل أربعاء من كل أسبوع بالتنسيق معهم، بالإضافة إلى حضوره أسبوعيا إلى مقر السفارة الأمريكية بالرياض.

٥- يتعين على الدفاع تسليم جواز سفره لمسؤولي السفارة الأمريكية بمجرد عودته إلى السعودية.

٦- يتعين على الدفاع المحافظة على وظيفته فترة الإطلاق.

٧- يتعين على الدفاع عدم التورط في جرائم فترة الإطلاق.

٨- يتعين على الدفاع عدم حيازته أسلحة يدوية أو متفجئة أو أخرى خطيرة فترة الإطلاق.

٩- يتعين على الدفاع عدم السفر خارج السعودية إلا لغرض الرجوع إلى أمريكا لاستئناف المحاكمة.

كيف تسير الأحوال داخل أسوار الإصلاحية



حدد الثلاثاء القادم موعداً إذا لم يتفق الدفاع والادعاء على ما أصدره (الماجستير)، انتهى اللقاء بصورته الضبابية فكيف يصدر القاضي أمراً وللمدعي العام حق رفضه ونقضه؟ ولما التقيت بالمحامية لم تدخل الغرفة التي اعتدت مقابلتها وحدها وإنما حضر معها شخص آخر عرفتنى به بأنه مساعدتها في التحقيق ، وأتذكر أنها استعانت بشهادته في جلسة الاستماع من قبل، إنه شاب عشريني لطيف تلمع عينيه ذكاءً وتشع منه الحيوية والنشاط متعاطف لقضيتي وشخصي، تابعت المحامية بقولها لا يملك قاضي الاستماع (الماجستير) الحكم النهائي في القضية فدرجته وصلاحياته القضائية لا تسمح له بذلك ، وللمدعي العام الحق في نقض حكمه، ومن ثم تنقل القضية إلى القاضي ذي الصلاحية المطلقة، ثم أضافت ربما يصير يوم الثلاثاء موعداً لإطلاقك وعودتك إلى بلدك حين استئناف بدء محاكمتك ، وربما تحال القضية إلى القاضية بمحكمة جون جوزيف موكلي ، وهذا لا يبشر باطمئنان ، أكملت المحامية .. سأسعى جاهدة للحصول على خطاب الضمان وسأحدث مع السفارة السعودية اليوم، ذكرتني بعملها بأهلي وأطفالي، المحامية متعاطفة معي للغاية ولكن ليس بالإمكان الحصول على أفضل مما كان .

أُرجعت إلى إصلاحية بيبي ماوث كوريكشينل فاسيلتي كونتي عشت في حالة كرب وضيق شديدين.. ما العمل؟ وما السبيل؟ الإحساس بالظلم شيء فظيع إن ما أراه من المدعي العام وهو يحاول إثبات التهمة وزجني بالسجن في محاولات دؤوبة لمؤلم وحارق، وعندما دخلت إلى الإصلاحية وجُردت من لباسي مرة أخرى وأُعطيتُ اللباس الموحد ذي اللون البرتقالي.. وحملت الحقبة البلاستيكية التي بها أغراضي متوجهاً

إلى زنزانتي وفي طريقي إلى الوحدة ج الزنزانة رقم ١١٠ قابلت النقيب المناوب -رجل كبير السن- استوقفني وقال : ما الأمر ألم يُطلق سراحك ماذا في الأمر؟- حقاً عشت نفسية متعبة موهن الشعور- لا أدري ماذا قلت له!! أكملت طريقي حائراً مطرقاً رأسي نحو الأرض متهدهداً ، ولما وصلت إلى غرفتي وأغلق الباب من خلفي أذكر أنني بكيت بكاءً ساخناً مدة من الوقت، نهضت مستغفراً المولى عز وجل متوضئاً ولجأت إلى مناجاة ربي وبالحسرتي وألمي ؛ لأن اليوم هو الجمعة، تذكرت اجتماع الناس بالمسجد وتذكرت الخطيب يعلو المنبر ؛ ليعظ الناس ويبصرهم في أمور دينهم ، وتذكرت انصراف الناس منتشرين بعد أدائهم لهذه الفريضة وتذكرت زيارتي وزوجتي وطفلي لوالدي الحبيب وسعادتهم بتواجدنا معا ، تذكرت تجوالي بمدينة الرياض بأمنها وأمانها ورغد العيش،تذكرت عملي وصحبي ... طال الموعد هذه المرة، وانقضى السبت والأحد والاثنين من الأسبوع الثاني من حبسي في حياة رتيبة تفصلها ساعة باليوم يسمح فيها بالمشي في الفناء ، هذا أقصى نشاط وأقصى فسحة أقوم بها، لا أحد يكلمك ولا يتاح المجال للحديث مع أحد ، رُحت أفضى بعض الوقت في قراءة أوراق القضية التي سلمتني إياها محاميتي بعد انتهاء الجلسة الأخيرة، حصل يوم الاثنين عطل بألة المراقبة بغرفتي وأحضر فريق الصيانة بصحبة السجنان الذي قام بأخذي إلى الزنزانة المجاورة رقم ١٠٧ فلدى نزيليها موعد بالمحكمة.

تطل الزنزانة على زاوية أخرى من زوايا الفناء الخارجي لمبنى الإصلاحية فارغة إلا من سريرين حديديين أحدهما فوق الآخر على خلاف زنزانتي التي بها سرير حديدي واحد، كما لا توجد آلات مراقبة في هذه الغرفة-ولا بقية الغرف كما علمت لاحقاً- وبيننا تفحص عيناى

الغرفة رأيت قلمين تناولتُ أحدهما ، لأكتب رسالة موجهة إلى صاحب القلم وصاحب الغرفة «عزيزي أنا جارك أسكن الغرفة رقم ١١٠ أريد استعارة القلم وسوف أرجعه غداً بالساعة التي تتاح لي التجوال بالفناء» أخذتُ القلم وكلي سعادة وسرور، ولما أرجعتُ إلى زنزانتني بعد إصلاح آلة المراقبة -على الفور- انشغلتُ بتخطيط جدول يوضح أيام الأسبوع والتواريخ خوفاً من فقدان المعرفة بالأيام والتواريخ - القلم عبارة عن أنبوب من البلاستيك المرن مثبت بنهايته طرف معدني صغير هو رأس القلم ، ولأسباب أمنية جرى تصميمه بهذا الشكل - لا يمكنك الكتابة طويلاً فالكتابة به مؤلم لأصابع اليد، وبينما أمعن في قراءة أوراق قضيتي فتح السجنان باب زنزانتني وطلب مني الاتصال بالمحامية ، إنني أحفظ رقم هاتفها عن ظهر قلب حتى لا أفجع بسلب بطاقة أرقامها، على الفور توجهت إلى الهاتف واتصلت بها بادرنتني بقولها ..

- أعلم أنك لم تتمكن من الاتصال بأهلك .

- أنا مشتاق إلى والديّ ومتلهف لسماع أصوات جميع أهلي .

- سأقوم بتوصيلك بهم حالاً .

- أحقاً

- نعم لحظات وستكون بصحبتهم .

جعلت تتكلم والفرحة لا تكاد توسعني طرباً مما أسمع...لقد كنت أتحرق...صرحت لها برغبتني في التحدث إلى والدي وأمليتها أرقام هواتفهم ، وعندما كنت أصغي إلى رنات الهاتف كانت دقات قلبي تعصف بشدة وتدق بوتيرة متسارعة ولما رُفعت الساعة ارتفع صوتي...

- السلام وعليكم ورحمة الله وبركاته .
- وعليكم السلام من ... ع عصاالم .
- لم أستطع منع دموعي جرت تتسابق على وجناتي متحدرة .
- نعم يا والدي .
- كيف حالك وأحوالك يا ولدي .
- أحمد الله يا والدي أنا بخير كيف حالك؟ وحال أمي وجميع أهلنا ؟
- نحن بخير مادمت أنت بخير ، الكل هنا يبلغك السلام ويتهلون لله بالدعاء في كل حين ، يا بُني اصبر وتصبر فالظلم ظلمات ونور الحق أبلج لا يدسه ظلمة الليل وإن طال .
- الحمد لله .. الحمد لله .
- أمك .. زوجتك .. أبناؤك كلهم بخير وكذلك أعمامك وعماتك وإخوانك لا ينقصنا سوى وجودك بيننا .
- أدامك الله لنا ذخرا وحفظكم جميعاً .
- نحن على ثقة بفرج الله وما خاب ظني بالكريم .

جاءني صوت أبي وأمي من الناحية الأخرى ، وآلاف بل مئات الآلاف من الأميال تفصلنا صوت قوي راسخ كعادته يقولان : تصبر يا ولدي وسيفك الله أسرك ، تحدثت مع شقيقي يوسف دثار الفؤاد رفيق الدرب صاحب المعين على نوائب الدهر والفارس المجهول المنسق بين المحامية وأهلي ، بدت نبرة الحزن واضحة ، وإن حاول الجميع إخفاءها. إن من أصعب الأمور كتم المشاعر عن إنسان عرفته وعرفك وخبرته فكيف بمشاعر الأبوة والأمومة والأخوة والزوجية والصدقة؟! وتيقنت بعد هذه المكالمات شيوع خبري وانتشاره في بلدي كشاب متهم نال الإعلام

مني ما نال ، ويا لتضييع أمانة الحرف من بعض كتاب انتسبوا إلى مهنة الشرف والعناء في تقصي الحق والحقيقة ونصرة المظلومين وردع الظالمين وإن تعرضت حياتهم ليس للمخاطر فحسب وإنما إلى فقدانها فكيف بإعلام يريد الضلال والتزوير وظلم الناس بالباطل ..إعلام يريد الكيد ببلدي يريد تلويث اسمه في الوحل حسداً وكيداً من عند أنفسهم، ساءهم أن يروا هذه الدولة متقيدة بشريعتها شريعة السماء لقد المنى ما خطته بعض الأفلام الخفاشية التي تكتب تحت جنح الظلام على أريكة مخملية همها الأوحاد تلميع أسائها على صفحات الصحافة دون تثبت تمجيدها وتدعياً لأهداف خبيثة المحتوى ، رسمها أعداء هذا الكيان الراسخ وبارك خطواتها الصفيقة كل من يصفق وينعق بصوته أو بقلمه من رواد الطابور الخامس وخفافيش الظلام الدامس.

قابل صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف بن عبد العزيز والذي المسن بمكتبه فزادنا كراماً إلى كرمه وشرفاً بكلماته السمحة، إن حديثه لوالدي بلسماً شافٍ لجراحه وحجراً ألقمه كل عاٍ ونباح ، ولم يكن غريباً على سموه فذرية بعضها من بعض ديدنهم الوفاء، أخذ أخي يحدثنني الأخبار وكلني فخر وحبور فقد كفاني قول سموه وأحاسيسه قول كل قلم رخيص حالم باحث عن الشهرة تعيس . حدثني شقيقي كيف وصل الخبر إلى مسامعهم ، وكيف كان دوي وقعه على الأسرة أجمعها، بعدها أرجعني السجنان إلى مكاني ومر ذلك اليوم بين فرحة مما سمعته من أخبار وقلق من يوم غد الثلاثاء، واطمأنت على والدي وإخوتي وأفراد أسرتي عدا زوجتي التي لم تدر شيئاً عني .
في أثناء جولتي وفي ساعة متاحة لي التقيتُ من خلف الباب الموصل

بصاحب الزنزانة رقم ١٠٧ شكرته على إعارته القلم ، رفض استلامه وطلب مني الإبقاء عليه، وكم سعدت لصنيعه ومعروفه فلعلني أدون بعض الملاحظات أو لعلني أتذكر موقفاً أو حدثاً أقصه على المحامية يفيد القضية. انقضت ساعة التجوال ورجعت إلى زنزاتي، الوقت متأخر.. خلدت إلى نوم قلق.. ، كالمعتاد الرابعة فجراً جاءني السجنان ومعه الإفطار ووعاءٌ، لأجمع فيه مقتنياتي ، انطلقنا إلى غرفة الانتظار ولما حانت السابعة انطلقت بنا السيارة إلى محكمة جون جوزيف موكلي، الأفكار تتزاحم على عقلي المثقل هل يا تُرى اليوم يوم إطلاق سراحي المبديني إلى أن يحين موعد محاكمتي؟! ،هل يا تُرى اليوم يوم سفري والتقائي بأحبتي؟! واسترسلت أحلم بالحرية وبكل شيء جميل مُحرمٌ منه، وقفت بنا السيارة داخل مبنى المحكمة الكئيب، يتعامل حراسه معي بغلاظه وفظاظه، وفي الغرفة الجليدية المعزولة التي يروق للمسؤول وضعي فيها تجرأت بسؤال الحارس

- لماذا أنا وحدي بهذه الغرفة الثلجية!؟.

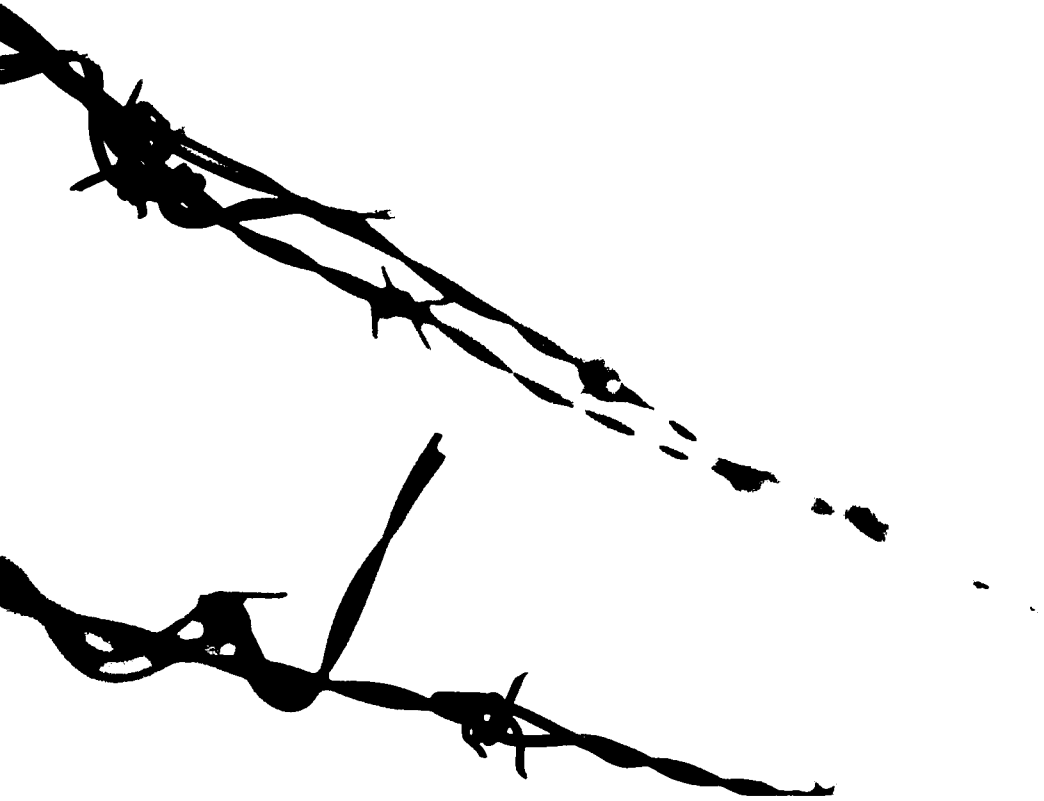
- إنها الأوامر المعطاة، أقوم بإتباعها وتنفيذها .

- صبر جميل، والله المستعان.

وحمدت ربي على حسن الثبات ..هاأنا على قارعة الحيرة أجلس القرفصاء دون أن أحسم شيئاً،رائحة الألم والعجز تملأ المكان يدهدها التفاؤل والأمل الكبير بتيسير مدير الأكوان ومقدر الأقدار.

القاضية ... إبقاء المتهم في بوسطن

لحين المحاكمة وإصدار الحكم



التقيت بالمحامية وبرفقتها مساعدتها المحقق الشاب النشيط أخبرني
بنقض المدعي العام لمذكرة إطلاق سراحني التي أصدرها القاضي
(الماجستير) وقضيتي محل نظر القاضية، عبرت لي المحامية عن عدم
تفاؤلها مما يحدث ، وأبدت مخاوفها فالقاضية التي تسلمت ملف قضيتي
غير مرنة ومن يتقيدون بالأنظمة المكتوبة نصاً دون النظر للاعتبارات
الإنسانية أو النظر إلى مواطن الأمور وقراءة ما بين السطور، حدثتها عن
تفاؤلي وأمل الكبير، مر الوقت وأنا أنتظر في ببطء شديد..

ولما حان الأوان ووطئت قدماي قاعة المحكمة دخلت القاضية ، امرأة
نحيلة الجسد بيضاء البشرة متوسطة القامة شعرها قصير، ترتدي عباءة
القضاة الشهيرة واسعة الأكمام سوداء اللون يرافقها شابان في مقتبل
العمر ، لم تظهر القاضية أي نوع من التؤدة والوقار الذي يظهره القضاة،
لم أشعر بخوف ولا قلق نحوها بالرغم من تحفظات محاميتي .

نظقت فقالت: لا بد من إبقاء المتهم لحين محاكمته، هذا ما يراه الإدعاء
العام، تدخلت ممثلة الدفاع مذكرة القاضية وهيئة المحكمة بأن مبلغ
الكفالة في الخزانة الأمريكية وأنها على وشك الحصول على خطاب تكفل
الحكومة السعودية بمثل موكلها في الوقت الذي تراه المحكمة مناسباً
لبداء المحاكمة، تدخل ممثل الإدعاء معارضاً فكرة مغادرتي إلى بلدي مُصرّاً
على بقائي داخل الأراضي الأمريكية لحين المحاكمة، وجاء الرأي قاطعاً
بتأييد من القاضية، طلبت السيدة المحامية من القاضية إخراجي تحت
الإقامة الجبرية بوجود المراقبة الإلكترونية خاصة وأنه لا خطورة على
الشارع الأمريكي من وجودي خارج القضبان وراحت جولة أخرى من

المداولات والمعارضات والحمد لله حُسمت الجولة لصالح المحامية بعد أن فاجأت القاضية والإدعاء بحالة أسوأ من قضيتي وافق القضاء على إحالتها إلى الإقامة الجبرية والمراقبة الالكترونية.

انتهت جلسة الثلاثاء بموافقة على مضمض وبغصة وحُتق الإدعاء العام، ووافقت القاضية على الاقتراح من خلال التنسيق مع المكتب الخاص بشؤون الاستئناف، وأصدرت الأمر بالشروع في تنفيذ الإجراءات اللازمة وُحدد يوم الجمعة موعداً لمتابعة سير القضية، تقابلتُ مع المحامية بالغرفة المعتادة بالطابق السفلي، قالت: إنه تقدم بسيط ثم أردفت يهمني إخراجك من السجن والمطالبة بسرعة تحديد موعد البدء في المحاكمة، حاورتها...ناقشتها..وعن توقعاتها لنجاح وكسب القضية طلبت مني تأجيل النقاش والخوض في التفاصيل إلى وقت لاحق فكل الاحتمالات واردة.

يوم الجمعة ٤/١/٢٣ م٢٠٠٤



أرجعتُ إلى إصلاحية بيلي ماوث كونتي كوركشيتل فاسيلتي الجُ
باردُ يجلد كل جزء من جسدي، ازدادت حيرتي حيرة وازداد يقيني
يقيناً بأن المولى عز وجل لن يضيعني غير أني أبكي الجور والظلم، أبكي
الغدر والطعن في الظهر وأبكي رفع الشعارات البراقة من حرية وعدالة
ومساواة وحماية حقوق الإنسان، إنه كذب وتدليس ومكر وخداع،
يا الله .. اشتقت إلى الحرية .. إلى الانطلاق وكرهت السجن الموحش
المقفر القاسي فما أقسى تعامل وعضاضة وجفاء من بداخله قابلني ،
التقيب نفسه الذي قابلته المرة السابقة رجل مسن حسن التعامل طيب
الكلمة...

- مساء الخير حضرة المهندس، تبدو أحسن حالاً.
- مساء الخير حضرة التقيب، الحمد لله على نعمه.
- أخبرني ماذا حدث اليوم؟.
- إن الأمور تسير بإيجابية والله الحمد.
- جيد، أنا سعيد لسماح هذا..هل تلقيت رسائل من أهلك؟.
- لا .
- اطلب منهم إرسالها، وسأقوم باستلامها وتسليمك إياها بنفسي.
- هذا لطف منك حضرة التقيب.
- أتعرف، ابني في سنك وهو مهندس مثلك ولا أظنك مذنباً.. حتماً
هناك خطأ.
- شكراً على حسن ظنك.
- أمنياتي القلبية لك بالتوفيق، مع السلامة.
- مع السلامة حضرة التقيب.

دبت في أوصالي حرارةُ كلماته وجرى في دمي سيل من الحماس والحيوية
وأصبحت خطواتي أكثر سرعةً وبهجة فكم من كلمة كالشهد وأخرى
أفتك من السم ! فكم من كلمة قالت لصاحبها دعني وأخرى أوردت
صاحبها المعالي !

ومضيتُ أقصد زنزاتي وكلمات النقيب وكلمات المحامية تترد في أذني
تسيل رقة ومواساة على عكس المعاملة التي يحفني بها كل من حراس
المكان، ومحاولة المدعي العام الجاهدة لوضع الحديد في يدي وزجني في
قضية أنا منها براء كبراءة الذئب من دم يوسف ، وعدت أحرق بسقف
الزنزانة رغماً من قباحة المنظر أسائل نفسي، ترى كم من سجين برئ
في غياهب السجن دسته أيادي الظلم والجور فتبا، ثم تبا لهذه الأيدي
الأئمة.

مساء يوم الأربعاء وبيننا أجلس على السرير الحديدي الذي اشتكت
منه روحي، وأنت وتوجعت منه ضلوعي، وقف خلف الباب رجل
أسمر اللون في بادئ الأمر حسبته أحدهم من العابرين المهكمين
المستهزئين...

- (في لكتة عربية متكسرة) أخي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قمت كالمددوغ من مكاني!!! وفي طرفة عين التصدقت بالباب فمن
عساه الذي يُقرأني السلام، لي أكثر من تسعة عشر يوماً لم أسمع بها تلك
الكلمات الطاهرات الطيبات، تمنيت أني لو احتضنته.. إن السلام هو

الشعور بالاطمئنان والأمان..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، كيف حالك ؟.
- الحمد لله بخير، اصبر وتجد ودع الأمر لله.
- الحمد لله على كل الأحوال.
- لا أود الإطالة حتى لا يظننا مالا يحمد عقباه.

وقبل أن يغادر...

- هل لديك مصحف تقرأ فيه ؟ .
- للأسف، فكل أغراضني في حوزتهم.

لم تربطني به رابطة الوطن ولا العرق ولا اللغة ولكنه الإسلام دين السلام جامع القلوب والإيمان إذا خالج شغاف الأفئدة « فأصبحتم بنعمته إخوانا » سورة آل عمران، آية ١٠٣ ، لقد تصافحنا بقلوبنا وإن لم تمس أيدينا بعضاً وتكلمنا وإن لم تنبس الشفاه بسامر الحديث، وكانت المفاجأة السارة لما حمل لي مصحفه وسلمني إياه من تحت الباب راجياً المحافظة عليه وإرجاعه إذا فرغت منه، أخذت المصحف.. شكرته ودعوت الله فك سجنه، وأخذت أرتل آيات القرآن الكريم توقفني عن القراءة الصلاة والصلاة حتى حان موعد نومي وهي أذ ليلة نمت فيها وكيف لا والقرآن جليسي !!

صباح يوم الخميس في ساعة التجوال مررت على الأخ المسلم بالزنانة رقم ١٠٨، لي أكثر من تسعة عشر يوماً لا يعرفني ولا أعرفه.. زنانة

واحدة تفصلنا ، أخبرني أنه عرف عن قضيتي ويعرف المدعي العام المتراجع في قضيتي الإنسان الصعب القاسي وتمنى لي التوفيق، أخبرني بإمكانية طلب مصحف وبعض الكتب الإسلامية من إدارة السجن، وطلب زيارة إمام المسجد بيوسطن الذي يزورهم على الدوام، إلا أنه هذه الأيام خارج أمريكا، لاحظ الشاب أنني أرد الطعام ولا أكل إلا النزر القليل وطلب مني هو ورفيقه الاهتمام بصحتي وترك الأمر لأكرم الأكرمين.

وخيم ليل الخميس وبزغ فجر الجمعة.. وكلي رجاء بأن يجعل هذا اليوم بداية الخلاص والسبيل للعودة إلى الوطن والأهل والدار، غادرت الإصلاحية واضعاً مصحف صاحبي تحت باب زنزانته ولم أتمكن من توديعه فالوقت مبكر وصاحبي نائم، لبست لباسي ثم انطلقنا إلى المحكمة ولما حان موعدي دخلت قاعة المحكمة.. يجلس بالخلف عدد من الأشخاص لا أعرفهم لمحتُ من بينهم مساعد المحامية، حضرت القاضية برفقة سكرتيرها، وهنا وقفت المحامية-مفاجأة لي- مخبرة القاضية وهيئة المحكمة بأنها وجدت مكاناً مناسباً ومطابقاً للشروط التي يريدتها مكتب التنسيق بالمحكمة، لم تخبرني الخبر أثناء لقائنا المعتاد قبل صعودي إلى قاعة المحكمة، وجرى الإتفاق بين جميع الأطراف بتحديد موعد البدء بالمحاكمة، بعد شهر من الآن، قبلت المحامية علي شرط الاستعداد التام من قبلها وإلا فستطالب بالتأجيل لشهر آخر، أنزلتُ عبر المصعد إلى الزنزانة، وهذه المرة لم يضعني السجن بالزنزانه الثلجية وإنما وُضعتُ في زنزانه بها جمع غفير، وعقب فترة طويلة تجري خلالها محاميتي تخلص الأعمال الورقية الخاصة بإطلاق سراحي

تحت الإقامة الجبرية والمراقبة الإلكترونية، وعند الثانية عشرة ظهر أطلب مني السجنان اللحاق به، هذه المرة حرر قدمي من القيود الحديدية ولم يضع القيود في يدي وعبر ممر من خلفه بوابة لما فتحها، إذا بي أمام منفذ كبير وقف في استقبالي المحامية ومساعدتها، تسمرت في مكاني للحظات وكأني أنتظر دماء الحياة لتسري في جسدي المنهك من جديد، وأبت عيناّي إلا أن تكتشف المكان فأطلقت لها العنان تقلب فيه كيفما شاءت وأخذ حديث النفس دور المحقق، أحقاً أعيش اللحظة حرّاً طليقاً أحقاً أعيش في قلب الحياة بعد أن غُيبت عن الحياة !!!، لقد غمرتني سعادة مخنوقة، هل حقاً أسير بلا قيد... هل حقاً ستغيب عن سمعي أصوات أزيز وصرير أبواب إصلاحية بيبي ماوث؟... هل حقاً سيتتهي التعامل الفظ الذي يحفلني به حراس السجن كلما دخلت وخرجت؟ بل كلما أرادوا ومتى ما شاءوا وبشتى ألوان المضايقة اللفظية والمعنوية، جريتُ نحو المحامية ومساعدتها وجريا نحوي، ثار الجليد الأبيض من وقع خطواتي عليه كتنقع غبار الخيل في ساح القتال وكانت الدهشة شاهدة الموقف، احتضنتُ المساعد بقوة والفرحة والضحكات تغمرنا بل عرفت طريقها إلى نفسي وقلبي، سلمت عليّ السيدة الوقور والسرور واضح على ملامحها.

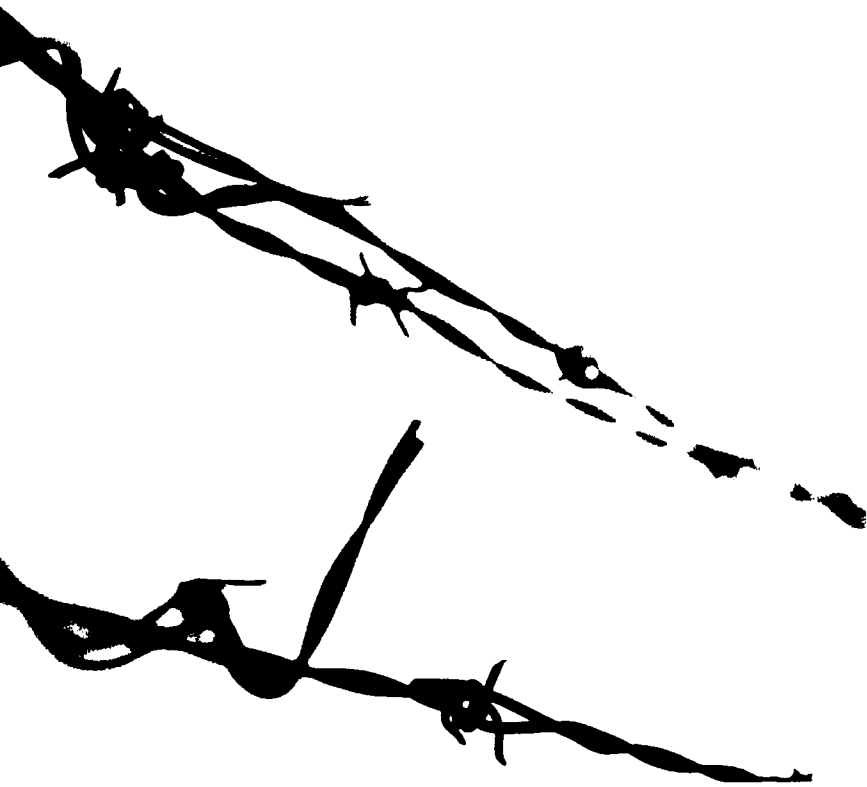
كل شيء من حولي جميل .. الشمس مشرقة .. الطير محلقة في السماء .. صوت أمواج المحيط .. زرقة السماء .. نسائم الهواء الثلجي تلامس صفحة وجهي وكأن الوجود جاء يهنئي على سلامة الخروج فلك الحمد يا الله ... لك الحمد يا الله .

لبست قبعة الرأس وقفازاوي لحمايتي من البرد، اتجهنا معاً إلى مكتب متابعة القضايا وتسلمت حقيقتي فيها جميع أغراض الشخصية، تُسلمتُ

نقودي وبطاقاتي الائتمانية وتم الاحتفاظ بجواز سفري وتذكرة العودة، أخذت لي بعض الصور كما وقعتُ على بعض الشروط التي لا بد من التقييد بها وإلا فسيتم اعتقالي وإيقاع عقوبة إضافية، بعد أن اطلعت المحامية على شروط الإطلاق أشارت إلي بالتوقيع، كادت عينايا ألا تصدق ما ترى فمبنى المحكمة من حجر أحمر رائع إنه تحفة معمارية يطل على جزء من المحيط أرضياته مكسوة بالمرمر المبهر، ما كنت لأتصور وأنا بداخل المحكمة أن الوجه الآخر من المحكمة زاهي الألوان ذو تصميم معماري غاية في الجمال ياه ..كم يشبه المبنى صورة أمريكا! وجه الحضارة المزيّف مبنى راق فخم رائع ولكنه أسود مظلم موحش تعدي على الإنسانية وتنتهك حقوقها دون مسوغ تقوله الأعراف والشرع الدولية!!! .

جلسنا في مطعم المحكمة وجلست المحامية ومساعدتها يتناولان طعام الغداء، فتحتُ حقيبتي أمسكت بساعتي التي افتقدتها وعرفت قيمة دلالاتها الوقتية، جعلت أتأملها ملياً ثم أودعتها يدي التي حرمت منها، وكم من نعمة لا نحس بها إلا بعد فقدانها واختفائها من حياتنا!!!، الجوّ صحو على الرغم من برودته والشمس ترمي بأشعتها على المكان كانت الدنيا خلال واحد وعشرين يوماً -قضيتها مسجوناً- عبارة عن لون رمادي كثيب وسيارة مصفحة ورجال أمن أفظاظ غلاظ وملابس خشنة ذات لون موحد ومناظر مملة، تأملت السماء وزرقتها والبحر وأمواجه والطيور وتحليقه والأشجار الجرد، جعلت أنظر إلى وجوه الناس من حولنا، وحينما فرغنا من تناول غداثهما، ذهبنا معاً إلى مكتب المحامية والذي يبعد عن المحكمة بضعة أمتار معدودة، طلبت من مساعدتها إحضار آلة التصوير فصورت الحقيقة .

سكن مؤقت واللّهُ المستعان



أقلتني والمحامية سيارة الأجرة إلى مقر سكني الذي سأسكن فيه على العنوان 215 غرب شارع نيوتن - إسكان كوبلي شقة 407 West Newton St Coply House 215 وما هي إلا عشر دقائق حتى قابلنا مسؤول المحكمة الموكل بي والمسؤول عن تركيب الجهاز الإلكتروني.

أخذنا موظف إسكان كوبلي إلى مقر إقامتي ودخلنا جميعنا الشقة المكونة من مطبخ صغير مقابل باب الدخول مباشرة تتجه يساراً وإذا بسرير مزدوج من أمامه صوفة للجلوس، على يساره طاولة طعام محاطة بكرسيين يتوسطهما رأسي .. دورة مياه مستقلة على اليمين، الغرفة مدفأة.. بجانب السرير غرفة صغيرة تستخدم كمخزن يحوي دولاباً ومكواة وطاولة كي للملابس يوجد ساعة ومنبه ومذيع، الغرفة تطل على حديقة فسيحة ومعبر لأهالي المنطقة يعج على الدوام بالمارة، أشجار الحديقة كبيرة وأغصانها جرداء ، أرضيات الشقة خشبية - الباركيه - إيجارها الأسبوعي خمسمائة دولار إنني أمتلك ٥٠٠ دولار وألف ريالاً سعودياً نقداً وبطاقة ائتمان وبطاقة الصرف الآلي، دفعت المبلغ للأسبوع الأول فالشقة جميلة تشرح النفس وتفرح الفؤاد.

إنني بحاجة إلى ثلاثة آلاف دولار كي أعطي مصروفات الإيجار على افتراض انتهاء المحاكمة خلال الست أسابيع القادمة، الساعة الثانية ظهرأ بتوقيت بوسطن. سُرت المحامية كثيراً فلم تر الشقة إلا من خلال الشبكة العنكبوتية للمعلومات - الإنترنت - فأخبرت مسؤول المحكمة الذي عاينها وبلغ المحكمة بمناسبتها، الشقة غالية الثمن هذا ما قالته المحامية

ولكنها حريصة على سرعة إخراجي من السجن، تكاليف المعيشة في بوسطن أكثر غلاءً، لقد أخبرتني المحامية بأنها ستزودني بأرقام المركز الإسلامي للبحث من خلاله عن شقة أرخص كما طلبت من مسؤول المحكمة اصطحابي إلى السوق المركزي؛ كي أقوم بشراء احتياجاتي الغذائية وطلبت منه إرشادي إلى مصرف؛ كي أقوم بتحويل النقود التي سأحتاجها في مشترياتي.

يوم الجمعة يوم جديد ومنعطف تاريخي في مجريات القضية، أحسستُ بإحساس آخر وفرحة غامرة بإمكانني الاتصال بمن أريد وأصبح بإمكان من يريد الاتصال بي وقتها أراد، يوم الجمعة الثانية عشرة ظهراً ٢٣/١/٢٠٠٤م الموافق ١٢/١٢/١٤٢٥هـ بتوقيت بوسطن عاجل البشرى بإطلاق سراحي من السجن وسجني داخل غرفة لحين بدء المحاكمة وصدور الحكم النهائي في قضيتي، ودعتني المحامية على لقائها يوم الاثنين التاسعة صباحاً وناولتني ورقة تصف الطريق إلى مكتبها.

لقد نصّ قرار الإطلاق على إتاحة اللقاء بالمحامية أسبوعياً مدة أربع ساعات، كما يتاح لي التسوق بغرض الحصول على تموين المعيشة يوم الثلاثاء من كل أسبوع لثلاث ساعات، إنها مدة قصيرة ولكن ما حيلة المضطر إلا المركب الصعب، وانطلقت مع مسؤول المحكمة حيث مشينا إلى مركز التسوق الكبير البريدنتال The Predental نبحت عن مصرف بغرض تحويل النقد المطلوب.

التقيت بفتاة من المغرب العربي في أحد المصارف ولما جرى الحديث باللغة العربية - فمظهري يوحي بذلك - استاء مسؤول المحكمة وتدخل قائلاً - بعد إبراز هويته الرسمية - أنا مندوب المحكمة أرجو توجيه الكلام إليّ - وكان في منتهى قلة الذوق، انطلقنا إلى المصرف الذي أرشدتنا إليه الفتاة المغربية بعدها إلى مركز التمويل الكبير شاوس Shawis فقضينا قرابة الساعة أو تزيد قليلاً، الأسعار غالية جداً.. أخذت حاجتي التي تكفيني مدة أسبوع بقيمة ٥٠٠ دولار، تذكرتُ بلدي والبركة التي تغمرها فخمسة مائة دولار في بلدي تجلب الكثير، الأغراض ثقيلة على ساعديّ المتعبين، أما مسؤول المحكمة فأخذ يمشي أمامي دون مبالاة بالأحمال في يديّ وتأكد بما لا يدع مجالاً للشك قلة إحساسه وتبلد مشاعره، وصلنا الشقة بعد أن تمتعت عيناى برؤية جزء من مدينة بوسطن الأمريكية ذات المعالم الجميلة.

إن الحي الذي أسكن فيه من أرقى وأجمل أحياء مدينة بوسطن الحديثة، تحيط به الخدمات من جميع الاتجاهات وإثر استقرارنا بالشقة جاء دور توصيل الجهاز الإلكتروني، وبدأ المسؤول يضبط ويرمج الجهاز بينما أرتب الأغراض التي اشتريتها من السوق المركزي، وما إن فرغ من توصيلاته حتى قام بوضع المراقب الإلكتروني في يدي اليسرى، وثبتها بحيث لا يمكن قطعها إلا بآلة حادة وقام بتحذيري من المغادرة أو العبث بالجهاز وإلا فسيتم احتجازي مرة أخرى بالسجن وإيقاع أشد العقوبات وأقساها، المراقب الإلكتروني عبارة عن جهاز يثبت على الرسغ أو القدم وجهاز موصل بجهاز الهاتف فإذا ما أبتعد عنه بمسافة معينة، فإنه - على الفور - سيقوم بإرسال إشارات عبر الهاتف ليتصل بالرقم المبرمج فيه

تبين مغادرة الشخص تحت المراقبة الإلكترونية المكان المفترض المكوث فيه، وستقوم الأجهزة الأمنية بالبحث عنه والقبض عليه لإيداعه السجن.. هذا ما تعنيه الإقامة الجبرية في ظل المراقبة الإلكترونية.

غادر مسؤول المحكمة الشقة، وفتتُ على شرفتها المظلة على حديقة عامة يكثر فيها الناس..بدأت السماء تنثر القطن الأبيض المنذوف أو الأمطار الثلجية .. وبدأ الناس يستعدون لقضاء إجازة نهاية الأسبوع.. اختفت الشمس من الأفق...اكتست الأرض والأشجار لوناً أبيض جميلاً كل شيء لونه أبيض السيارات والنباتات والإسفلت وحتى الناس العابرون، شدي منظر امرأة مع طفلين لها يلهوان بالحديقة يتقاذفان كرات الثلج، تذكرتُ ابني محمداً ذا السنين ونصف وبتتي وسن ذات الأربعة والعشرين يوماً وتذكرتُ أمهما، ذرفت عيناى دمعة حزن كيف لا!! وهم المودة والرحمة... أم محمد الزوجة الوفية أخبرني والدها -يوم الاثنين المنصرم- أنه لم يخبرها خبري حرصاً على صحتها ووافقته الرأي، قلبي يحدثني أنها تحس وتشعر بأحاسيسي في فرحي وحزني وأحوالي كلها وقد صدق حدسي، تركت الشرفة واتجهت إلى الهاتف اتصلت بوالديّ وكم هي سعادتهما لما سمعا صوتي حمدا المولى عز وجل كثيراً واعتبرا اتصالي عاجل البشرى بالفرح وابتهلا بالدعاء بأن يعجل الله خلاص أسري وتفريج كربتي، وما انتظر شقيق الروح اتصالي فقد تلقى أخي يوسف الخبر من المحامية وأخذ يطمئنني كعادته ويشد من أزري وتذكرتُ علاقة سيدنا موسى عليه السلام بأخيه هارون.

إن الأخ في هذا الزمان عملة نادرة وثروة غالية نفيسة فعلى الرغم من عمله وطبيعته التي تتطلب كثرة السفر وعلى الرغم من دراسته وواجباته الأسرية إلا أنه كما شهد - مساعد المحامية- إن أخاك، يوسف يجب حباً شديداً، لقد تمنيت أخ لي مما رأيت من شدة اهتمامه بك، اتصلت على والد زوجتي وأخبرته بأنني الآن أقيم في شقة أنتظر محاكمة فيدرالية، وما هو إلا وقت قصير حتى سمعت صوت الحنين القادم من بعيد أم محمد تظهر تماسكها وكأني أنظر إلى دمعاتها تنسكب على وجناتها..وعلى الرغم من نبرة التوتر والقلق البادية في تعابير الكلمات...وعلى الرغم من التساؤلات الكثيرة التي لم تنبس بها... على الرغم من وهج حروف الأسى المؤودة...على الرغم من الحيرة والألم والأحزان التي عايشتها... شرعت تصبرني وتواسيني على الرغم من حاجتها إلى من يصبرها ومن يواسيها، جعلت تذكركني بأجر الصبر على المصيبة والابتلاء، حدثت ربي كثيراً على وافر نعمه ومنتهى كرمه، فقد سمعت اليوم الجمعة صوت والدي رعاهما المولى وصوت أخي وزوجتي وعماتي وجمع من أهلي وتلقيت بعد هذا الاتصال اتصالات كثر، وكم أنا في شوق لترتيل آي القرآن، لتنزل السكينة وتعم الرحمة وتندمل الآلام وتشفى الجراح كيف لا!! وأنا أستشعر القرآن ربيعاً لقلبي، الحمد لله الذي نجاني بفضله وإحسانه، انتقلت من غرفة لا تتجاوز مساحتها المترين إلى شقة تتجاوز مساحتها الثلاثين متراً مربعاً، عشت محروماً لا أرى الحياة وشقتي تطل على الحياة، أناس يجيئون ويذهبون أشجار وأمطار وتلوج.

لم يكن يسمح لي الاتصال بأحد واليوم الجمعة تلقيت أكثر من أربعين اتصالاً، الزيارات ممنوعة، واليوم الزيارات مسموحة لساعات غير محددة، فالحمد لله الذي غير من حال إلى حال.

اتصلت بالمركز الإسلامي ببوسطن ردت السلام أخت أمريكية مسلمة فاضلة، سألتها عن إتجاه القبلة ومواعيد الصلاة ووعدتني بإرسال نسخة لشهريّ يناير وفبراير، ولما صليتُ العشاء الآخر أذكر أنني جعلت أتقلب على الفراش قلقاً؛ لأن الفراش أكثر راحة ونعومة مما اعتدتُ عليه خلال ثلاثة أسابيع مضت ، وهذه نعمة أخرى أحمد المولى المنعم على فضله ونعمائه، وأفقتُ لصلاة الفجر ولأول مرة منذ واحد وعشرين يوماً أصلي الفجر، وأنا متيقن من دخول وقته، بدأت تتجاذبني بعض الأفكار تُرى ماذا سيواجهني من مصير؟ وشابت فرحة الخروج من إصلاحية بلي ماوث واستقراري بالشقة، شابت الفرحة قلق مستقبل القضية وكيفية التعامل معها، إنني أجهل تماماً النظم القضائية في الولايات الأمريكية، استشعرتُ نعمة الإسلام ونعمة تطبيق الشريعة الإسلامية في كل جانب من جوانب الحياة، الحكم الساوي الحكم الرباني، ونعمة بلدي المملكة العربية السعودية متخذة دستورها الإسلام وشريعتها ما شرع الله ورسوله، وهذا ما أعاظ الأعداء وأقض مضاجعهم حمى الله بلد الحرمين وحمى قادتها ، جعل رايتها خفاقة على الرغم من حسد الحاسدين وحقد الحاقدين.

طلبت المحامية من القاضية مهلة شهر تعلن بعدها استعدادها لبدء المحاكمة وإلا فإنها ستختار التأجيل شهراً آخر وأخبرتني لاحقاً أنها لولا ظروف أسرتي وعملي لاخترت الشهرين منذ البداية، ولكنها ستحاول جاهدة من أجل مصلحتي، قضيتُ السبت والأحد في شغل لا يفصله إلا أوقات الصلوات أو الوقوف على الشرفة لأرى صديقي السنجاب متسلقاً الأشجار صعوداً ونزولاً في براعة منقطعة النظير.. فسبحان من

علمه أو يفصله الرد على اتصالات والديّ وأهلي وأصدقائي، وصحبي
ممن غمروني بوابل من الكرم منقطع النظر، فمواقفهم المعنوية والمادية
وما عبروا به عن شعورهم بكلماتهم البليغة لها أشد الأثر والتأثير،
فجميل أن يشعر المرء بالجميع حوله كلهم يريد المساعدة، إن دعواتهم
وابتهالاتهم الصادقة لمست آثارها يوماً بعد يوم فمهما تكلمت ومهما قلت
وكتبت ووصفت فلن أستطيع إيفاءهم بأبلغ من قولي جزاكم الله خيراً.

اللقاء الأول في مكتب الدفاع الفيدرالي



صباح الإثنين ٢٦/١/٢٠٠٤م الموافق ٤/١٢/١٤٢٤هـ في بلدي
بدأ حجاج بيت الله الحرام يتوافدون ويقصدون مكة استعداداً لأداء
مناسك حجهم ، ولما حانت الثامنة والنصف بتوقيت بوسطن
وقبل مغادرة الشقة وضعت بعض شرائح الخبز لصديقي السنجاب،
انطلقت خائفاً مضطرباً أترقب... مسرعاً الخطى أتلفت فهذه المرة الأولى
منذ أربعة وعشرين يوماً أخرج وحدي .

توجهت إلى محطة القطار الأرضية - مترو الأنفاق - بشارع البريدنتال
والقريبة من مركز البريدنتال التجاري (Predental Commercial
Center) ومركز شاوس للتموين (Shawis) وركبتُ القطار E من
المنطقة الخضراء متجهاً إلى بارك إستريت (Park ST) وتوقف القطار
بعد أربع محطات، وانتقلت إلى الخط الأحمر باتجاه براين تري (Brain
Tree) أشمونت (Ashmont) وإثر محطتين توقفتُ عند الساوث
إستيشن (South Station) ووصلتُ أول طريق ٤٠٨ الأطلنطي
الذي في نهايته مكتب المحامية ماشيا على البساط الأبيض الثلجي،
حمدت الله فلم أخطئ طريقتي .

وما حانت التاسعة بتوقيت بوسطن إلا وأنا في الدور الثالث أمام
مكتب الدفاع الفيدرالي (Federal Defender Office) جلست
بالاستقبال أنتظر وصول المحامية ولما وصلت استقبلتني بابتسامتها
المعهوددة وحركتها المفعمة بالحوية والنشاط، أدخلتني إلى غرفتها المظلة
على المحيط الأطلسي ، ومن خلال النافذة شاهدت الجو ملبداً
بالغيوم والأمطار تهطل بلا توقف، والشوارع يكسوها اللون الأبيض،

يزين حائط المكتب بعض المناظر الطبيعية والصور الجميلة، وعلى مكتبها صورة لطفلين ورجل، هو زوج المحامية أما الطفلان فتوأماها، وعلى الرغم من التدفئة المركزية إلا أن إطلالة مكتبها على الأطلسي يعكس درجة حرارة الأجواء الخارجية مما اضطرها إلى لبس معطفها، أما أنا فلم أنزع معطفي لكنني أتلوع من برودة الجو، عرضت عليّ محاميتي كوباً من القهوة الساخنة إلا أنني اعتذرت منها فجلّ تفكيرني أن أسمع منها تفاصيل مسار قضيتي، وموعد استئناف المحاكمة الإثنين ٢٣/٢/٢٠٠٤م الموافق ١/٢/١٤٢٥هـ انتهت قليلاً ثم صمتت ثم تكلمت ...

- دعني أشرح بعض أنظمة القضاء الفيدرالي الأمريكي، سيتم اختيار اثنا عشر شخصاً من بين مائه متقدم، أناس عاديون فيهم الطبيب والمهندس وربما الكناس وعامل المطعم... سيستمعون إلى تفاصيل مرافعات القضية بأكملها ثم يسلم ملف القضية إليهم للتداول والتباحث والمشاورة ليصلوا إلى رأي موحد في القضية، ولهم الحق في سؤال القضاء فيبين ما اختلط عليهم من الأمر إثر استدعاء فريقتي الدفاع والإدعاء...

وهنا دخل المساعد وجلس يستمع إلى حديثها....

-لابد من اتفاق جميع المحلفين الإثنا عشر على رأي واحد هو إجابة لسؤال هل الشخص مثار القضية مذنب أو غير مذنب ؟ .

- ياه... ما كل هذا، لقد وعيت شيئاً وما وعيت أشياء .
- لا تقلق ففي لقاءات لاحقة سأطرق بشيء من التفصيل لكل ما ذكرته وزيادة.

وتناولت المحامية كتاباً على مكتبها رأيت في أول لقاء جمعنا بمبنى المحكمة قبل عرضي على القاضي (الماجستير) الإثنين ٥ / ١ / ٢٠٠٤م وأسهبته في شرح العقوبات وتفصيلها واحتمالاتها وأعدت على مسمعي ما قالت لي في اللقاء الأول، جلس مساعدتها يستمع لما تقوله ... قرأت المحامية الدهشة على صفحة وجهي .. دهشتي أن مصير القضية ومستقبلها متعلق برأي اثني عشر شخصاً، وبقناعتهم بما يطرحه فريق الدفاع أو فريق الادعاء العام معتمداً على ما يقدمه أحد الفريقين من دلائل وبراهين، وإن لم تعكس الواقع الحقيقي للقضية، لم أتلق جواباً شافياً لكنه النظام الفيدرالي الأمريكي وليس من بديل، إن الأدهى والأمر هو ما شرحتة المحامية بوضوح ...

- في حال عدم اتفاق المحلفين جميعهم أو أحدهم، فإنه يجري تعليق فريق هيئة المحلفين، وانتخاب اثني عشر محلفاً آخرين وإعادة المحاكمة وإعادة الإجراءات والمرافعات من جديد.

ثم استدركت....

- إنني أعمل منذ أكثر من اثني عشر عاماً في الترافع وفي حياتي العملية كلها لم أسجل قضية واحدة أعيد انتخاب المحلفين فيها .

- (مساعدتها باستغراب..) أعرف الكثير من المحامين الحاذقين
سجلت سجلاتهم تعليقاً لمخلفين في قضية ما.

- (بنبرة الواثقة) إلا أنا فلا، وبإمكانك التأكد إن أردت، لقاء اليوم
ما هو إلا استفتاح للقاءات متتابعة في كل لقاء سوف أقوم بإخبارك
بتطورات القضية وما يحدث من مستجدات تمهيداً لبدء المحاكمة
بعد أربعة أسابيع أو تأجيلها.

عبرت لها عن قلقي بشأن مستقبلي الوظيفي والأسري وما ذاك بأس أو
قنوط، وإنما لتبيان الحال والبوح برغبتني في التعجيل لا التأجيل.

- تُرى ماهي توقعاتك وفق المعطيات المتوفرة لديك؟

كانت محاوره ممتازة

- من الصعب الحكم مسبقاً، أمامي الكثير من العمل والبحث
والتحضير والتمحيص.

نظرت المحامية إلى ساعتها وقالت: بقي من الوقت قرابة الساعة حتى
أغادر مكتبها قافلاً إلى شقتي كما هو جدولي اليوم، طلبت أن أحدثها في
الوقت المتاح عمّن زارني قبل سفري.

وأخذت أحدثها الخبر بتفاصيله منذ ولادة زوجتي إلى نزولي بمطار بوسطن وما مر من أحداث حتى التقيتُ بها قبل أربعة وعشرين يوماً، جعلت تقاطعني بأسئلتها والمساعد يدون ملاحظاته، خمنت المحامية بعض الاحتمالات التي وافقتها في بعض وخالفتها في بعض آخر، ولما حان وقت مغادرتي، حاملاً في يدي حقيبة سفري التي يوجد فيها جيب خفي لا يكشف بسهولة كشفته لها مبينا لو أنني الفاعل لوضعها في المكان الآمن والبعيد عن أيادي وأعين المفتشين ولاستخدمتُ ذكائتي خاصة وأن حقيقتي بمطار لوغان لم تمر عبر أي جهاز كشف إشعاعي، سعدت المحامية بهذه المعلومة وأشارت إليّ بحفظ الحقيبة، لأنها ستقدمها للمحلفين كدليل أثناء المحاكمة.

قمتُ من مكاني مودعاً المحامية ومساعدتها على أمل لقائهما الأسبوع المقبل، واتفقت معي على اتصال قبل الموعد لإخباري بيوم المقابلة ووقتها، طلبتُ منها وصف طريق العودة وانطلقت قافلاً إلى محطة القطار الأرضي المسماة بالمحطة الجنوبية (South Station) ونزلت عند محطة البريدنتال (Predental) جريت مسرعا حتى لا أتأخر - نحو كوبلي هاوس - أشعر بخوف شديد وبأعين تراقب تحركاتي وسكناتي لقد زرعو الخوف في قلبي، تبعد شقتي عن المحطة قرابة ثلاثمائة متر أو تزيد قليلاً، دخلتُ شقتي ولما أوصدت الباب من خلفي شعرت براحة تملأ قلبي، توضأتُ وصليتُ وعكفتُ على مصحفني لا أنفك عنه إلا لأداء الصلاة أو النظر قليلاً، عبر الشرفة إلى الحديقة التي يعبر منها وإليها الرائح والغادي، تلقيتُ عدداً من الاتصالات من والديّ وزوجتي وإخوتي وأعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي وجمع من الصحب، وكم

كانت تلك المكالمات سلوى لأحزاني وذهاباً لأتراحي وتصبيراً ! فله
الحمد أولاً وآخرأ، وانقضى يوم الإثنين.

تمضي الأيام بطيئة والساعات في تودة، إذ يبدأ برنامجي بصلاة الفجر
في حدود الرابعة ثم الجلوس إلى إشراقة الشمس، أعود بعدها إلى النوم
حتى التاسعة، فقراءة في مصحفي حتى الظهر والعصر وفي المغرب
أتناول الطعام ثم أصلي العشاء لأقرأ مدة لا تزيد بحال من الأحوال عن
الساعة في أوراق القضية والتي تسلمت جزءاً منها عبر محاميتي، تحمل
هذه الأوراق بعض التقارير والتحقيقات التي أجراها معي موظفو
الجمارك والمباحث الفيدرالية، أطلع عليها للتأكد من صحة ما كُتب
واكتشاف التلاعب بالألفاظ والتعابير، وهذا ما كشفته المحامية لاحقاً
..لا يخلو الوقت من ساعات للتأمل والتفكير واجترار الماضي وشريط
الذكريات الممتع منه والمزعج، غير أن القلق والاضطراب والخوف كان
لهم النصيب الأوفر داحراً إياهم بذكرٍ وحسن ظنٍ بالرحمن.

التسوق والزيارة الغير متوقعة



تنصّ شروط الإطلاق تحت المراقبة الإلكترونية على السماح لي بالخروج يوم الثلاثاء من الحادية عشرة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر للتسوق وشراء الحاجات الضرورية ، ثلاث ساعات بالأسبوع للتبضع ولغسل الملابس وما يتطلبه الإنسان من حاجيات زمن قصير ، ولكنها الشروط وإلا فسوط الجلاد بالمرصاد، ولما أزف الوقت لبستُ معطفي وقبعة الرأس والقفازين، نزلتُ من الدور الثالث بمبنى كوبلي هاوس (Copoly House) بعد أن تأكدتُ من قفل باب شقتي مراراً، ومشيتُ والحذر يحوطني من كل جانب، أشعر بأن خطواتي مراقبة وحركاتي مسجلة، وصوتي مسموع وإن لم أتكلم، فمن يقرأ التقارير التي كُتبت ليحسب أنه أمام محترف بالإجرام وماهر من المهرة ذي باع وتاريخ إجرامي عريق.. عبرتُ الشارع إلى مركز البريد نتل التجاري (The Perdental) شدني النظر إلى مكتبة بالطابق العلوي دخلت المكتبة لأقلب عناوين الكتب ولأرى المجتمع الأمريكي ثقافياً، قضيت بالمكتبة قرابة الساعة فهناك ركن مختص بالمجلات والكتب المتنوعة ، اقتصادية وسياسية واجتماعية وعلمية ذات تخصصات دقيقة في الطب والهندسة وشتى العلوم، انتقلت إلى ركن تعليم الأطفال.. جلستُ ألحظ كثيراً من الأمهات في رفقة أطفالهن ، تقوم الأم باختيار ما يناسب طفلها بعد ما تدور بعض المناقشات والحوارات الكلامية التي استمعت إلى بعضها لطرافتها ونبرتها الطفولية البريئة ، ولرؤية تحليلية لنهج تربية الأطفال في هذا المجتمع المنفتح. ركن الجديد من الكتب يتصدر واجهة المكتبة بما فيه من عناوين صارخة صريحة، مكثتُ حدود الساعة ولم أتمكن من الإلمام والإحاطة بجميع أركان المكتبة من الزيارة الأولى ، وقررت ألا تكونُ الزيارة الأخيرة لتلك المكتبة الزاخرة -بكم كبير من

الكتب - خرجتُ منها وفي جولة سريعة تنقلتُ في أرجاء المركز المترامي الأطراف ضاماً بين أركانه عدداً من محلات الأزياء الرجالية والنسائية وملابس الأطفال ، بعدها انتقلتُ إلى بيت التموين الكبير - شاونس - الأسعار مقارنة ببلدي باهظة الأثمان، حاجتي إلى هذه الجولة للاطلاع على الأسعار وإجراء مقارنات سعرية وتخطيط لتسوقي للأقل سعراً، وما يفني بالعرض مستقبلاً، بالمرّة السابقة حرصت على تنوع مقتنياتي الغذائية فيها الخضروات والشويات والسكريات ومنتجات الألبان والأسماك والفواكه، دامت جولتي قرابة الساعتين وبقيت ساعة كاملة .. قصصت شعري ثم فضلْتُ العودة إلى الشقة على الرغم من أن الجو حولي يدعو للتفاؤل وعدم الانزعاج ، إلا أن الخوف يتملكني لدرجة أنني ما اطمأننت إلا لما أغلقت باب شقتي خلفي.

أخذت حماماً دافئاً .. إن أول ما فعلته الجمعة السابقة موعد إطلاق سراحي عقب مغادرة مسؤول المحكمة الأمني هو الاستحمام والتمتع بالماء الدافئ، لقد حُرمتُ الاستحمام طيلة فترة حبسي بالإصلاحية فالحمام المخصص مكشوفاً وبإمكان الجميع أن يروك عرياناً وكم تعجبت من استحمامهم ! وكانوا يتعجبون من رفضي المستمر!!، جلستُ على المقعد أنظر من الشرفة إلى رواد الحديقة، ويا للعجب!! أرى يوماً كل صباح باكراً -وقبل أن يبزغ نور الصباح على المكان- من يحضر كلبه إلى الحديقة؛ ليقوم بتزهده لا تقل عن الساعة يتخللها اللعب معه، أحدهم يرمي له كرة وهذا قطعة عظم بلاستيكية وذاك يقوم بتنظيف الحديقة من حاجة الكلب التي قضاها!!! ثم ينطلق الواحد منهم إلى حيث وجهته، وكم تمنيت أني جلستُ مع أحدهم؛ لأسجل تعابيره وأحاسيسه تجاه ما

يفعله! إن العطف على الكلاب والحيوانات عامة والإحسان إليهم أمر تدعو إليه الأديان، ولكن لماذا التناقض والكيل بمكيالين؟ وما قيمة الإنسان في ظل الانتهاك الجاري علناً؟ لقد رددت المحامية مرارا أن سبب إثارة قضية كقضيتي، وإرباك الرأي العام والشارع الأمريكي؛ ما هو إلا كوني مسلماً قادمًا من قبة الإسلام والمسلمين قاطبة، لقد تحرك لقضيتي عدة جهات أمنية بداية من إدارة الجمارك وإدارة الهجرة وحماية الحدود وإدارة شرطة الولاية؛ ومكتب التحقيقات الفيدرالية ومكتب الدفاع الفيدرالي وإدارة محكمة الولاية والسفارة الأمريكية والخارجية الأمريكية والإعلام المرئي والمسموع والمقروء، ثم علقتم بحاميتي الفاضلة قائلة «دخل العام المنصرم في حوزته مجموعة كبيرة من المفرقات وكمية من البارود وبحوزته شيئًا من الحشيش، شاب لا يتجاوز عمره العشرين عامًا، وقضيته لم تحل إلى محاكمة فيدرالية بل انتهت القضية بتفريم الشاب ٥٠٠ دولار أمريكي».. كان شاباً أمريكياً؟! ولم يكن مسلماً عربياً سعودياً...

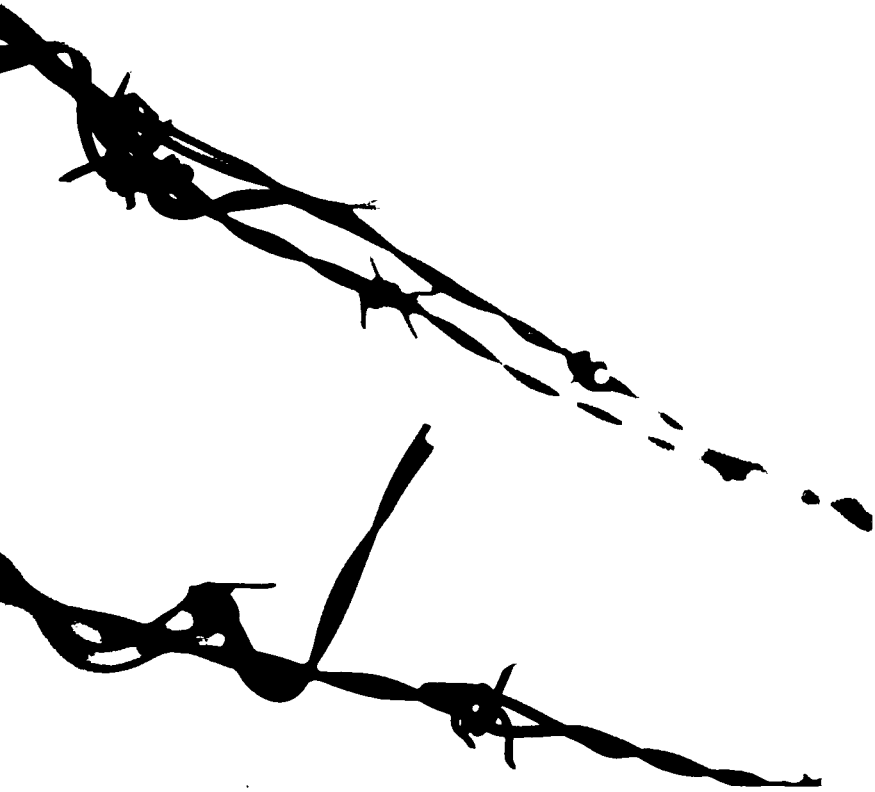
وبينما أنا جالس بجانب الشرفة أراقب حركات السنجاب وتنقلاته على أغصان الشجرة قطع تركيزي طرقات على باب الشقة أفزعنتني، فمن تراه يزورني ومن ياتراه يكون ... جاءني صوت مسؤول المحكمة دخل الشقة وأخذ يتفحصها بنظراته ثم أردف قائلاً:

- كيف كانت رحلتك اليوم؟ .
- جيدة ... على ما يرام.
- متى غادرت الشقة؟ .

- إثر الحادية عشرة بدقائق .
- وإلى أين اتجهت ؟ .
- إلى مركز التسوق اشترت بعض النواقص وإلى صالون الحلاقة، هل تصدق ؟ لقد حلقت شعري بست وثلاثين دولاراً، الأسعار في بوسطن غالية .
- أين فواتير الشراء ؟ .
- تفضل .
- حسناً..حسناً، احتفظ بها قد نحتاجها للتدقيق .
- نعم فهمت .
- هل واجهتك صعوبات في الخارج ؟ .
- لا..أبدا...سارت الأمور بشكل طيب .
- هل لديك تساؤلات أو استفسارات ؟ .
- لا شيء... شكراً، هل أصنع لك كوباً من القهوة الساخنة ؟ .
- لا..شكراً،إنني على عجلة من أمري.

غادر مسؤول المحكمة ، وبحسب شروط الإطلاق تحت المراقبة الإلكترونية فإن له الحق في زيارتي بشكل مفاجئ، متى شاء ومن حقه الاتصال متى شاء ولو بعد منتصف الليل، كما تنص الشروط أن من حقه التفتيش المطلق وتوجيه أي سؤال يريد إجابته، وإلا تعتبر مخالفة لما وقعت عليه، كان لهذا اليوم نصيبه من اتصالات الوالدين والزوجة والإخوان والأحباب إلا أن اتصال أحد الأصدقاء له وقع آخر في نفسي، نصحني بقيام الليل وسهام الدعاء، وصدق فالوقوف بين يدي الجواد الكريم له آثار عظيمة ألمسها في التصير والتثبيت والتيسير .

البحث عن شقة أقل تكلفة
...اللقاء مع المحامية



أجريتُ اتصالاً صباح يوم الأربعاء بالمركز الإسلامي ، بودي أن ألتقي بإمام المسجد، حدثني عنه صاحبي الأمريكي في إصلاحية بيلى ماوث ووصفه بالطيبة وخدمة الإسلام والمسلمين في بوسطن، إن هدف الاتصال المساعدة في إيجاد منزل أقل سعراً من الشقة التي أسكنها، أخبرتني الأخت الأمريكية المسلمة بسفر الإمام إلى مكة المكرمة؛ لأداء مناسك الحج وسيعود بعد موسم الحج بأسبوعين، عبرتُ لها عن رغبتني في إيجاد شقة مناسبة فأعطتني بعض الأرقام الهاتفية، أسعار الشقق ما بين ٣٠٠ - ٣٥٠ دولاراً بالأسبوع إن أسعار الإقامة ببوسطن وتكاليف العيش فيها باهظة، أجريتُ عدة اتصالات أحدهم اعتذر لما سمع قصتي، إحدى الشقق مشتركاً، وهذا بالطبع غير مناسب وليس بمريح لمن سوف أشاركهم السكنى، عُرض عليّ عرضان ؛ الأول بعيداً جداً ولا توجد حوله خدمات، والثاني مناسب فخطه الهاتفي مستقل، وذلك شرط أساسي لأي شقة أنتقل إليها بغرض إيصال جهاز المراقبة ، اتصلت بمساعد المحامية وأعطيته العنوان ورقم الهاتف، تطلب إجراء المكالمات الكثير من الوقت فمن الشروط - التي وقعت عليها- ألا تزيد فترة التحدث عن خمس دقائق وترك الهاتف مدة مثلها قبل إجراء اتصال آخر.

صباح يوم الأربعاء وُضعت ورقة تحت باب شقتي من إدارة الإسكان فحواسها وصول بريد مخصصي، إنه مظروف من الحجم الكبير أرسلته محاميتي وبدخله أوراق تخص قضيتي، تشتمل على تقارير مسؤولي المباحث الفيدرالية، ومسؤولي الهجرة وحماية الحدود، جلستُ أقرؤها وأنفحصها جيداً حتى أناقشها مع المحامية بمكتبها الموعد القادم ، مضى

الأسبوع الأول وأحوالي تتقلب ما بين خوف من المستقبل القادم وأمل خاصة عندما يأتي صوت الأحباب من بلدي، إن بلداً كبلدي فيه أناس سكنت قلوبهم لا إله إلا الله محمد رسول الله يتمنون الخير للآخرين كما يتمنونه لأنفسهم، ومن فضل المولى أن الألسن تلهج بالدعاء لي من أناس سمعوا بقضيتي ، وما قابلوني إن الدعاء خاص في هذه الأيام فنحن في أيام العشر الأوائل من شهر ذي الحجة ، والعمل في هذه الأيام أحب إلى الله في غيرها من الأيام الأخرى... كنت أبتهل إلى الله وقت نزول الأمطار وأتحرى أوقات الإجابة لأعلم نفسي أن فرج الله قريب كنت أستشعر دعوة والدي ووالدتي في حرم الله عند بيته وأستشعر دعوة شقيقي وزوجتي وإخواني وأخواتي وأعمامي وأخوالي وجميع الأصدقاء والأحباب « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »

حديث شريف عن النعمان بن بشير رواه البخاري ومسلم.

وما أجمله من إحساس!! فذاك يشعر بأحاسيسك وهذا يتألم لآلامك تلقيت اتصالاً من المحامية تخبرني بموعدي معها يوم الأربعاء التاسعة صباحاً وبأنها أخذت الإذن من مسؤول المحكمة وبإمكانني الانطلاق من المنزل قبل الموعد بخمس وأربعين دقيقة ، دوماً تنهني محاميتي بالالتزام الدقيق بمواعيد الدخول والخروج، وانطلقت بعد الحادية عشرة بقليل إلى مركز التسوق الغذائي شاوس (Shawis) أخذت ما ينقصني من حاجات، وفي طريقي إلى الشقة أخذت ملابس من المغسلة. وقمت بدفع الإيجار للأسبوع الثاني والثالث فإلى الآن لم أجد الشقة المناسبة ولست أدري هل ستبدأ المحاكمة بعد أسبوعين من الآن أم لا؟ وجاء يوم الثلاثاء

جميع أهلي وعلى رأسهم والدي ووالدي يتابعون قضيتي عن كثب وترقب بالغين، خرجتُ إلى مقابلة المحامية وقلوبهم تلهث بتأييد المولى وكعادتي سلكتُ الطريق المعتاد ، ولما دخلتُ مكتب الدفاع الفيدرالي وعندما حانت الساعة التاسعة وعشرين دقيقة دخلت المحامية مكتبها ...

الجو -كعادته- ثلجي تحدثتُ في حماس ..

- لم ألاحظ نظر الناس لي أثناء تنقلاتي ؟ .

- إن صورتك لم تنشر بالصحف ولم تشاهد في الرائي -التلفاز- ولذلك فلن يتعرف أحد عليك وبشكل عام الناس هنا لا تهتم بالأخبار .

- الحمد لله .

- هل قرأت الأوارق التي أرسلتها لك عبر البريد ؟

- بالطبع قرأتها كلها .

- لاحظت فيما كتبه المفتش ومسؤولو الجمارك ومحققو المباحث الفيدرالية ، لما انكسرت العينة جاء جوابك عدم معرفتك بها وهذا مالا يتعارض مع أقوالك لاحقاً، إنها نقطة إيجابية .

تناولت المحامية بعض التلاوين الشمعية التي أحضرتها معها وهي سعيدة فهناك تشابه كبير بين الصورة المرفقة والعينة نفسها لا يخفى على أحد ومن الممكن أن يحصل لبس وخطأ بكل تأكيد ، تابعت كلامها وهي مسترسلة في حماس ولم أخف أنا ومساعدتها إعجابنا لما توصلت إليه المحامية البارة وإلى تحليلاتها وتعليقاتها المبنية على التحليل المنطقي الذكي .

- أجميع محتويات حقيبتك كاملة ؟ ... ألم يتقص شيء ؟ .

- نعم عدا جواز سفري وتذكرة العودة.

- هما في حوزة الحكومة .

ناقشنا خطتها في الدفاع وعلى الرغم من أن جميع المؤشرات جيدة إلا إنها لم تبد مطمئنة، وكأنها تتحسب لمفاجآت يقدمها المدعي العام، طلبت مني أرقام هواتف جميع من حضر في زيارتنا ليلة السفر، فهي تريد التحدث إليهم فرداً فرداً وتنوي طلب عدد منهم للشهادة، لم تجب المحامية عن سؤالني إن كانت ستبدأ المرافعة بعد أسبوعين؟ كما لم تجب عن سؤالني حول توقعاتها بحسب المعطيات التي بين يديها؟ لم تجب عن أسئلة كثيرة واكتفت بقولها لا بد من العمل بجهد ونشاط واكتفت بقولها لدي الكثير قبل جوابي عن أسئلتك وبإجاباتها تلك سلبت ما استشعرته في بداية اللقاء من أحاسيس بالسعادة والتفاؤل، لكنها أعادت عبارتها بأن القضية استألت قلبها من اللحظة الأولى، وكما أشغلت الرأي العام فقد أشغلتها ، ولكن على النقيض فهي تؤمن بأن مكيدة دبرت، ولما سألتها الصحافه عن رأيها قالت المحامية الفذة وبكل صراحة :

(أتوقع أن هذه القضية ستريكم أن السيد المهندس أتى لحضور دورة تدريبية متخصصة، تتعلق بطبيعة عمله بالمستشفى الذي يعمل فيه).

رجعتُ إلى مسكني تحملني بالكاد قدماي، أما ذهني فلم أتمكن من السيطرة على ما يدور في محيطه من أفكار مشتتة مشوشة، دخلتُ شقتي وأمطرت بوابل اتصالات تستوضح الأمر وتتضرع إلى الكريم بفك أسرى وعودتي سالماً، اتصل أحد الأحباب مواسياً ومذكراً إياي بقصة سيدنا نبي الله يوسف ولبثه بالسجن السنين الطوال.. عانى الظلم.. وأتهم في عرضه.. تغرب عن وطنه ووالديه... ولم يقنظ من رحمة الله

صابراً محتسباً... فنزلت على قلبي برداً وسلاماً، مثل هذه الاتصالات تشد من أزرِي وتقوي عضدي وتنزل السكينة على قلبي.

وتمضي الأيام ولا أدري ما يحدث داخل أفنية مكتب المحامية البارعة، لكنها ورشة عمل لا تهدأ مثارها قضيتي وفارساها المحامية ومساعدتها، أخبرتني محاميتي أنها لن تناقش معي أي شيء عبر الهاتف حرصاً على شخصي، وكنت أكتفي بمباحثات القضية التي تجري بمكتبها .

في لقائي بالمحامية الأسبوع الثالث أتت الأمور مبشرة جداً، قالت: يمكنني القول بكل ثقة باستطاعتي البدء في المرافعة بعد أسبوع من اليوم، وجدت الأستاذ الدكتور الذي أبدى ارتياحه بالشهادة في القضية، إن سيرته الذاتية كفيلة بوصفه خبير القضية، إنه بروفيسور يُدرس بالجامعة عمل مستشاراً في مجال المتفجرات لعدة مصانع تنتج المفرقات والمتفجرات والألعاب النارية، ومن تقدير المولى عز وجل أنه قرأ الخبر المنشور عن المهندس السعودي الذي قُبض عليه بمطار لوغان الدولي وبحوزته بعض العينات ، فقام البروفيسور بمراسلة الشركة مستوضحاً عن المواد واكتشف ما أدلى بشهادته لاحقاً، في هذا الصباح سعادة المحامية وفرحتها لا تحفى على أحد فقد وجدت البروفيسور العالم الخبير الذي شرح لها بالتفصيل ماهية العينات... ومقتنعاً بسخافة إثارة الضجة حولها، كما طلبت المحامية موعداً مع القاضية وتحدد الموعد يوم الخميس... ياله من خبر سعيد وبشرى سارة وراءها دعوة أبووين شيخين كبيرين.

يوم الخميس توجهتُ مع المحامية ومساعدتها إلى قاعة المحكمة، وهذه المرة الأولى التي أدخل قاعات المحكمة عبر بوابتها الرسمية، فأنا أمام مبنى فخم مزين ببعض مقولات عن العدالة والحرية والمساواة، تُطل المحكمة على منظر بانارومي رائع خلاب على بحيرة متصلة بالمحيط الأطلسي ترصع واجهاتها الأربع حجارة حمراء اللون، تضفي على المبنى الضخم رونقاً إلى جماله ، انتقلنا عبر المصعد إلى الدور الخامس - فيما أتذكر- واتجهنا إلى إحدى القاعات وفي تمام العاشرة استقبلنا سكرتير القاضية، وأخبرنا بقدومها بعد تواجد فريقني الدفاع والإدعاء إن الاجتماع لسماع رأي المحامية واستعدادها لبدء المرافعة بعد أسبوع من تاريخ اليوم.

أعلنت المحامية الاستعداد المشروط بحضور جميع الشهود التي ترى في حضورهم مصلحة لصالح موكلها، وفاجأت الجميع وفاجأتني بطلب حضور الشهود من السعودية كما في المذكرة المرفوعة، كما تطلب من المحكمة تسهيل وسرعة إنهاء إجراءات الحصول على تأشيرة دخولهم إلى الأراضي الأمريكية، تستغرق إجراءات الدخول إلى الأراضي الأمريكية أكثر من ثمانية أسابيع، واعتذرت القاضية من إمكانية تسريع الإجراءات إثر تدخل المدعي العام معللاً التأخير وطول فترة الحصول على التأشيرة بإجراءات تتخذ وتحريات أمنية تتبع ، ولا مفر من إجراءاتها حرصاً على الأمن العام ولسلامة الأراضي الأمريكية وحصلت المفاجأة!!

تقدمت المحامية بوثيقة صادرة عن المحكمة توضح إصدار المحكمة أمراً مماثلاً في قضية سابقة مما أجبر المحكمة وأحرج القاضية والإدعاء العام

فبُهِتوا وقبلت القاضية وأصدرت أمراً بسرعة إنهاء الإجراءات ، وطلبت من المدعي العام بذل أقصى ما يمكنه وتذليل العقبات، ثم طلبت المحامية تكفل الحكومة الأمريكية بمصاريف الشهود لتشمل تذاكر السفر والإقامة فعلمت القاضية بأنها لم تفعل هذا الأمر من قبل وهنا قامت المحامية البارعة بتسليمها بياناً سابقاً يوضح تكفل المحكمة بتكاليف الشهود من خارج الولايات المتحدة ، طالما في حضورهم مصلحة قائمة لصالح القضية بما يخدم العدالة، وأسقط في يد القاضية والمدعي العام مرة أخرى فأصدرت القاضية أمرها بتكفل الحكومة بمصاريف الشهود .

خرجنا من المحكمة مبهجين حامدا المولى عز وجل على التسهيل والتيسير، وانطلقنا إلى مكتب المحامية البارعة وفي معيتنا مساعدتها النشط وزميلته طالبة الحقوق والمتدربة بمكتب الدفاع الفيدرالي والتي حضرت، لأن القضية أثارت اهتمامها وعلى الفور حصل اجتماع عاجل دار حول ترتيبات القضية ، وفي الاجتماع خططت المحامية لرحلة يوم الاثنين القادم إلى مطار لوغان الدولي لتلتقط صوراً لجميع الأماكن التي مررت بها قبل اعتقالي بالثالث من يناير ٢٠٠٤م ، ودعتها بعد أن طلبت مني الذهاب إلى السوق برفقة مساعدتها وزميلته المتدربة لاختيار بدلة رسمية استعداداً لبدء المحاكمة الأسبوع القادم، انطلقنا ثلاثتنا إلى وسط المدينة قاصدين شارع واشنطن حيث السوق ، تنقلنا من معرض إلى معرض حتى وجدنا المناسب وظهر دور طالبة الحقوق في الاختيار جلياً، ولما انتهينا ودعتها عائداً إلى شقتي .

دخلتُ شقتي وقمتُ بالاتصال بوالديّ وزوجتي وأخي أقص عليهم

الأحداث وأخبرهم بالمجريات والمستجدات واستشرت والدي في عرض غريب فقد بقي أسبوع واحد على بدء المحاكمة .. أخبر المدعي العام المحامية فيما لو جاء موكلها - وكان يقصدي - إلى مكتبه مقدماً الاعتذار عما بدر منه!!! فإنه سيقوم بإسقاط إحدى التهمتين وبالتالي يكون بمقدور المحامية التقدم للحصول على حكم مدته ستة أشهر مع وقف التنفيذ وسيقوم المدعي العام بمساندتها في هذا القرار، أبدت المحامية الذكية مخاوفها من الوثوق بكلامه كما لم تعره أي اهتمام وفضلت مشاورتي قبل الردّ عليه بالإيجاب أو الرفض...

- هذا بالتحديد ما قالته لي المحامية يا والدي.

- إن الرضى بالظلم ظلم شنيع ياعصام.

- ولكنني مللت البعد عن وطني وأهلي.

- وهل يعالج الخطأ بالخطأ يا ولدي.

- لا يا والدي ولكن أنا!!! .

- لماذا الانهزام والركون إلى الضعة والضعف .

- لست ضعيفاً.. ولكنني مللتُ وتعبتُ من تعاملهم القاسي.

- يابني إن ربك لبالمرصاد وهو المطلع على خفايا الأمور وبواطنها .

- ولكن ياوالدي...

- بُني ياعصام ، إن فعلت ما يتهمونك فواجه مصيرك بشجاعة فهي

غلظتك وإن لم تفعل فلا تقبل الدنية أبداً، ولا تحن رأسك فالله

ناصرك لا محالة .

- يا والدي أنا تربيتك وأنت تعرف غرسك.

- والله ما شككتُ فيك طرفة عين.. يا بُني إني أحملك على الصبر فإن

فرج الله قريب.

أجريتُ مكالمة مع زوجتي أم محمد والتي بدورها انتقلت مع أسرته إلى مدينة الرياض لترتيب أمور السفر والحصول على التأشيرة من السفارة الأمريكية. في هذا اليوم -يوم الجمعة- كتبت رسالة موجهة إلى عملي وإلى الجوازات السعودية أطلبُ منهم تسهيل مهمة زوجتي بتجديد جواز سفرها، وحين حضر مساعد المحامية إلى شقتي لم يخف إعجابه بتهاسكي وصمودي وبابتسامة نفاؤل تملو وجهي، حدثته عن الإسلام والقرآن وعن عاداتنا وتقاليدنا وعن ترابطنا، حدثته عن والدي وأفراد أسرتي ولم يخف تعجبه من استمرار مساندة أهلي ووقوفهم معي، عبر عن إعجابه بالإسلام وأخلاق بعض المسلمين .. أخذ المساعد رسالتي متحمساً مسرعاً لكي يرسلها إلى والد زوجتي، لقد تلقيتُ من هذا الأب كل تقدير واحترام ودعم معنوي وعرفت لاحقاً أنني تلقيت منه دعماً مالياً كبيراً، فقد أصر على دفع شطر مبلغ الكفالة وتكفلت أسرتي بالباقي، وجاءت وقفة لا أنساها أبداً ما حييت ، أعطتني المحامية رقم جواها الخاص رغم أنها لا تستخدمه في أغراض العمل مطلقاً، كما باحت لي مؤذنة بإمكانية الاتصال بها في أي وقت تحت أي ظرف طارئ.

يوم السبت توجهت زوجتي ووالدها الوالد مساعد وأخوه العم سعود الريحان ورفيق المعاناة محمد الحيان وفي معيتهم أخي يوسف وبعد طول انتظار أمام السفارة الأمريكية بالرياض جاءهم الخبر بأن السفارة لم تستلم أي توجيه بشأنهم.

اتصل والد زوجتي مساعد وأخي يوسف من أمام سفارة واشنطن بالرياض يظهران استغرابهما من رد السفارة بعدم وجود أي توجيه

لمنحهم تأشيرة الدخول إلى الأراضي الأمريكية، على الرغم من تأكيد المحامية بصدور التوجيهات، الجو بارد بالرياض برودة الصحراء ففصل الشتاء هو الموسم الذي تعيشه أجواء العاصمة السعودية، تقاوم زوجتي تعبها مخفية إجهادها وآلامها وإعياءها، تحدثت فوراً مع المحامية في يوم إجازتها وراحتها مع زوجها وطفليها التوأمن، حاولت بدورها إجراء عدة اتصالات، ثم عاودت الاتصال تخبرني بأنه لا فائدة فنحن بإجازة نهاية الأسبوع ووعدت بتكثيف اتصالاتها بالمسؤولين في الحكومة صباح يوم الإثنين، الوقت يمضي سريعاً ولا أدري كيف أتصرف؟! أخبرتني محاميتي بأنها ستزيد من زياراتي لها بمكتبها ابتداءً من يوم الاثنين المقبل يوماً لأربع ساعات، أما زوجتي فتجدد جوازها المنتهي في سويغات ولاقى الأمر اهتمام المسؤولين وعلى رأسهم صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز، وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف حفظهما الله.

يوم الإثنين توجهتُ إلى مكتب المحامية البارعة، وكعادتي كل صباح أقدم لصديقي السنجاب شيئاً من الخبز اللذيذ، التقيتُ بالمحامية ومساعدتها شرحت لي ما سيجري بقاعة المحكمة وطريقة اختيار هيئة المحلفين والكيفية التي يسمح للمدعي العام بطرح أسئلته للشهود، أخبرتني بأنها توصلت إلى الشاب الأمريكي الذي صحبته على متن الطائرة المتجهة من فرانكفورت إلى بوسطن فترة الرحلة لتستعين بشهادته.

توجهنا معاً إلى مطار بوسطن الدولي إنها المرة الأولى التي تحط قدمي

الصالات الأمامية للمطار، جلسنا ننتظر حضور المدعي العام، ولما حضر أعطى تعليماته لمسؤولي المطار بعدم الإجابة عن أي سؤال تطرحه المحامية، وانطلقنا في جولة بدأت بالمعبر المؤدي إلى باب الطائرة، انتقلنا عبر الممرات لصالة الجوازات، يحمل المساعد بيده آلة تصوير - رقمية - يصور المواقع بحسب تعليمات المحامية، انطلقنا إلى صالة الفحص الثانوي وإلى صالة الجمارك، أشرتُ للمحامية ناحية الغرفة التي تم استجوابي فيها والباب الخلفي الذي أخرجت منه والقريب من سير العفش، يرافقنا بعض مسؤولي الجمارك وحماية الحدود وشرطة المطار، أتذكر موقف رجل الجمارك صاحب الملامح الطيبة الرجل المسن، فلما أخذ المساعد عدة لقطات فرغت البطارية، فقام رجل الجمارك بحمل بعض البطاريات الجديدة وسلمها إليه، ولم يرق الأمر لكثير من المرافقين لنا كما بدا جلياً على تعابير وجوههم، وحين أتم مساعد المحامية عمله تسلم المدعي العام شريحة التخزين الرقمية التي بها الصور الملتقطة ووضعها في مظروف وأحكم إغلاقه.

تهدف المحامية من زيارتها للمطار رسم مخطط متكامل لانتقالي داخل صالاته؛ حتى تشرحه لهيئة المحلفين ولتتمكن في نفس الوقت من رؤية بعض الأماكن بعينها، طلبت - قبل مغادرتها المطار - رؤية المكان الذي أجرى فيه خبير المتفجرات من المباحث الفيدرالية اختبار لهيئة من العينات الثلاث ودُهشت محاميتي!!! فمكان التجربة أو الاختبار هو ساحة الطائرات أو المدرج وأصرت على أخذ لقطة لهذا المكان!! علقْتُ باستغراب داخل نفسي ألم يخش الخبير أن يؤثر انفجار العينة على أمن وسلامة الطائرات ومن في ساحة المطار!!! ترى لو لم أكن مسلماً عربياً

سعودياً أتراها اختلفت الأوراق وانقلبت المعادلة وتبدلت المعاملة !! ثم انطلقنا جميعاً إلى المكتب.

أجرت المحامية المتحفزة بعض اتصالاتها وأوصتني بالاتصال بأهلي لسرعة التوجه إلى السفارة، مضى الإثنين والثلاثاء والأربعاء دون أحداث تذكر ، وكان الخميس والجمعة والسبت والأحد إجازة نهاية الأسبوع لدى السعودية وأمريكا على التوالي، ومضت الأيام ولم يحصل شيء عدا أن الجميع يذهبون كل صباح واقفين أمام السفارة على أمل لقاء القنصل الأمريكي لتسليمهم أوراق التأشيرة.

مساء يوم الأحد استطاعت البارعة الوصول إلى مسؤولية كبيرة بالسلك الدبلوماسي الأمريكي، وأبدت الاستعداد بتقديم المساعدة وعبرت لمحاميتي بأنها الوحيدة التي تملك الصلاحيات التنفيذية ، أعربت المحامية عن سعادتها وعن استغرابها، فالأمور تسير وفق تخطيط دقيق ومنظومة متناغمة وتزامن عجيب.

اتصلت السيدة المحامية بأهلي كما اتصلتُ بهم وتسايق الجميع إلى السفارة واستقر الأمر على سفر زوجتي ووالدها وعمها وصديقي أسامة، واعتذر بعضهم لأسباب خاصة!! أما الصديق محمد الحيان فلم تمنحه السفارة تأشيرة السفر، وكم كان حزيناً كما حُكي لي، أخذ يحاول إقناع مسؤولي السفارة بأهمية سفره وأثره على مسار القضية ولا فائدة فالتعليقات الأمريكية تستلزم عدم منح التأشيرة، طلب مني والذي إقناع المحامية في إدراج اسمه ضمن قائمة الشهود.... إنها مشاعر الأبوة التي لا تكتبها الحروف ولا تصفها الكلمات .

اليوم الأول... بداية المحاكمة



صباح يوم الإثنين الثالث والعشرون من فبراير ٢٣/٢/٢٠٠٤م
بداية يوم عظيم في تاريخ صفحات القضية المقامة من قبل حكومة
الولايات المتحدة الأمريكية ضد المواطن المسلم المسالم، وقبل ذهابي إلى
مكتب المحامية وقفت بين يدي مدبر الأمر وقاضي الحاجات ومجيب
المضطرين إذا دعوه، وتوجهت بقلب صادق للقريب السميع المجيب.

تركتُ شقتي السابعة والنصف صباحاً، وكانت المرة الأولى التي
أغادر في مثل هذه الساعة المبكرة، تركت ما يكفي لصديقي السنجاب
من شرائح الخبز المفضلة لديه ففي كل كبد رطبة أجزاً، توجهتُ إلى
مكتب التحقيقات الفيدرالية، التقيتُ بالمحامية تمام الثامنة والربع
بتوقيت بوسطن الرابعة والربع عصراً بتوقيت الرياض، أجرت المحامية
بعض الاستعدادات الأخيرة كما أعارتني ربطة عنق زوجها! وفي طريقنا
إلى المحكمة أخبرتني بأن عملية اختيار هيئة المحلفين ستتم في التاسعة
صباحاً، كما أخبرتني أنها ومساعدتها رأيا عينة من العينات الثلاث
وأصابتهم الدهشة الشديدة لصغر العينة ومن السخافة إثارة القضية
التي لا تستحق ما أحدثته من ضجة، اكتفيتُ بابتسامة هادئة وأكملتُ
مسيري .

تابعت المحامية حديثها...بعد اختيار هيئة المحلفين، وفيما يتبقى
من الوقت سيتم افتتاح الجلسة، أما زوجتي ووالدها وعمها وصديقي
أسامة فيأذن الله سيصلون إلي بوسطن الرابعة عصراً من يوم غدِ الثلاثاء،
دخلنا إلى مبنى المحكمة بعد إجراء التفتيش المطلوب وانتقلنا إلى الطابق
الخامس أو السادس فيما أتذكر، وإلى قاعة المحكمة حيث وجدنا المدعي

العام وبرفقته مساعده - لأول مرة - ، وجدنا باستقبالنا المترجم الذي عينته المحكمة بطلب من محاميتي ، فيما لو استعصى عليّ فهم بعض المصطلحات ، عرفني بنفسه لبناني من أصل أرمني، يحمل الجنسية الأمريكية .. طاعناً في السن.. ضعيف السمع ... عاش بأمريكا لأكثر من عشرين عاماً إنه يتحدث العربية بلكنة ركيكة وتراكيب متكسرة، وكأنه يحكي صورة من صور الاتصال بين المجتمعين العربي والغربي، لا وقت لتغييره ولا سبيل لتبديله ، هو متعاطف مع قضيتي حينما استمع إلى طرف منها بدا ذلك جلياً عندما أسدى إليّ النصح بعدم الاستعجال والتأني بالإجابة ، وبعد لحظات جلس الجميع وحضرت القاضية برفقة سكرتيرها والكاتبة وهيئة المحكمة، بدأت القاضية بإعطاء تعليماتها لكلا الفريقين ، الادعاء والدفاع كما سلم مندوب المحكمة والمسؤول عن برنامج المراقبة الإلكترونية تقريره عني لفترة أربعة أسابيع ماضية كمراقب لي تحت الإقامة الجبرية .

أثبتت تحريات المسؤول عدم قيامي بشيء مخالف للقانون، وحينها أمرت القاضية بإدخال هيئة المحلفين والبالغ عددهم مائة محلف ومحلفة، وقف الجميع احتراماً لهم وتكامل الأشخاص المائة على المقاعد، تبادلنا النظرات، ولما جلسوا وجلسنا تحدثت القاضية ووجهت تعليماتها وإرشاداتها إلى المحلفين المائة، واستمعنا لما تقوله لأكثر من نصف ساعة من الزمن، وفي نهاية حديثها أملتهم القسم بنفسها وهم جميعاً يرددونه واقفون، أما المترجم والذي يجلس معنا في مقصورة الدفاع بجانبنا وبجانب السيدة المحامية فقد غطّ في سبات عميق، وارتفع شخيره حتى إن القاضية في منصتها انتبهت لذلك فأيقظته .. التفت نحوي مبتسماً قائلاً

هل صحيح أنا نمت ؟ .

أملت القاضية للمحلفين كما هائلاً من التعليقات والإرشادات التي تساعدهم في أخذ القرار السليم إثر استماعهم إلى كامل تفاصيل القضية وملاساتها، سيستمعون إلى شهودها و إلى أقوال الإدعاء والدفاع وجميع الأطراف المعنية، ناولتني محاميتي نسخة ورقية تحمل أسماء الأشخاص المائة ووظائفهم وعناوينهم السكنية، ستبدأ مداولات اختيار ثلاثة عشر شخصية - اثني عشر أساسيين واحتياطي واحد- تمثل هيئة المحلفين للاستماع لمرافعات القضية والاطلاع على تفاصيلها كاملة، ومن ثم إيداء رأيهم بالإجماع، فحواه صاحب القضية مذنب أو غير مذنب ، وقف فريقا الادعاء والدفاع عن يمين منصة القاضية التي تدير وتوجه الفريقين استعداداً لعملية اختيار هيئة المحلفين ، تم استثناء أكثر من ثلاثين شخصاً ممن لديهم ظروف خاصة أو أحاسيس سلبية تجاه القضية أو صاحبها بشكل خاص ، جاءت بداية الاختيار لصالح فريق الادعاء كما ينص قانون المحاكم الفيدرالية فوقف المدعي العام ومساعدته لاختيار أول عضو في هيئة المحلفين، يجب أن يتفق على العضو كلا الطرفين الإدعاء والدفاع، إن عملية الاتفاق أو الرفض لا يحكمها سوى عدم الارتياح للشخص محل الاختيار، ترى السيدة المحامية عملية اختيار أعضاء هيئة المحلفين مسألة حظ مطلق وأرى أن هناك جنداً لله يسخرهم لمن يشاء كيفما يشاء، دعوته عز وجل أن يسخر لي جنداً من جنوده يُنطقه ببراءتي وعودتي إلى أهلي سالماً من كل مكروه .

من ظريف ما حصل أثناء عملية الاختيار- والتي دامت ساعات- يوجد من بين المرشحين شابا يهودياً في مظهره يلبس الطاقية الشهيرة - اليمكا - وتتدل على كتفيه ظفيري الشعر الشهيرة لدى متطرفي اليهود، أشارت

المحامية أنها لا ترغب بوجوده ضمن أعضاء هيئة المحلفين ولا شعورياً نظرت نحوها نظرة استغراب، وكم هي لمّاحة وذكية فقرأت استفهامات الاستغراب على صفحة وجهي، فأجابت صحيح أنني يهودية لكنني غير متحيزة ولست بمتعصبة، أما الموقف الظريف الآخر فمن ضمن المرشحين امرأة حنطية اللون.. نظراتها غريبة تبسم كلما نظرت نحوها، حسبته من باب الملاحظة لأجواء التوتر المحيطة بقاعة المحكمة، ولما اكتمل عدد المحلفين الثلاثة عشر، ولم يتم اختيارها عبرت بشكل ملحوظ عن سخطها وأخذت ترمي ببعض الحركات التي لاحظها مساعد المحامية الذكي، وعلق فيما بعد بقوله ماذا فعلت بالشابة الأمريكية أيها الفتى العربي !!!؟ ، وقد كنت في شغل شاغل عنها وعن حركاتها وهمزاتها، وفعلاً استغرقت عملية الاختيار وقتاً طويلاً .

حين اكتمل النصاب المقرر وفق الدستور الأمريكي، ستة من الرجال وستة من النساء -أما الثالثة عشر فاحتياطية-، من ضمن فريق المحلفين امرأة كاثوليكية شقراء اللون كبيرة السن استبشرت محاميتي بوجودها في قائمة المحلفين الرئيسة، يضم الفريق امرأتين سمرائين، إحداهما اسم زوجها عبد العزيز -سائق أجرة مسلم- إلا أنها متبذلة في لباسها لدرجة أن المحامية لم تحف استيائها الشديد فعلمت بقولها يؤسفني أنها مسلمة، أما السيدة الأخرى فتحمل درجة علمية عالية في علوم المحاماة والدفاع، عمل زوجها قاضياً سابقاً بإحدى المحاكم الأمريكية، من بينهم المدرس والطالب الجامعي والمهندس والمواطن العادي، حقاً إنه تنوع عجيب كما عبرت محاميتي، وأراه اختياراً ربانياً ودعوة أبوين شيخين كبيرين وإخوة وزوجة وصالحي المسلمين، ممن سمع قضيتي فرفع يديه مبتهلاً إلى الحكيم العزيز القدير.

انتقلنا إلى قاعة أخرى أصغر في حجمها من الأولى، وأخذ كل منا مقعده المخصص، عاودت القاضية التأكيد على فريقَي الدفاع والادعاء بالالتزام بالقواعد المشروحة، ووجهت حديثها إلى أعضاء هيئة المحلفين إنكم أيها السادة ستستمعون إلى كثير من الاعتراضات والاحتجاجات والتوقفات، وكثير من الاجتماعات الجانبية بين هيئة القضاء وفريقي الدفاع والادعاء، ولكم أيها السادة كامل الحق بالاطلاع على معارض القضية والإثباتات العينية، وأنصحكم بكتابة ملاحظاتكم وتدوين رؤاكم حتى تساعدكم لاحقاً في الحكم الصحيح على أحداث القضية.

وهنا أذنت القاضية ببدء المرافعات، وقف المدعي العام يشرح الموقف لهيئة الادعاء واستغرق في افتتاحيته قرابة عشر دقائق، ولما جاء دور الدفاع وقفت المحامية البارعة، وكانت رائعة في كلماتها وانفعالاتها وإجاءات جسدها، قرأت تلك الانعكاسات على وجوه المحلفين جميعهم، ومما قالته وأتذكره جيداً... « إنكم أيها السيدات والسادة ستستمعون إلى قضية في نهايتها لن تتمكنوا من معرفة الجاني أو الفاعل... وفي الختام ستعرفون أن موكلي لم يكن المتهم وليس بالفاعل، وأكد أنكم سوف تستمعون إلى الحقيقة والحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة»، جلست وقرأت في أعين أعضاء هيئة المحلفين قولهم ليتها ما سكنت .

استأذن فريق الادعاء ممثلاً في السيد المدعي العام بقراءة توضيح اتفق عليه كلا الفريقين الدفاع والادعاء، يحكي التقرير نبذة عن شخصي ووظيفتي وسبب سفري إلى الأراضي الأمريكية، ونوع التأشيرة المتحقق من قانونيتها، كما يتحدث التقرير عن حجوزات الفنادق والشركة

المصنعة التي من المفترض تلقى التدريب فيها وغيرها من المعلومات المتفق عليها، وذلك اقتراح قدمته المحامية المبدعة لهيئة المحكمة بهدف عدم إطالة أيام المرافعات واختصار ما يمكن اختصاره.

انتهى اليوم الأول من أيام المحاكمة واستأذن المترجم بالذهاب على أن يحضر يوم الأربعاء أو يوم الخميس، ليقوم بالترجمة لزوجتي . من المثير أن كثيرا من محامي مكتب الدفاع الفيدرالي حضر جلسة الافتتاح وتابع باهتمام بالغ كلمتي الدفاع والادعاء، ولم يخفوا إعجابهم بطرح المحامية البارة، غطت الصحافة الأمريكية أحداث اليوم الأول بحضور عدد من ممثلي الصحف اليومية الشهيرة بمدينة بوسطن، ولما عدنا إلى المكتب تلقت المحامية من زملائها ورئيسها الشاء وفرحتهم إزاء الأحداث، ناقشنا أحداث اليوم من بدايته إلى نهايته وأعطى مساعد المحامية تقريره وملاحظاته، ولم أدر أنه يدون ما يلاحظه من أحداث ومجريات داخل قاعات المحكمة، إن تعليقات المحامية توصي بالأنا تكلم في القضية داخل ردهات وممرات المحكمة، ولا خارجها بمسافة لا تقل عن الثلاثين أو الخمسين متراً فيما أتذكر، رجعتُ إلى غرفتي الساعة مساءً وتناولتُ إفطاري، اتصل والديّ مبتهلين متضرعين إلى المولى القدير، ولما أدت ما عليّ من واجبات رحت في نوم بعد جهد يوم مليء بالأحداث المتسارعة في وتيرتها الجديدة في مجرياتها، إنها خبرة جديدة وتجربة فريدة على ما فيها من ألم وقسوة وظلم شنيع.

قمت قبل بزوغ فجر يوم الثلاثاء كيما أناجي الملك ... وحين حانت الساعة انطلقت لمقابلة محاميي في مكتبها، لننتقل إلى قاعة محكمة جون جوزيف موكلي وبعد إجراءات التفتيش المعتادة، وقبل أن نصل إلى القاعة المخصصة لمرافعات هذه القضية، وكنت أدفع العربة التي تحمل ملفات قضيتي وبرفقتنا مساعد المحامية وزميلته طالبة الحقوق والمتدربة بمكتب الدفاع الفيديرالي، والتي وجهت حديثها للسيدة المحامية قائلة: رأيت البارحة في منامي السيد عصام متهجاً سعيداً يقول لي انتهت القضية لصالحه و... وبسرعة خاطفة نهرتها المحامية طالبة منها الكف عن قولها والتوقف فوراً عن الاستمرار وعدم إكمال سرد قصة منامها !!!!! .

اليوم الثاني الشهود



دخلنا قاعتنا لتستأنف المرافعات بعدما حضرت القاضية برفقة سكرتيرها وكاتبة وهيئة المحكمة، وقبيل دخول أعضاء هيئة المحلفين طلبت السيدة المحامية من القاضية اجتماعاً جانبياً وهذا الأسلوب من الأنظمة المتاحة ضمن أنظمة المحاكم الفيدرالية الأمريكية. أخذ كل من فريقني الإدعاء والدفاع مواضعهما وقوفاً وأدخلت هيئة المحلفين ، ولما أخذوا أمكنتهم جالسين جلست القاضية وكلا الفريقين .

طلب الادعاء حضور شاهده الأول وبدأ شاهد الإثبات -بعد أدائه القسم- بشهادته وأثناء مناقشة المحامية له، تبين أن شهادته لم تستند إلى معاينة شخصية ، وإنما إلى أقوال ومشاهدات آخرين، وبكفي أنني ما رأيته ولم يرني إلا بقاعة المحكمة في الخامس من يناير.

الشاهد الثاني مفتش الجمارك -الأمريكي الجنسية من أصل فرنسي- شاب لا يتجاوز عمره الثلاثين عاماً ، وهو من أخرج العينات الثلاث من حقيبتي، بدا أثناء أدائه القسم في حالة يشفق عليه من يراه، أخذ يجيب عن أسئلة المدعي العام متلعثماً متردداً غير واثق من إجاباته، سأله المدعي العام إن كان بإمكانه التعرف على شخصي؟! وكانت ردة فعله غير متوقعة!! فقد بدا واضحاً أنه يتحاشى النظر ناحية جلوسي!! سألته السيدة المحامية البارعة عن التقرير الذي كتبه ، وعن تضارب المعلومات التي كتبها بشأنني وتبين أن رئيسه هو من كتب التقرير ، واكتفى فقط بتزويده ببعض المعلومات عما حدث، وهنا أجهزت عليه محاميتي بتعليقها كان من المفترض عليك أن تراجع التقرير المكتوب باسمك؟ لم يجد الشاهد ما يرد به!!! وهكذا يتلعثم بعض الناس إذا اقتربوا من دائرة

الصدق ، ويتلعثم قوم آخرون إذا اقتربوا من دائر الكذب ، فسبحان الذي زلزل أركانه وأبلغ الحق فجاء كفلق الصبح واضحاً بينا، واكتفت المحامية بتلك الأسئلة ولم توجه له أي سؤال آخر، دُهِش أعضاء هيئة المحلفين وهالني الأمر أنا شخصياً، ومضت الأمور بانسياب إيجابي لصالحني والله الحمد أولاً وآخرأ.

وآن الأوان للاستماع لشاهد الادعاء الثالث الرجل الذي تجاوز السادسة والخمسين، حير مشرف الجمارك القاضية بإجاباته المضطربة مما اضطرها؛ لأن تطلب منه ترك منصة الشهود والوقوف أمام هيئة المحلفين وشرح ما حصل بمطار لوغان بالتفصيل، فزاده الأمر إرباكاً إلى إرباكه وتصبب عرقاً على الرغم من برودة الجو، إنه بالكاد يبتلع ريقه حتى ظنه الجميع ثمل سكران ... لم يستطع المشرف شرح المقابلة والحوار الذي جرى بيني وبينه بمطار لوغان في صالة الجمارك وترك منصة الشهود تلاحقه تساؤلات كل من استمع لشهادته وإن لم توجه له المحامية سؤالاً واحداً.

ذهبت المحامية في استراحة الغداء إلى مكتبها وذهب مساعدتها ، كي يرتب استقبال زوجتي ووالدها وشقيقه والصدیق أسامة عباس، وانصرفْتُ إلى جانب من جوانب المحكمة ، لأتوجه إلى صاحب الفضل بالدعاء.

ولما حانت الواحدة والنصف وتكامل الجميع، أستؤنفت مباحثات القضية وطلب الادعاء شاهده موظف الهجرة وإنفاذ الأنظمة ، فقد كان

برفقة رئيسه أثناء استجوابي بمطار لوغان الدولي في الثالث من يناير ٢٠٠٤م / ١ / ٣، موظف الهجرة وإنفاذ الأنظمة في بداية الأربعينات من عمره .. عربي الملامح متوسط القامة أدى القسم وجلس على منصة الشهود، اقتضت شهادته بأنني ذكرت له ولرئيسه أن زوجتي هي من قامت بترتيب الحقيبة وسمعتني أنكر معرفتي بالعينات التي أخرجها مفتش الجمارك - الشاهد الأول - ، وأكد أنني قلت لها بأنها تشبه التلاوين الشمعية ولم أقل بأنها تلاوين شمعية، جاءت شهادته إثباتا لصحة مقولاتي، وهذا ما أكدته لي المحامية بأن التقريرين اللذين كتبهما موظفي الهجرة وإنفاذ الأنظمة سيفيدان القضية بشكل كبير لما فيها من تطابق لما قلته للمفتشين - سابقا - ومسؤولي المباحث الفيدرالية .

طلب الادعاء شاهده الخامس محلل المختبر، ملخص شهادته في الطرق التي اتبعها في تحليله والنتائج التي توصل إليها وعن وزن العينة، استمع لهذه الشهادة الخبير البروفيسور ، والذي همس في أذن المحامية؛ فطلبت من المحكمة بأن تأذن للخبير في الإطلاع على الملاحظات التي دونها المحلل أثناء وزنه العينة، اتسم حديث محلل المختبر بتفاصيل تقنية متخصصة المصطلحات ، فلم أستوعبه ولكن البروفيسور والمحامية له بالمرصاد وبنهاية شهادة الشاهد انتهت مجريات يوم الثلاثاء حافلا بالكثير من البشائر.

في منعطف خطير للقضية إذ لم يتبق للادعاء سوى شاهدٍ واحدٍ ألا وهو خبير المتفجرات، خطط المدعي العام في تقديم شهادة ثلاثة خبراء بمجال المتفجرات ، غير أن المحامية المتمرسه تقدمت بمذكرة اعتراض

قبيل تاريخ البدء في المحاكمة تحتج وتطلب من القاضية تقليص عدد الشهود إلى شاهد واحد، حتى لا يلتبس الأمر على أعضاء هيئة المحلفين، ففيما يكثف الدفاع بتقديم شاهد واحد تقدم الحكومة ثلاثاً من الشهود يعيدون نفس الكلام بتعابير مختلفة، وحتماً سيعمل على تعميق النظرة السلبية والتلاعب بعواطف المحلفين، وإضاعة الوقت والتكرار المستهجن البغيض، ومن فضل الله أن قبلت القاضية الاعتراض .

سرتُ أسرع الخطى في طريقنا إلى مكتب الدفاع الأمريكي أسبق الأرض التي أمشي عليها، عبرت لي محاميتي عن سعادتها لمسار مجريات القضية ، رددتُ في نفسي سبحان مقلب القلوب.. كانت المحامية غير متفائلة من إحالة القضية من القاضي (الماجستير) إلى القاضية ولكن ملك الملوك له شأن آخر...

إنني أعيش سعادة لا توصف ، كيف لا وأنا أنتظر مقابلة شقيقة الروح ورفيقة الدرب، التي أنت مفادية نفسها من أجلي، ولما غادرتُ المصعد ووطئت قدماي مكتب الدفاع الفيدرالي بالدور الثالث ولما فتحتُ باب المكتب رقم ٣٠٣ ولأول مرة منذ زمن بعيد ألقى السلام تحية الإسلام تحية أهل الجنة جاءني صوت أم محمد ممتزجاً بالصراخ والبكاء فلم أتبين ما قالته.... تسارعت الأنفاس.. وخفقت القلوب بشدة.. طوق الصمت والنحيب الموقف... عبرت الدموع عن كوامن الشوق والأشواق.. تعانقنا طويلاً.. وبكىنا كثيراً وأبكىنا من حولنا في مشهد معبر مؤثر، سكت فيه الكلام وتحدثت الدموع نيابة عن الألسن ، رأيت عيناى أم محمد الوفية الصابرة الحنون، احتضنتُ العم مساعد والد زوجتي

صاحب القلب الكبير، واحتضنت العم أبا ريمان صاحب الوقفات التي لا تُنسى، احتضنتُ الصديق الصادق الصدوق رفيق المشوار على مدى تسعة أعوام المهندس أسامة عباس... وحركت حرارة اللقاء كل من حضر الاستقبال الحافل... دمعت عينا المحامية ومساعدتها وطالبة الحقوق المتدربة بمكتب الدفاع بل وكل الحضور، عايشوا ألفة الأسرة المتلاحمة فقد حضرت الزوجة وحضر القريب والصديق ولسان الحال يجبر عن قلب واحد ينبض بالإخلاص والشعور الصادق، ما أجمل ديننا! وما أجمل الإحساس بأهلك من حولك! إحساس الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

جلسنا نتحدث ولا أدري من أين نبدأ؟ فتارة نتحدث عن والدي وأهلي، وتارة عن الأشواق، وتارة عن برودة الطقس، وأخرى عن مجريات القضية، قطعت حديثنا المحامية وطلبت من المهندس أسامة والسيد أبي ريمان الاستعداد حتى تجلس معها، تمهيداً ليوم غد الأربعاء، إن الوقت يسابقنا ولا بد من الاستعداد.

لقد بذلت المحامية البارة جهداً جباراً، وكانت كلمات الشكر التي قدمناها لها غير وافية لمجهودها، ومازلت من أعماق قلبي أدعو الله بأن يدها إلى مشكاة أنواره، اصطحب مساعد المحامية العم مساعد وأخاه السيد أبا ريمان وصديقي السيد أسامة إلى الفندق على بعد خمس دقائق مشياً على الأقدام من مكتب الدفاع الفيدرالي واصطحبت زوجتي إلى إسكان كوبلي هاوس على بعد نصف ساعة أو تزيد قليلاً، أتذكر جيداً عندما وصلنا إلى الشقة وأغلقنا الباب من خلفنا جلسنا طويلاً، حدثني

أم محمد عن إحساسها بالمشكلة قبل وقوعها ، وذكرني بعدم ارتياحها مطلقاً لسفرتي ، وذكرني بيوم السفر بموقف توديعي لها ، وعدم التفاتتها إليّ كعادتها ، وأنها كانت تحدث والدتها بإحساسها الغامض ، حدثتني عن أحلامها وبأنني لم أغب لحظة عنها .

أعرف أم محمد وأعرف شفافتها بطيبة قلبها وصدقها ، ولم أستغرب ما قالته وإنه لأغرب من خيال لمن يسمعه غيري ، بلغتني أشواق والدي وأهلي وحالتهم ، وحدثتني عن مواقف بعض أصدقائي وجيراني ، وحمدت الله على تكشف حقائقهم ، ففي المواقف والشدائد تتكشف أخلاق الرجال لتحكي معادهم ، أحسست التعب في عيني أم محمد من طول الرحلة فقد عاشت أسبوعاً قبل السفر في سهر وشد عصبي وتعب جسدي من طول الوقوف أمام مبنى السفارة ، والتعامل الفظ من قبل رجال الاستقبال الخارجي بالسفارة الأمريكية بالرياض ، حدثتني عن ولدي «محمد» الذي يبلغ من العمر عامين وعشرة أشهر ، وعن بنتي «وسن» التي أتمت الشهرين وقد تركتها في خامس يوم من عمرها ، حدثتني عن أشياء وأشياء كثيرة ومضت تصبرني وتطمئنني وتسليني بكلامها الرقيق .

استمرار المرافعات...اليوم الثالث



صباح يوم الأربعاء لبست ملابسي التي أحضرتها أم محمد ، ذهبنا معاً إلى مكتب الدفاع الفيدرالي يدي بيدها ، لا نصدق أننا التقينا وأنا نسير مع بعضنا ... أم محمد خائفة على الرغم من محاولتها زرع الصبر في حديقة قلبي ، وتظاهرها برباطة الجأش ، كان بانتظارنا العم مساعد والعم سعود والصدیق أسامة والمحامية ومساعدها ، وبعد أن تبادلنا التحايا انتقلنا إلى قاعة المحكمة ولما تكامل الجميع وحضرت القاضية، وتباحث فريقا الدفاع والادعاء مع القاضية في زاوية المباحثات بقاعة المحكمة، أخذ كلا الفريقين مكانه وأذنت القاضية بإدخال فريق هيئة المحلفين.

استأذن ممثل الادعاء العام في استدعاء شاهده الأخير، ضخم الجثة كبير الرأس مربب الشكل عمل مدة عشرة أعوام ضابطا بشرطة ولاية ماساسوسيتش ومسؤول عن إتلاف المتفجرات بمطار لوغان منذ ثمانية أشهر تقريباً، يقول الشاهد جاني يوم السبت ٣ / ١ / ٢٠٠٤ طلب من مسؤولي الجمارك بالصالة الدولية بمطار لوغان الدولي؛ لإعطاء الرأي بحسب خبرتي الفنية في مجال المتفجرات في ثلاث عينات صفراء اللون صغيرة ، الحجم مكتوب عليها باللون الأسود بعض الأرقام والرموز K0201 وجدت في حقيبة المسافر عصام المهندس أثناء تفتيشه بواسطة أحد المسؤولين، وبعد معايتتي إياها عرفتُ أنها خليط من الفسفور والأملاح الكيميائية -بيروتكنيكل Pyrotechnic Mixture ولأنأكد من ظنوني أخذتُ العينة إلى مدرج المطار وقمتُ بإشعالها فاشتعلت حالماً لا مست عود الثقاب ثم انطفأت سريعاً، وقام بتعريف المواد المتفجرة أو الحارقة بحسب قاموس ويبستر Webster «أي مادة تحتوي أو يحتويها

وعاء قابل للانكسار يتضمن مادة صلبة أو سائلاً قابلاً للاشتعال وفتيلاً يتكون من أية مواد عندما يقدح فإن لدى الفتيل القدرة على حمل الانقذاح إلى السائل أو المادة الصلبة القابلة للاشتعال ويمكن حمله بواسطة شخص وحده أو رميه بواسطة شخص واحد منفرداً».

أخذ يعيد ويزيد ويتلاعب بالمصطلحات الفنية ولما انتهى وجاء دور المحامية البارعة سألته بعض الأسئلة في إحداها قالت له: أنتشبه العينات التي رأيت وجربت أنتشبه في شكلها الخارجي المفرقات النارية العادية؟ أم أنها بالفعل تشبه أقلام التلاوين الشمعية؟ وأين صنعت؟ وهل قمت بالاتصال بالشركة الصانعة لتستفسر عن ماهية المادة وآثارها الاشتعالية؟ وعن مدة الاشتعال؟ ويا للعجب كيف تقلص الضخم المتكوم على الكرسي وتغيرت ملامحه.. واحمر وجهه.. وانتفخت أوداجه، سألته المحامية الذكية عن كمية المسحوق ووزنه بالجرام؟ فلم يعرف بالضبط في حركة متعمدة خبيثة لإيهام هيئة المحلفين بأن الكمية كبيرة، وأنى يذهب؟ وأنى يراوغ؟ فهو أمام محامية محنكة وعلى الفور قالت: أهي في حجم ملعقة الشاي الصغرى؟ فقال مجرباً محرّجاً: بل إنها أقل في كميته، سألته عن مدة الاشتعال فقال: إنها مدة زمنية قصيرة لا تتجاوز ثواني معدودة ولم يحدد بالضبط، طلبت منه قراءة التعريف السابق، ثم علقته على ما قرأه تعتبر الشمعة قابلة للاشتعال ومن الممكن أن تؤدي إلى إشعال حريق فهل يمكن إدخالها ضمن التعريف؟ وكذلك السيجارة، وجاءت إجاباته ركيكة لا تستند إلى حقائق علمية، وإنما اكتفى برأيه الشخصي وخبرته العملية، السؤال الأخير الذي سألته البارعة عن علبة الثقاب - الكبريت - وولاعة السجائر أليس من الممكن حملها بالطائرة

دون استخدامها فكان رده النفي بحسب الأنظمة، فأشارت إلى بعض الإحصاءات الصادرة عن مطار بوسطن تبين نقيض شهادته واكتفت المحامية بأسئلتها تلك ، لتبيان بعض النقاط لهيئة المحلفين، وسبحان من ألهمها هذه الأسئلة الذكية.

وبنهاية استجواب الشاهد السادس يستعد الدفاع ممثلاً بالسيدة المحامية طلب شهودها شهود النفي ، واستأذنت بطلب شاهدها الأول المواطن الأمريكي، حكى الشاب قصة الرحلة من فرانكفورت إلى بوسطن وسلوكي أثناء الرحلة وتصرفاتي وما دار من نقاش بيني وبينه مداره طبيعة أعمالنا ووظائفنا التي نشغلها، تحدث عن موقف طريف أهبج من بقاعة المحكمة، حصل الموقف عندما حان موعد الغداء بالطائرة المتجهة إلى بوسطن قمت وقتها بإعطائه قطعة الدجاج التي من نصيبي ، وأتذكر سعادته وغبطته، إنه موقف عادي وذكره لهذا الموقف أمام هيئة المحلفين دليل طبيته ولطفه، أهم ما في شهادته أنه لم يلاحظ قيامي بحركات تدعو للريبة والشكوك، وأن مغادرتي مقعدي لدورة المياه وأخرى لإحضار ورقة حجز الفندق حتى يقوم بإرشادي إلى الوسيلة المناسبة التي تأخذني إلى مقر الفندق .

استدعت المحامية الشاهد الصديق أسامة عباس تميزت شهادته بظرافتها وخفة ظلها وإجابته الجميلة التلقائية، عرفني أسامة مدة تقارب تسعة أعوام ، وتربطني فيه علاقات حميمة، ذكر أسامة لهيئة المحكمة ما يعرفه من خلال احتكاكه عن قرب كونه المشرف المسؤول عني مدة أربع سنوات سابقة.

تقدم الشاهد الثالث البروفيسور الخبير، ذكرني بأساتذتي بالجامعة طويل القامة أقرع وسط الرأس خفيف شعر الأطراف أبيض البشرة، هادئ الطبع ذو أسلوب مقنع قوي رصين، على عينيه نظارة توحى بشخصية علمية متمرسة، أعطى البروفيسور مقدمة عن المتفجرات والمفرقات والألعاب النارية ، وعن خبرته العلمية مصمماً ومصنّعا واستشاريا لأكبر المصانع في العالم في مجال الألعاب النارية ، وجه البروفيسور حديثه للمحامية...قرأتُ الخبر المنشور عن الحادثة في الصحف صادقة فقمْتُ بإرسال بريد إلكتروني عبر شبكة المعلومات إلى الشركة الصانعة ، لأستفسر عن ماهية ونوع المواد من باب الفضول العلمي لا غير، ولم أتصور أنني سوف أشهد في هذه القضية، شرح البروفيسور شرحاً مستفيضاً واضحاً في طياته ردود علمية موثقة على ما قاله خبير الادعاء - الشاهد الأخير-، استغرقت شهادة البروفيسور أكثر من خمس وأربعين دقيقة، وهنا عرض الادعاء بعض الأوراق والتحليل المخبرية، فاعترضت محاميتي كونها لم تتطلع عليها من قبل ، ليتسنى لها أخذ رأي الخبير البروفيسور، وطلبت مزيداً من الوقت ، وإن استدعى الأمر تأجيله إلى غد الخميس .

حانت فترة الغداء.. وانطلقت المحامية مع البروفيسور إلى غرفة لها بنفس المحكمة لقراءة ، الأوراق وليبدي الخبير رأيه فيها.. سارت المحامية في عجلة من أمرها تسابق الوقت وسرنا نحن لأداء الصلاة .

أصر الصديق أسامة - بعد الصلاة - على دعوتنا لتناول طعام الغداء معا بمطعم رد لبستر Red Lobster الواقع بمتتصف المسافة ما بين

محكمة جون جوزيف موكلي ومكتب الدفاع الفيدرالي، والمشهور بتقديم طبق سرطان البحر والحبارة وشربة الفواكه البحرية، حقا إنه مطعم جميل، جلسنا مع صاحبه فأعطانا نبذة عن سرطان البحر الذي تشتهر به بوسطن.

عدنا بعد ساعة إلى قاعة المحكمة، استعداداً لاستئناف مجريات القضية فوجدنا في استقبالنا المحامية والبروفيسور والابتسامه تملو نغريها ، قالت: المحامية ليس فيما قرأنا شيء يستحق الاهتمام أو الرد عليه وسأكتفي بما طُرح ونُوقش، ولما تكامل الجميع ..جلس الخبير على منصة الشهود لأقل من عشر دقائق مجيباً على تساؤلات الادعاء.

سمحت القاضية لفريق المحكمة الفني والمسؤول عن الاتصال عن بعد ليجري الاتصال بالسعودية، أحضرت أجهزة الاتصال إلى قاعة المحكمة شاشة كبرى وآلات النقل والاتصال وأجهزة التحكم، بدأت محاولات الاتصال بمدينة الرياض عبر الشبكة ، وعلى ما يبدو أن هنالك خللاً ما إنها الثالثة عصرًا بتوقيت بوسطن، الحادية عشرة ليلاً بتوقيت الرياض.. بدأ الفريق الفني يفقد صبره وبدأ القلق يتسلل إلى قلبي بعد محاولة الاتصال الخامسة عشرة وما أحلكها من ساعات عصيبة.... إن السفارة الأمريكية بالرياض هي من رفضت منح الأخ الصديق ورفيق المحنة محمد الحيان تأشيرة السفر إلى أراضي الولايات المتحدة الأمريكية، وحاول الادعاء مراراً رفض المقابلة عبر أجهزة الاتصال الفضائي، وكم عانت المحامية من إقناع القضاء! فالرفض جاء من قبل الحكومة الأمريكية ممثلة بالسفارة ولم يكن من الشاهد- المهندس محمد الحيان- نفسه والذي حرص على وجوده

ضمن قائمة الشهود التي قدمها الدفاع لهيئة المحكمة.

جعلت أنظر إليهم وإلى محاولاتهم... أجرينا عدة اتصالات هاتفية بالزملاء في الرياض الذين بذلوا من وقتهم ودعمهم اللا محدود لإنجاح هذا اللقاء ، فقد أكدت توصيات المسؤولين بالدعم اللا محدود ، وأكد الزملاء لنا جاهزية المعدات على أرض المملكة العربية السعودية بمدينة الرياض ، وأنها على أتم الاستعداد وأفضل حالاتها الفنية والتقنية، قام الفريق الفني بالرياض بإعطاء الفريق الفني الأمريكي بعض الإرشادات الفنية، وفي المحاولة الخامسة بعد العشرين سمعتُ أصوات الفريق الفني السعودي، وخلال دقائق رأيت زملائي ومن بينهم محمد الحيان ، رأيت شقيقي يوسف ورأيت الأعبة، جرى تبادل السلام والتحايا وأخلص الأمنيات.

أُستدعيت - على الفور - القاضية وفريق هيئة المحلفين بعد مضي خمس وأربعين دقيقة من المحاولات وكان فرج الله، علقت القاضية التقنية تسهل الأمور وتقرب المسافات، وربما تتسبب في مواقف محرجة، طلبت المحامية الإذن لتبدأ بتوجيه أسئلتها لشاهدها السيد محمد ، الحيان ولم يخف على من بقاعة المحكمة سرور القاضية وغبطتها لظهورها على شاشات أجهزة البث الفضائي، أمرت القاضية بخروج جميع من بقاعة المقابلة بالرياض ، وألا يبقى سوى الشاهد ثم قالت موجهة كلامها إليه: نحن بصدد القضية رقم 04-40001 المقامة من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ضد السيد عصام محمد المهندس، وقد طلبك الدفاع شاهداً في قضيته، بدأ المترجم يقول القسم وصديقي يردده وبدأت المحامية توجه الأسئلة للسيد الحيان... تدور أسئلتها حول رحلتنا وكيف التقينا ومن قام بإيصالنا

إلى المطار وعن تصرفاتي ونقاط التفتيش التي مررنا خلالها، اتسمت المقابلة أو الشهادة بالطرافة فتارة يتحدث باللغة الإنجليزية ، وتارة يتحدث باللغة العربية مما جعل القاضية في حيرة من أمرها... ولكنها فيما يبدو أرادت تركه على راحته.

إن الذي جعل السيد الحيان يتنقل بين اللغتين؛ هو سوء ترجمة المترجم وافتقاره إلى كثير من تراكيب الجمل العربية الصحيحة، أو ترجمتها الصحيحة إلى الإنجليزية.

وبنهاية يوم الأربعاء الزاخر بالأحداث والمجريات المثيرة تارة والملففة تارة، والظريفة تارة أخرى، خرجنا معاً أنا وزوجتي برفقة والدها وأخيه وأسامة والمحامية -التي أيدها الله تأييداً مظفراً- وبعدها ابتعادنا مسافة آمنة عن المحكمة سألتُ المحامية عن انطباعاتها ومشاعرها تجاه القضية وجاءت إجابتها غير واضحة واكتفت بقولها «الأمور تسير وفق نسق جيد»، من خلال احتكاكي بالمحامية عرفت أنها تحب التركيز على الواجب ، وترك النتائج إلى حينها، لمت نفسي على سؤال فمسبب الأسباب هو من يسر لي الأحداث ، وأحق بأن يُسأل وحمدت الله كثيراً على النتائج، وحينها وصلنا إلى المكتب وأخذنا قسطاً من الراحة، طلبت المحامية أن تجلس مع السيد أبي ريجان -عم زوجتي- ولما انتهت اللقاء معه طلبت زوجتي أم محمد.

وعند السادسة والنصف تقريباً اتصل العم مساعد من الفندق بعد أخذ قسط من الراحة وأخبر مساعد المحامية أنه والصدىق أسامة في طريقهما إلى المكتب، طلب المساعد مني النزول من المدخل الخلفي للمبنى لفتح

الباب لها فالباب الرئيس للمبنى يقفل بعد ساعات الدوام الرسمي، ووقت أنتظر ومضى وقت ولم يصل الوالد مساعد أو الصديق أسامة، أسندت الباب حتى لا ينغلق ووقفت أنتظرهما خارج المبنى، وبينما أنا على هذه الحال أبصرت سيارة شرطة بها شرطيان تتجه في طريقها نحوي ولما وصلت بمحاذاتي صاح أحدهما متجهاً صوبي مترجلاً من سيارته ماذا تفعل أمام هذا المبنى؟ ولماذا الباب مفتوح؟ لقد هلعُت من طريقة كلامه فصوته كالرعد شدة، خفت أن يأخذني معه في السيارة ويودعني بالحجز دون علم محاميتي لأدخل في دوامة اتهامات أخرى، أخبرته خبري.. سألتني عن محاميتي فأجبت أنه بالدور الثالث في مكتبها، انطلقت أمشي أمامه وهو من خلفي وتوجهت إلى المساعد فشرح للشرطي ما حصل واعتذر مما جرى وبيّن له أنه هو من طلب مني النزول .

غادر الشرطي حين اقتنع وعرف صدق قولي، تصببُت عرقاً في هذا الجو البارد وهأنذا أخوض غمار موقف عصيب آخر، ولما حضر والد زوجتي والصديق فتح مساعد المحامية الباب لهما خوفاً من وقوع ما ليس بالحسبان، فرغت زوجتي السابعة مساءً من لقائهما مع المحامية وانطلق الوالد أبو مبارك والعم أبو ريجان والصديق أبو محمد إلى الفندق وانطلقت مع رفيقة الدرب أم محمد إلى شقتنا، حدثتها عما جرى لي وتحدثنا عن القضية ومجرياتها، فأم محمد قلقة بشأن صعودها على منصة الشهود... مصدر قلقها حياؤها وتربيتها الظاهرة.. فكيف ستواجه الجمع الغفير من الناس؟! ونظرات الكل تحديق فيها، إنه موقف صعب غير أنها متحمسة لهذه الخطوة لوعيتها بأهميتها.... جلسنا معا وتحدثنا طويلاً حتى غلبنا النوم.

اليوم الرابع في المحاكمة



صباح يوم الخميس تجهزنا وانطلقنا إلى مكتب الدفاع التقينا جميعاً بالسيدة المحامية تمام الثامنة وخمس وأربعين دقيقة ومشينا إلى المحكمة دخلنا قاعة المحكمة وجدنا ممثل الادعاء ومساعدته قد سبقانا .

تبادلت المحامية مع ممثلي الادعاء الحديث حول القضية، أسندا بجانبها لوحة من الفلين بغرض عرضها على هيئة المحلفين، فالיום هو الأخير ولم يتبق إلا زوجتي أم محمد وعمها وعمتها بحسب خطة المحامية ثم الختام، قرأت المحامية ما هو مكتوب على اللوحة وأبدت استياءها مما كتبه المدعي العام معترضةً على بعض فقراتها، جلسنا جميعاً إلى جانبي المترجم كما جلس المدعي العام على منصتيهما يتهامسان، وجلست أتفكر في الأمر.... سبحان الله على مدى أربعة أيام تتصدر المحامية مواجهة ومجابهة رجلين، وتقوم بالرافعة وحدها دون مساعدة، بينما يتناوب الرجلان دور الادعاء العام ومع ذلك أخرجتهما، ودوختهما بكثرة اعتراضاتها، أخرجتهما، بحجتها المقعمة بالمعلومات المفحمة بردها وعرضها المنقح، وسبحان من أنطقها وهياً وأعطاها القوة والصبر وسرعة البديهة والفهم المتيقظ! وسبحان من أمدها بالنشاط والحماس الوقاد!

وقبل دخول القاضية وفريق هيئة المحلفين التفتُ إلى المترجم مداعباً له فحدثته باللهجة اللبنانية « صاحبي بديش إياك تنام اليوم، لك بدني إياك صاحي»، وكنت أستحنه على اليقظة والتنبيه .

دخلت القاضية وهيئة المحكمة ومساعدوها وهنا انتهزت المحامية الفرصة فطلبت القاضية في اجتماع بالمنصة الجانبية Side Bar، ولما

فرغت من حديثها الذي جمع كلا الفريقين الدفاع والادعاء.. حمل الادعاء لوحته غاضباً، ولم تكتف بمجرد حذف بعض الفقرات ، وإنما استحثت القاضية فأمرت بقطع الجزء المحتوي لتلك الفقرات وكنت أرى وجهيها يتلونان بألوان الغيظ والامتعاض والسخط وعدم الرضى، بينما رجعت المحامية إلى مكانها هاشة باشة، ولما أذنت القاضية بدخول هيئة المحلفين ووقفت المحكمة إلى أن أخذ أعضاء الفريق مواضعهم، استأذنت المحامية البارعة باستدعاء شاهدتها، شقت أم محمد طريقها نحو منصة الشهود في ثياب وشموخ وعزة وكبرياء ، وجلست جلسة الوثائق المطمئنة بنصر الله وتبنيته، وأخذت المحامية تطرح عليها الأسئلة وأم محمد تجيب عبر المترجم الذي أوقفته واستوقفته مراراً وتكراراً لتعثره في الترجمة الصحيحة، تمثلت شهادة أم محمد كونها فنانة تشكيلية من الطراز الهاوي، وانبهرت هيئة المحكمة بلوحاتها التي أحضرت جزءاً منها كما أحضرت الأدوات المستخدمة في رسمها للوحاتها المتميزة ومن ضمنها أقلام التلاوين الشمعية فأذهلت جميع من بالمحكمة!!! لأنها بالفعل تشبه المواد التي أُستخرجت من حقيبي، تشبهها بشكلها الخارجي مع اختلاف حجمها فتلك المواد صغيرة الحجم مقارنة بالتلاوين الشمعية.

تضمنت شهادة أم محمد استعراض أسماء جميع من زارنا قبيل ليلة السفر وترتيبها حقيبي قبل مغادرتي بيومين، وجاء الدور لفريق الادعاء لي طرح أسئلته على زوجتي أم محمد .. بدت رائعة ومقنعة وتلقائية في إجاباتها متماسكة على الرغم من حيائها وخجلها، إنها أم محمد المرأة التي مهما تكلمت ووصفت فلن أفي بشيء من حقها ووفائها ووقفتها.

غادرت زوجتي منصة الشهود، همست المحامية في أذني قائلة سأكتفي بهذه الشهادات وسأستغني عن شهادة السيد سعود وأخته، وأريد إجابتك هل ترغب في الجلوس على منصة الشهود؟ إن القضية فيما يبدو أنها بصالحنا أما لو أخذت الزمام وصعدت المنصة فلأنني أستطيع القول بأن احتمالات النجاح والتوفيق ستحقق أعلى مستوياتها، لأول مرة تصرح المحامية بتفاؤها وتتخلى عن تحفظها وتعلنها بوضوح جلي لقد ارتسمت قسما الفرح على محياها.

التفتُ إلى زوجتي أم محمد وأهلي وصاحبي ولا أنسى نظراتهم الوائية قالت عيونهم: تقدم أبا محمد فإن الله معك ولا محالة ناصرك.

وقفت المحامية لتطلب من المحكمة الإذن لدخول عصام المهندس إلى منصة الشهود، وقفْتُ ومشيتُ إلى المنصة مستحضرا دعوات والدي وإخواني وأهلي وأحبي، وكلّي أمل بتوفيق الله وكلّي ثقة بنصره وتثبته فهو العدل وهو الحق وهو ناصر المظلومين، جلستُ وأقسمتُ القسم.. بدأت المحامية أسئلتها بحوار عن تعليمي من الابتدائية وحتى الماجستير، وعن مشاعري نحو الأمريكان وعملي معهم بمستشفى الملك فيصل التخصصي، وانتقل الحوار إلى جوانب كثيرة من حياتي وسفري واستغرق الحوار خمس عشرة دقيقة.

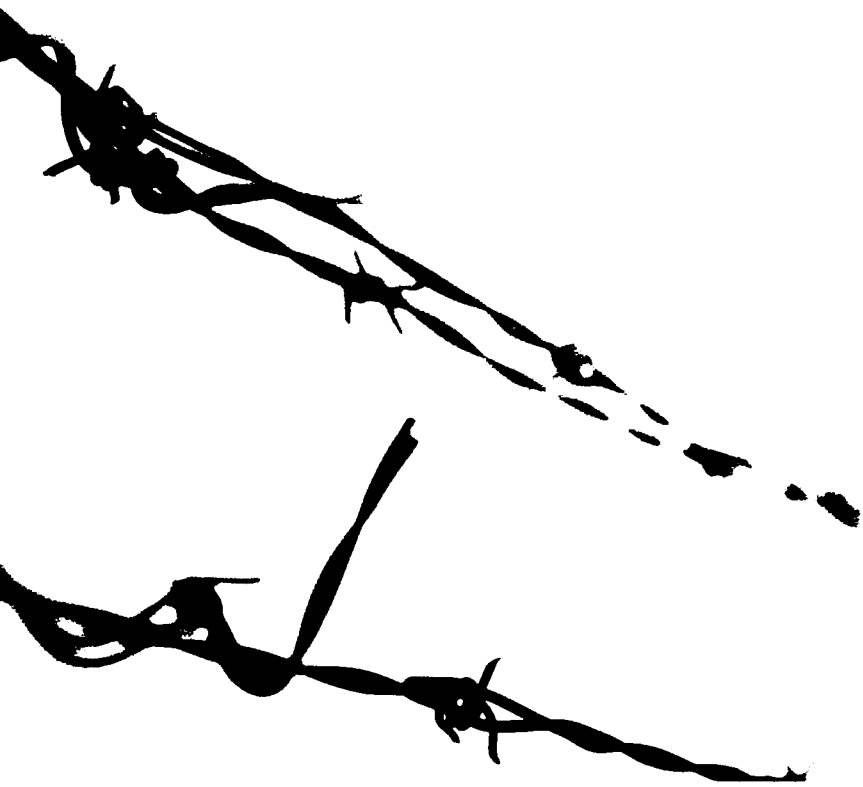
جاء دور المدعي العام، فوقف من نصيبي ممثل الحكومة، واستغرق في حواراته معي أكثر من ثلاثين دقيقة كنتُ الأخير، ويريد كسب اللقاء.. ولما طال الوقت، وأراد الإطالة فيما هو إعادة وتكرار، حذرتُه

القاضية من إضاعة الوقت دون فائدة تذكر عبر أسئلة مكررة بأساليب مختلفة ، واجهت الكثير من الاعتراضات من قبل محاميتي .. وبعد كر وفر ومحاولات كثيرة للتلاعب بالألفاظ والمصطلحات والإيقاع المتعمد، ولكن تأييد علام الغيوب ثم يقظة المحامية له بالمرصاد ، انتهى اللقاء ورجعتُ إلى مكاني، همست المحامية بصوت منخفض رائع عصام.. كنت بحق رائعا، ولم تدر أنه توفيق الله لي في كل حركة وسكنة، في كل كلمة فله الحمد من قبل ومن بعد.

جاءت مراسيم الختام فبدأ فريق الادعاء العام بإعادة تذكير هيئة المحلفين بأهمية المحافظة على سلامة أمريكا والأمريكيين ، وكل من يحاول العبث أو المساس بالأمن فإن مصيره وخيم وعقابه موجع أليم، وأخذ يكيل ويزيد حتى ظننت أنه لا فائدة من تلك الجلسات التي طالت أربعة أيام ودب الخوف بقلبي ، أعيش بين جزر الخوف ومد الأمل وفيض رحمت رب العالمين، كنت أستشعر دعوة والدي وإخواني وأعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي وأصدقائي وزملائي وجيراني وكل المحبين والمتعاطفين الصادقين وكل من سمع بقصتي وقرأ عن قضيتي، وقفت المحامية البارعة.. وجهت كلامها لهيئة المحلفين قائلة إن أحداث القضية عرضت عليكم واستمعتم إلى شهادات الشهود وآراء المختصين واستمعتم إلى صاحب القضية، وأخذت تخاطب العقل والعاطفة في توازن حذر، وفي الختام أعلنت القاضية تسليم ملف القضية لمداوات ومباحثات فريق هيئة المحلفين وبدأت فترة التداول (Deliberation) وبنهاية مراسيم ختام المحاكمة غادرنا قاعة المحكمة .

شكرنا السيد المترجم على جهوده متمنيا لنا التوفيق، وأصر
الوالد مساعد على دعوتنا لتناول الغداء بنفس المطعم الشهير مطعم
(Red Lobster) وأصر على دعوة المحامية ومساعدتها وزميلته،
فحضروا جميعا، رأيت المحامية القديرة في أحسن أحوالها الذهنية فقد
انتهت من قضية جعلت تسابق الوقت، وتفاجئها الأحداث ، لتقلب
الأوراق وتعيد الحسابات والترتيبات.... ولكنها أقدار الحكيم العليم.

القضية بين يديّ المحلفين...وجاء البشير



قالت المحامية: سُلمت القضية لهيئة المحلفين ومن المتوقع حضورهم مساء اليوم الخميس ليقولوا رأيهم بالقضية، ولربما يأتون بعد أسبوع، ومن خلال خبرتي أن مدة التداول والمباحثات نصف مدة المرافعات، وحيث استمرت مرافعات القضية أربعة أيام فإنني أتوقع حضورهم بعد يومين، ومضى يوم الخميس ننتظر حضور هيئة المحلفين، وعند الرابعة والنصف عصراً جاءنا الخبر الأكيد بأن هيئة المحلفين انتهوا من مشاورات ومداولات اليوم، وسيستأنفون جلساتهم غداً الجمعة التاسعة صباحاً.

حضرنا جميعنا يوم الجمعة إلى مكتب المحامية منذ الثامنة صباحاً وفي حوالي العاشرة تم استدعاء كلا الفريقين الادعاء والدفاع، فهיתה المحلفين تستفسر عن التهمة الأولى بسؤال حول حمل مواد متفجرة على متن الطائرة وتمت الإجابة بحسب توجيهات القاضية.. توقعنا سماع رأيهم حول القضية قبل فترة الغداء، وحن الوقت ولم نسمع شيئاً وفي حدود الواحدة والنصف طلبنا مرة ثانية للاستفسار حول طبيعة المعلومات المغلوطة وتم الرد، ولما شارفت الرابعة عصراً اقترح مساعد المحامية وزميلته طالبة الحقوق التقاط بعض الصور التذكارية، نزلنا جميعاً متجهين نحو الأطلسي الذي يطل على مكتب الدفاع الفيدرالي ومحكمة جون جوزيف موكلي التقطنا الصور وأثناء تنزهنا على ضفاف البحيرة غرقت في بحر تفكير عميق حلقاً بفكري أنظر صوب الأطلسي، فإذا بالوالد زوجتي يقول لي يا بُني.. فيم تفكر؟! قلت له لا شيء أبداً، سألني مساعد المحامية أن أترجم له الحوار الذي دار بيننا فقلت له ولا أدري ما الذي أنطقني.... ستسمع خبراً جميلاً وقُدْف في روعي أن فرج الكريم اقترب، وما هو إلا وقت قصير إذ جاء الخبر أن هيئة المحلفين توصلوا إلى قرارهم وعلينا

الحضور لاستماع رأيهم، سرنا جميعاً نمثي لا نسمع إلا صوت أنفسنا
ووقع أقدامنا على الأرض، لم يكلم أحدنا أحدا وصلنا قاعة المحكمة في
دقائق معدودة .

دخلت القاضية وأخذ كلا الفريقين الدفاع ممثلاً بالمحاميه وأنا بجانبها
، وفريق الإدعاء العام ممثلاً بالمدعي العام ومساعدته كذلك السكرتير
الخاص للقاضية ومساعدو القاضية، واحتشدت القاعة بزوجتي
والدها السيد مساعد وأخيه السيد سعود والصدیق أسامة، واكتظت
أيضاً بالصحفيين من جريدة الهيرلد وبوسطن قلوب وغيرهما كما حضر
عدد من محامي مكتب الدفاع الفيدرالي، وفريق من مكتب المباحث
الفيدرالية وشرطة الولاية .

أمرت القاضية بإدخال فريق المحلفين الإثني عشر ستة من الرجال
وست من النساء، تقدم وافد المحلفين أثناء فترة التداول ولما وصل إلى
منصة القاضية سلمها الورقة التي كتبوا فيها قرارهم مغلقة وعاد إلى
مكانه، عيناى تراقب الموقف بل كل حواسي.. شكرت القاضية كلا
الفريقين الادعاء والدفاع على سرعة إجراء المحاكمة، والتي استغرق
الإعداد والترتيب لها من بدايتها إلى نهايتها ثمانية أسابيع ترتيباً وتنسيقاً
وانتهاءً، وشكرت جميع من سهل الإجراءات لتظهر بالمظهر الذي بدت
فيه، قدمت شكرها الغامر لأعضاء هيئة المحلفين لمجهوداتهم التي دامت
أسبوعاً، ثم تناولت القاضية الورقة المطوية التي قدمها العضو المتدب
لهيئة المحلفين من المنضدة أمامها، وأخذت في فتحها تسمرت بمكاني كما
أنفاسي داعياً الله الكريم من أعماق قلبي ...

رفعت القاضية صوتها قائلة:

أجمع فريق هيئة المحلفين أن السيد عصام المهندس إزاء التهمة الأولى: حمل مواد متفجرة على متن الطائرة.

غير مذنب .

كما أجمع فريق هيئة المحلفين أن السيد عصام المهندس إزاء التهمة الثانية: الإدلاء بمعلومات خاطئة عمدا لمسؤول الجمارك.

غير مذنب .

وهنا سمعت صرخة زوجتي ممزجا بالبكاء، قمت من مكاني وخررت ساجداً على الأرض سجدة شكر لله رب العالمين سجدة عرفان على آلائه ونعمه وفيض كرمه الغامر، غطت دموع الفرح وجهي في منظر مؤثر محاطاً بأنظار الجميع. لم تمتلك القاضية دموعها فخرجت مسرعة من قاعة المحكمة، تحققت رؤية المتدربة طالبة الحقوق التي أراها الله إياها في منامها، رأيت نظرات وسمعت كلمات هيئة المحلفين المتعاطفة تعبر عن نبل مشاعرهم، السيدة المحامية البارعة لم تمتلك نفسها ، وكذلك الوفية الغالية زوجتي أم محمد فاحتضنا بعضنا، ورحنا في موجة من البكاء .. بكاء الفرح والحمد لله على منته وإحسانه وتمام نعمته علي، واحتضنت والد زوجتي وعمها وصديقي أسامة ومساعد المحامية تلقيت التهاني من محامي مكتب الدفاع الفيديرالي الذين حضروا قاعة المحكمة.

اتجهت صوبي الصحفية السيدة لا. ورنس الكاتبة بجريدة الهيرلد اليومية إحدى أكبر وأعرق الصحف بالولاية، أدليت بتصریحاتي وبها أحسستُ من ظلم وصرحتُ المحامية التي لها الفضل بعد فضل الله سبحانه وتعالى تذكر الصحافة بما قالته سابقا عن براءتي.

اتجهتُ نحو السيد المدعي العام محيياً إياه ومساعدته، الذي وجه كلامه نحونا «لقد تركناك حتى تذهب وتربي أطفالك» !!! تركنا وخرج سريعاً يجر أذيال الخيبة والحسرة، قرأت ذلك جلياً على قسماات وجهه فلا تكاد معالمه تغيب عن ذاكرتي .

تحلى المدعي العام بروح طيبة رغم ما أبدى من إصرار بكره وفره ومحاولاته المضنية لإلصاق التهم في قاعة المحكمة التي جمعنا قاعاتها مدة المحاكمة وحتى صدور الحكم ولكنه رغم كل ما حدث كان لبقاً في اعتذار ضمنى قائلاً « كنت أؤدي عملي وليست لدي نوازع شخصية سلبية تجاهك أتمنى لكم حياة سعيدة »، بادلته الأمانى بأحسنها وأطيبها وقدمت له الدعوة لزيارة بلدي بلد الأصالة بلد السلام، والتي عرفها وعاش على أرضها فترة من الزمن كما أخبرني نفسه.

لم يصبر والد زوجتي فاتصل بوالديّ وبجميع أهلي يزف إليهم الخبر والبشرى، وانطلقت مع المحامية إلى مكتب المحكمة لإزالة السوار المحيط بمعصمي سوار جهاز المراقبة الإلكترونية والذي لازمني طيلة خمسة أسابيع سابقة.

انتهت المحاكمة وانتهت المعاناة وأعلنت البراءة وجلجل الحق أصقاع الكون الأرحب ورد الله كيد الكائدين، لم ينالوا إلا حسرة وكمدا وظل السؤال الحائر باقيا من تراه الفاعل؟ من اليد الأثمة التي دست؟ من النفس الحاقدة التي حاولت دفعي في برائن الخطيئة بلا ذنب؟ انتهت المحاكمة ولم يقاض ولم يحاسب من وضع المواد في حقيتي، ولكنني أفوض أمره على فعلته التي كدت أزج على إثرها غياهب السجون، نعم أفوض أمره لله تعالى يوم الحساب.. إلى الله تعالى يوم الحساب.

خرجنا جميعاً خارج أسوار محكمة جون جوزيف موكلي وفي طريقنا التقيت ببعض أعضاء هيئة المحلفين، علق أحدهم -ممازحاً لنا- اذهبوا إلى بلدكم واستمتعوا بحياتكم، خارج المحكمة التقطت آلات الصحفيين صورنا قالت لي المحامية الفاضلة: أنت حر طليق افعل ما تشاء وتجنب إجراء حجوزات الطيران إلى لقائنا يوم الاثنين لإصدار صك البراءة وتحصيل مبلغ الكفالة، ذهبنا جميعاً إلى مكتب الدفاع الفيدرالي برفقة المحامية وطالبة الحقوق، أما صديقي أسامة عباس والعم سعود الريحان فودعناهما برفقة مساعد المحامية إلى المطار، لقد أصرا على البقاء وعدم الذهاب حتى يسمعا الخبر ويشاركانا الفرحة وكان لهما.

ودعنا السيدة المحامية القديرة متمنين لها نهاية أسبوع سعيد خال من المنغصات، وذهبت مع زوجتي ووالدها نجوب شوارع بوسطن مشياً على الأقدام، بعده ذهبنا إلى الفندق الذي يسكنه الوالد مساعد قضينا بعض الوقت معه فرحين مسرورين، وحينما شارفت العاشرة مساءً بتوقيت بوسطن استأذنتُ والدنا في الذهاب إلى شقتي، أشار علينا

بقضاء الليلة معه فبينت له رغبتى في حزم حقائبنا وتسليم الشقة ومن
الغد نجتمع بالفندق عنده إلى يوم الإثنين ، موعدنا مع المحامية، لإنهاء
ما تبقى من الإجراءات وعمل حجوزات السفر إلى بلدنا الغالية، صاحبنا
الوالد الحنون إلى باب الفندق مكرراً رغبتى في المبيت معه ، ولم يشأ الضغط
على إرادتنا، ودعنا على وعد اللقاء صباح الغد .

الاعتقال الثاني ماذا حصل فيه؟!!



غادرنا قافلين إلى حيث نسكن ولأول مرة أشعر بالجوع ورغبة في الأكل منذ شهرين تقريباً، انطلقتُ مع زوجتي بعد تناولنا طعام العشاء إلى شقتنا بالقرب من مركز التسوق الكبير البردينتال (The Perdental) حدثتها عن المركز ووعدها بنزهة فيه .. قلت لها سبحانه الله يشاء المولى يوم إطلاق سراحني تحت الإقامة الجبرية يوم الجمعة ويوم إعلان براءتي يوم الجمعة .. فله الحمد والشكر، مررنا في طريقنا بأحد محلات التموين القريبة من الشقة وسرنا في سعادة وفرحة غامرة إلى الشقة.

إن الشوارع ما تزال تعج بحركة المشاة والسيارات، ويبدو أن الناس هنا تحتفي باستقبال إجازة نهاية الأسبوع بالسهر والصخب، مررنا بعدد من السكارى والشباب الذين يجوبون الشوارع لا لشيء إلا لتضيق الأوقات، فتحت باب شقتي وإذا بجرس الهاتف، جاءني صوت أحد الأصدقاء يهنئني على البراءة وظهور الحق ويشاركني الفرح، وبعد انتهاء المكالمة دق جرس الباب .. قلقْتُ بعض الشيء .. وأخفيتُ مشاعري عن زوجتي .. إنني لا أتوقع أحداً يزورنا ولا أعرف أحداً، ربما يكون بعض العابثين المتسكعين من المارة .. الساعة تشير إلى الواحدة ليلاً!! وما هي إلا لحظات حتى سمعتُ جرس الهاتف .. رفعتُ السماعه فإذا بصوت يأتيني من خلف باب الشقة أمراً بفتح الباب حالاً، فتحتُ الباب فإذا بسبعة أشخاص يشهرون مسدساتهم في وجهي، رفعتُ يداي وعيني على زوجتي التي أفرعها الموقف أشد الفرع، إنه موقف لم أر مثله في حياتي إلا في الأفلام السينمائية الهوليوودية، وليس لأعزل مثلي ...

- ماذا فعلت ؟! لقد ظهرت براءتي اليوم .

- لدينا أوامر باحتجازك نحن بانتظارك منذ السادسة مساءً!!
لم أعرف من هم.. أمروني بالانطلاق معهم، أعطيتي محفظتي لزوجتي
ولما هممتُ بالذهاب رنّ جرس الهاتف.. رفعتُ الساعة ...

- السلام عليكم من؟ أخي يوسف.

- حمداً لله على سلامتك يا أخي ..

- أرجوك اتصل بالمحامية وأخبرها بأن سبعة أشخاص لا
أعرف هوياتهم احتجزوني مرة أخرى وزوجتي وحدها بالشقة و ..

سُحبت ساعة الهاتف مني وضعوا الحديد في معصمي..زوجتي تناديني ..

- ماذا أفعل يا عصام !!! كيف أتصرف !!!؟

لم أنطق بكلمة فقد انعقد لساني وسط تسارع وتيرة الأحداث وشدة
وقوعها على نفسي، أنزلت وأركبت سيارة سوداء مصفحة أخذت تسير
وتسير ثم توقفت أمام مبنى كبير، فتحت الأبواب ودخلت السيارة
فأغلقت الأبواب من خلفها، أنزلتُ منها وأدخلتُ إلى داخل المبنى
حيث أخذت بصماتي وتصويري، جلستُ على إحدى الكراسي فترة من
الزمن بعدها تسلمت ملابس بيضاء اللون، ارتديتها ورجعت إلى مكاني
جالساً لا أدري لماذا أنا هنا ولا ما يراد مني؟! .. انشغل بالي على زوجتي
وكيف ستتصرف؟ وكيف حالها وحالتها من جراء الاقتحام المفجع؟!
لما مضت ساعة أخبرني المسؤول بوجود زائر يريد مقابلتني خطر على بالي
المحامية

- (متفاجئاً) من السيد المدعي العام، ما الذي جاء بك ؟ .
- نعم سيد عصام ..إنني اعتذر عما حصل ..صدقني لست من فعل هذه الفعلة وإنما غيري!! .
- ماذا فعلت زوجتي؟ .
- (وكانه أدرك مقدار الهلع الذي ينهني) لا تقلق .. خرجت زوجتك إثر مغادرتك واتجهت إلى مركز البريدنتال (The Predental Mall)، ومن توفيق الله لها أنها تقابلت مع رجل طيب سلمته بطاقة المحامية فقام بالاتصال بها وبدورها أرسلت مساعدتها .
- أراحتني كلماته حين بلغني أنها مع والدها بالفندق وأنها بخير وصحة .
- الحمد لله كثيراً على فضله، أين أنا؟ وما هذا المكان الذي أتواجد فيه؟
- إنك بإدارة الترحيل، إثر إلغاء تأشيرة دخولك الولايات المتحدة الأمريكية .
- كم سأمضي من الوقت؟ ومتى سيتم ترحيلي؟ .
- سأسعى جاهداً بتعجيل إجراءاتك وأعدك بالسفر غداً السبت إن كانت هنالك رحلة .

وقبل أن يخرج مديده وسلمني بطاقته الشخصية فيها أرقام هواتفه المحمول والمكتب ورقم منزله، اعتذر المدعي العام مرة أخرى وغادر .

مضى وقت قصير حضر بعده شرطي متين الجثة ..

- سأذهب بك إلى العيادة ؟
- ولماذا ؟ لا أشعر بأي عرض صحي .
- إنه إجراء اعتيادي لمن يدخل هذا المكان .

وانطلقنا من فناء إلى فناء ومن مبنى إلى مبنى حتى وصلنا العيادة ، وبعد الكشف عليّ وسؤالي عن صحتي العامة عدتُ معه راجعاً ، وأثناء إقفاله لأحد الأبواب ..

- أنا متأكد بأنك لن تفكر بالفرار مني .
- نظرتُ إليه مبتسماً مردداً ..
- وكيف أهرب منك وأنت تحيطني من كل جانب؟!!

وكنت أعني ضخامة جسمه .. نظر إليّ منتشياً، ثم ضحك ضحكة قوية مستحسننا إجابتي .

قادني إلى صالة كبيرة دخلنا عبرها إلى أحد العنابر، يقطنه أكثر من عشرين نزيلاً، أخذتُ مكاني .. عرفني أحدهم بنفسه - من البرازيل - وأخذنا نتحدث طويلاً، إن الساعة تشير إلى الرابعة فجراً .. لقد بلغتُ مبلغاً من الإعياء والإرهاق .. أسندتُ ظهري إلى السرير الحديدي الذي ذكرني بأيام إصلاحية بيبي ماوث كوريكشينل فاسيلتي كونتي، انتبهتُ فإذا السادسة صباحاً نهضتُ على الفور فتوضأتُ وعليتُ واتجهتُ إلى نافذة تطل على الشارع، جعلتُ أرقب السيارات العابرة على الخط السريع، ما يميز المكان دورات مياهه معزولة عن زنانات الحبس وفي

آخر المرر ساعة وقت حائطية؁ مسؤولي هذا السجن أكتر مرحاً وأقل تشدداً؁ لم تكن هناك قيود حديدية أثناء الانتقال من مكان إلى آخر؁ السادسة والنصف صباحاً حان وقت الإفطار وانتقلنا جميعاً إلى الصالة الرئيسة؁ سُلمت لكل فرد أنية الطعام وجلس الجميع حول موائد تكفي لجلوس أربعة أشخاص معاً يتناولون الإفطار؁ جلستُ معهم ولم تمتد يدي لشيء من محتويات الطعام؁ إنها السابعة صباحاً أمر الجميع بالعودة إلى مواضعهم بعدما تناولوا طعام الإفطار؁ وما كدتُ لأستقر راجعاً إلا وأحد المسؤولين ينادي اسمي انطلقتُ معه.. طلب مني تبديل ملاسبي والانطلاق معه؁ أخبرني بأننا سنذهب إلى مطار لوغان الدولي استعداداً لرحيلي إلى وطني ...

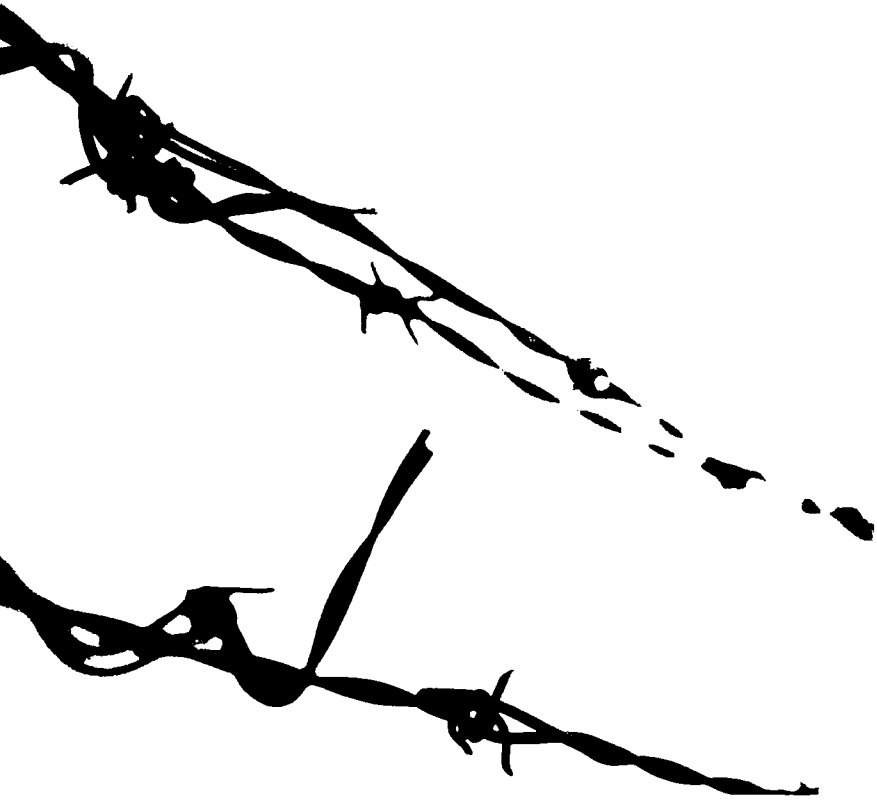
«... لا يدرك قيمة الأوطان إلا من أجبر على مغادرتها قهراً... لا تعتقدي أن الوطن لعبة في أيدينا أو مجرد كلمة ندرجها في خانة صغيرة بجواز سفرنا مهمته محصورة في تجاوز حواجز المطارات والتنقل عبر القارات؁ الوطن أسمى من أن نقامر به؁ سوف تدركين لاحقاً لماذا يضحي الإنسان بروحه من أجله إنها بذر الانتهاء التي تلتصق بأحشائنا وتكبر معنا وتشعرنا بقيمتنا كأدميين إن الوطن يعيش فينا ولا نعيش فيه وفي المقابل نحن نسعى إلى وطن يشعرنا بقيمتنا كأدميين يعيش فيه الإنسان أمنأ فيه على يومه وغده يعيش فيه حياة كريمة...».

زينب حنفي

ركبتُ سيارتهم والقيود حول معصمي وهذه المرة الأولى؁ التي أركب سيارتهم؁ وأحس بالفرح يشوبه شيء من قلق على زوجتي ووالداها

أُنزلتُ من السيارة وعبر صالات مطار لوغان الدولي توجهننا إلى منطقة
الفحص الثانوي التي مررتُ بها لما وصلت في الثالث من شهر يناير
م.٢٠٠٤.

العودة إلى أرض الوطن



بدأ المسافرون يتوافدون إلى مطار فرانكفورت قبل موعد الإقلاع بثلاث ساعات، وبانت الملامح الوضيئة لا تحفى، لقد اشتقت إلى بلدي وكل نسمة قادمة من بلدي، وحين اقترب الوقت اصطفقتنا أمام الموظف ننتظر تسلمنا بطاقات صعود الطائرة، أخذت مقعدي وأُقلت أبواب الطائرة وتوجهت إلى المدرج فسبحت في السماء وحينها تحدث المضيف واستمعنا إلى توجيهات الأمن والسلامة ودعاء السفر يردده الصوت الرخيم تعطره اللغة العربية ، لم أتمالك دموعي فانهمرت على وجناتي وطفقت أكفكفها بمنديل أحمله بيدي إنها دموع الفرح والسعادة.

يستغرق زمن التحليق إلى جدة حوالي خمس ساعات، نزلت على قلبي الطمأنينة والسكينة وأنا في أحضان طائر السعد الميمون بألوانه الصحراوية، .. خلدتُ إلى نوم متقطع فشوقي إلى بلدي وأهلي كانا يوقظاني .

تبقت سويغات قليلة بعدها تضميني أرض الوطن، وتحتضني أرجاؤه فأتنفس هواءه ، وأمتع ناظري بكل منظر بديع حرمت منه بلا ذنب اقترفته يداي..آه كم أنا مشتاق إليك يا وطني! ..كم أنا مشتاق إليك يا بهجة القلب وأنس الحياة!.. سنلتقي بعد طول الفراق.

بينما أنا بين غفوة وصحوة بين آلام لا تبرد لوعتها الأيام وجراح لا تبرى وإن طوتها السنون، أعلن قائد الطائرة تحليقه فوق مدينة جدة الساحل الغربي للمملكة العربية السعودية، ومينائها التجاري في منظر رائع يسلب الوجدان منظر أنوار العروس في ثوبها ثوب النور المتلألئ،

تسمرت عيناى لا تحيد يمنا ولا يسرة، هذه معالم جدة التي عرفتها
ببحرها بميادينها وزحمتها بنافورتها وبكل معلم شامخ يحكي أمجادها إنها
جدة وبهاء جدة آه ما أجملك ، وما أجمل لياليك القمرء المزوجة بهدير
الأمواج !

هبطت الطائرة على مدرجات مطار الملك عبد العزيز الدولي دخلتُ
الصالات عقب جدة وتاريخ جدة وعطر جدة له وقع لا يعرفه إلا من
عرفها وعاش في أحضان أزقتها وحواريها وبساطة أهلها، توجهنا إلى
الجوازات ثم إلى الطائرة الداخلية المتوجهة إلى الرياض قضينا ساعة
وعشرين دقيقة في الأجواء وكانت أطول ساعة في حياتي قبل أن تهبط
الطائرة على بساط نور اللؤلؤ المتناثر رياض الخير رياض الإنجازات،
وحالما فُتحت أبواب الطائرة وسُمح لنا بالمغادرة ركضت أسابق رجلي..
لم تحملني الأرض .. وإنما أسير على أرض الشوق والحنين... تحملني
رياح اللقاء والأفراح.. نعم طال الفراق هذه المرة نزلتُ سلم صالات
مطار الملك خالد الدولي؛ لأستقبل أمامي شقيق الفؤاد أخي يوسف
تعانقنا طويلاً.. وها هو والدي الفاضل، وهاهم أعمامي وعماتي وإخواني
وأصدقائي وزملائي وجميع أهلي ، ترتسم على وجوههم ابتسامات
الفرح الصادق والوفاء الحقيقي الذي لا يعرف تزييف المشاعر ولا
تنميق الكلمات وجاء استقبال حافل بهي، زُفت فيه أجمل الأمانى وأعذب
التهاني وفاح أريج الشوق يعبق بالمكان.

ارغميت في أحضان والدي اللذين ما سكن لسانها من ترديد الشكر
وتساييح الحمد لأهل الثناء والإحسان والمجد، التقيتُ بأصدقائي ورفاق
دربي وأحبي ولا أدري كيف بل وبأي حروف وعبارات أؤمن مواقفهم

فكلمات الشكر عن نبيل صنائعهم قاصرات، جاء لقاءً معبراً لقاء الوفاء
لقاء المشاعر والأحاسيس لقد صمتت الأفواه وتحدثت القلوب، لقاءً
حافل اختلطت فيه الدموع والابتسامات.

وانطلق الموكب الحافل يجوب شوارع وطرق العاصمة السعودية
الرياض، وكانت ليلة في جمالها كليله عرس تُزف فيه عذراء جميلة إلى
عروسها الذي بات ينتظرها بالشوق والوله، ما أجمل الوطن! وما أجمل
لقاء الأهل والأوفياء!.

سرنا في فرح بهيج وهالات أنوار العاصمة الرشيدة الحوراء تلقى
بضيائها ونسمات هوائها طرباً إلى طرب، هدير الموكب السائر نحو بيتنا...
إنها الثانية عشرة مساء يوم السبت، أما زوجتي ووالدها ففي طريقهما إلى
مطار هيثرو (Hethro Air Port) بلندن عاندين إلى أرض الوطن؛
لأكون وأفراد أسرتي في استقبالهما في وقت لاحق من مساء يوم الأحد،
وبعودتهما أُغلقت صفحة من صفحات المعاناة، وأشرقت الأرجاء
بانجلاء حقبه من حقب الظلم الأسود، وأشرقت شمس الحقيقة التي
هاها الزيف والاعتداء السافر فصدحت صرخة مدوية تُسمع كل أرجاء
العالم، وأصقاع الكون الأرحب، بأن أنوار المحبة وأنوار العدالة وأنوار
السلام أفلت وبأنها لن تُشرق من الغرب.

والحمد لله الذي تم بنعمته الصالحات
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

لماذا كتبت هذه السطور؟



إن ما دعاني لامتشاف القلم وخط هذه السطور - بين دفتي الكتاب -
دروس تعلمتها من جامعة الأيام الكبرى، وتجارب استفدت منها في
عراك الدنيا منها ما سوف أشير إليه بوضوح في نقاط محددة، ومنها ما
سوف تجده في ثنايا ذي السطور ...

١- نعم تعلمت ولمست وأبصرت وأيقنت أن من يتق الله يجعل له مخرجا
ويرزقه من حيث لا يحتسب، فقد قواني الله من بعد ضعف وأمتني
من بعد خوف، ورزقني من بعد فقر، لقد آواني ورحمني وسخر لي من
يعرفني ومن لا يعرفني، ليساعدني سواء أكان نصرانيا أم يهوديا، جعلت
أدعو ملك الملوك وهو عز وجل يجيبني ويعطيني (أمن يجيب المضطر إذا
دعاه ويكشف السوء) سورة النمل آية ٦٢، رفعت إليه يدي فلم يردهما حياءً
وكرماً أن يرد يدي عبده إذ رفعهما إليه صفراً.

٢- لقد تعلمت وأبصرت ولمست وأيقنت (إن مع العسر يسرا إن مع
العسر يسرا) سورة الشرح آية ٦، فما غلب قط عسرُ يسرين.

٣- لقد تعلمت وأبصرت ولمست وأيقنت أن من نجى سيدنا إبراهيم
الخليل عليه السلام من النار (قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)
سورة الأنبياء آية ٦٩، وأن من نجى سيدنا ذا النون يونس عليه السلام من
بطن الحوت (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) سورة الصافات آية ١٤٦، وأن
من نجى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم من كفار قريش
والمشركين (إنا كفيناك المستهزئين) سورة الحجر آية ٩٥، فإنه عز وجل
سينجيني من مكرهم وكيدهم وشرورهم.

رُحْتُ أبتهل إليه وعيناي تذرفان مناجيا مستغيثا ربي... ربي..
كما رددت سيدنا يوسف عليه السلام لأبيه وكما رددت سيدنا موسى
الكليم عليه السلام لأمه أن تردني يا سميع يا قريب يا مجيب لأبي
وأمي ألح وأدعوه (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك
من القوم الكافرين) سورة يونس. آية ٨٥ و٨٦، فجاء الغوث أن نجاني ملك
الملوك وقاضي الحاجات من كل هم وغم وجعل عاجل بشراي لقائي
في بوسطن بزوجتي ووالدها وعمها وصديقي، ثم أتم على نعمه وواسع
فضله ومنتهى كرمه فجمعني بوالدي، وولدي وأهلي وصحبي، فله
الحمد والإحسان والفضل والثناء والشكر.

٤- على المسلم ألا يخضع وألا يستكين وألا يعتذر عن عمل مشين لم
يقترفه، إن المسلم صاحب مبدأ لا يغير موقفه من الباطل ولو اجتمعت
عليه قوى الطغيان جميعا، فإن الله ناصره وبالغ أمره ولنا في صبر نبيي الله
محمد ويوسف عليها الصلاة والسلام أبلغ المثل.

٥- ما يفتأ أعداء الله سعيًا حيثًا في تمزيق جسد الأمة الإسلامية واستباحة
بيضتها عبر إشعال جذوة الطائفية البغيضة والعصبية الجاهلية الهالكة.

٦- (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)

سورة البقرة، آية ١٢٠

لقد صرحت بكل صدق وتجرد المحامية البارعة بقولها:
«توافرت فيك شروط مناسبة لخلق قضية أو افتعال مشهد إجرامي جدير

بعرضه على الرأي الأمريكي أنت مسلم عربي سعودي وهذا يكفي لزوجك في هذا المأزق».

٧- على المسلم أن يكون حذراً في هذا الزمان وأن يكون كيساً فطنا وألا يعطي ثقته إلا لمن يستحقها وخاصة خارج وطنه ومجتمعه الإسلامي فهو مستهدف من الأشرار.

٨- إن للمسلم كرامة.. وقيمة.. واعتبار ولكن البعض لا يفقهون ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول (ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً) رواه ابن ماجه وصححه العلامة الألباني.

٩- نحن أحفاد أمة عظيمة وكريمة وخالدة يجب على الآخرين أن يقدروا ويعلموا ذلك وعندما نفرض أمتنا على العالم سوف تُرد لنا هيبتنا وكرامتنا واعتبارنا وذلك بالعلم والعمل والعدل واحترام كرامة الإنسان وتطبيق شرع الله في كل أمورنا وعندها لن يمرؤ أحد في الدنيا أن يلقي القبض على أحدنا بل سيحسب ألف حساب . لا من أجل مادة تشبه ألوان شمعية.

مواقف محفورة في الذاكرة



أذاعت بعض القنوات الفضائية وقالت ما قالت، وكُتِبَ في بعض الصحف والمجلات ما كُتِبَ ونُشِرَ، ثم تحدثت المجالس وتناقلت الأفواه ولاكت الألسن دون تثبت ولا تريث، جاءهم الإعلام الغربي - كبيرهم الذي علمهم - بنبأ فتبادر القوم يتهافتون أيهم أسرع نشرًا، سبق صحفي وخبر خُرَافِي ونسوا بل تناسوا أمانة الكلمة وميثاق الحرف.

(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) سورة الحجرات . آية ٦.

(وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) سورة النور، آية ١٥.

إن المواقف الشديدة والساعات العصيبة لتظهر أفعال الرجال، لتثبت بالقول العملي أنهم رجال، فكم من صاحب أظهر لي أنني صديقه المفدى بالنفس والنفيس في الرخاء وتنصل وقت الشدة!! وكم من إنسان تبين لي صفاء معدنه وإخلاص مخبره وصدق مواقفه!! وجدتُ من جاء بنفسه إلى بوسطن، ليذلي بشهادته أمام القضاء تاركاً خلفه الأهل والولد ولسان حاله من الوفاء سبق لسان مقاله، وجدتُ من سعى جاهداً ليسافر إلى بوسطن قبل ٢٣/٢/٢٠٠٤ م موعد البدء في محاكمتي ولكن تمنع السفارة وهستيريا الأمن - كما أسمتها محاميتي - وقفت عائقاً للحيلولة بينه وبين رغبته الصادقة في المجيء، على الرغم من تعرضه للسجن والتعسف والظلم وإلغاء تأشيرة الدخول، وجدتُ الصادقة نبراته تسفر عنها دمعاته كلما تكلم معي بالهاتف، كلماتهم بلسم شاف دعواتهم وابتهاأتهم في سحر الليل لمستُها، ورأيتُ آثارها في حركاتي وسكناتي كيف لا؟! ودعوة المسلم لأخيه المسلم في ظهر الغيب دعوة مستجابة. فالحمد لله الذي جعل لي في الدنيا من الإخوان الأوفياء من أعرفهم ومن لا أعرفهم، وإن عالم الغيب والشهادة ليعرفهم وأسأله أن يجزيهم خير الجزاء ويثيبهم أحسن الثواب.

تري كيف كان تفاعل الأسرة وموقفهم من الحدث ؟

والدائي وزوجتي وشقيقي وعماتي وأعمامي وبقية إخوتي وأهلي فما أدارك ما حالهم ؟ ما كان الليل ليلاً وما كان النهار نهاراً ليْلهم توجع ودموع، قيام ومناجاة، نهارهم سعي دؤوب ما هنيئ لهم زاد وما طاب لهم عيش، وما استقر بهم مكان، صرخاتهم مكتومة قلوبهم مكلومة، ما سكنت ألسنتهم من ذكر ودعاء، ومع ذلك فالصبر حصنهم الحصين و توكلهم على الحي الذي لا يموت ملازم المتين، يقينهم براءتي وعودتي عاجلا غير آجل، صدقوا الله فصدقهم وأقر عيناي برؤيتهم.

والذي ذلك الرجل.. طيب القلب.. كريم الخصال.. عذب الحديث..
كثير التجارب بحر الخبرات.. الجبل الراسخ.. لم يزدده الموقف الصعب
العصيب إلا تعلقاً برحمة أرحم الراحمين، كثيراً ما يردد حسبي الله ونعم
الوكيل يا بُني، اصبر واستعن بالصبر والصلاة، وأكثر من ذكر الله ولا
تقنط، هذه هي وصاياها... يا بني.. قريباً يأذن المولى بفك أسرك،
وتفريج كربتك وردك سالماً، ذلك هو ظنه ويقينه بخالقه عز وجل ذلك
هو أبي.

أمي الأم الرؤوم.. والقلب الحنون الرحيم.. صاحبة الدمعة المسكوبة..
-فيكفي على الرغم من مرضها منذ أن سمعت الخبر- تحاملت على
نفسها ومرضها، فتخوض زحام بيت الله الحرام -موسم الحج - تتعلق
بأستار الكعبة داعية المولى أن يفرج عني، كانت أمي توصيني عبر الهاتف
بالصبر، وتقول: أسأل الله أن يريني وجهك.. تلك كلماتها ووصاياها
وعباراتها ومنتهى آمال أمي.

كم حاول والدي والدي التخليف عني بيلسم الكلمة وإخفاء
انسكاب الدمعة!! والتي كنت أسمعها في حشجة الصوت المكثوم
والقلب المحموم، فاللهم اجعل ما لقياه من فجيعة وعناء ومشقة برداً
وسلاماً واطمئناناً وثباتاً على قلبيهما الطاهرين، ورفعة لدرجتيهما ونعيماً
ومتاعاً بالجنة (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) سورة الإسراء، آية ٢٤.

فيا رب ارزقني برهما واقذف في قلبي الوفاء إليهما. نعم نجاني الله
إذ نجاني ببركة دعوتيهما في ركوعهما وسجودهما في قيامهما في صحوهما
ونومهما وفي كل نفس طاهر يتنفسانه، فلك الحمد ربّي والثناء والإحسان
يا صاحب الفضل كله والمنة كلها، ولو الادي البر والوفاء... فيا ربّي أعني
ومتعنا بدافئ كنفيهما واحفظهما بما تحفظ عبادك الصالحين.... آمين.

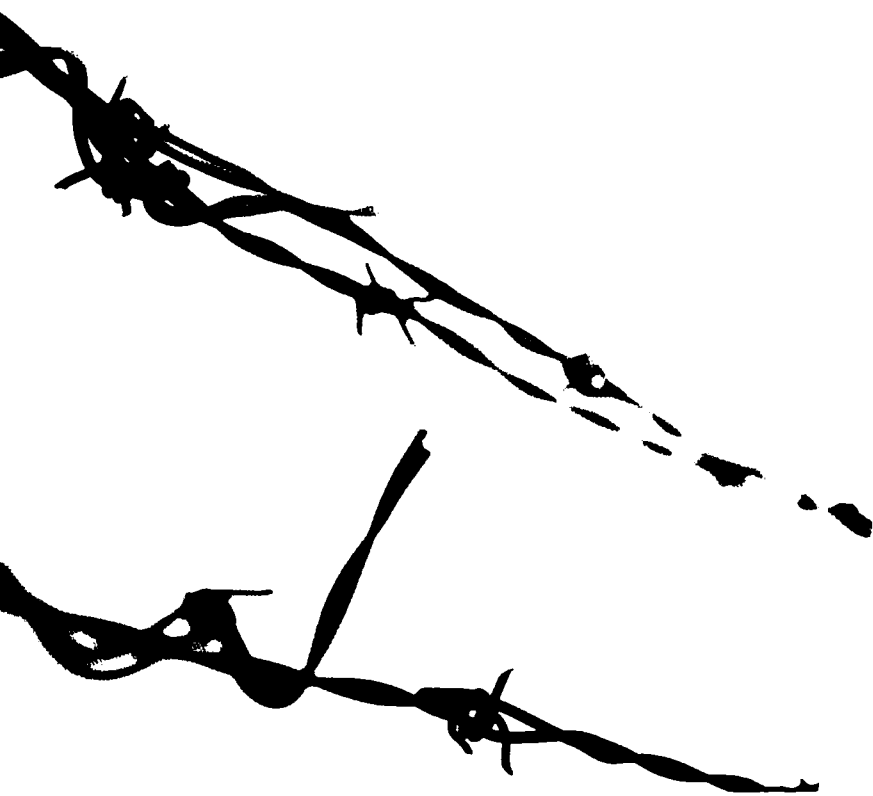
أقف قليلاً عند زوجتي الغالية دنار الجسد... ولباس الروح؛ لأتحدث عن دور المرأة المسلمة في تقديم أنواع الدعم المادي - فقد أتت مفادية نفسها غير مبالية، بما يحصل لها وقد حصل - وأنواع الدعم النفسي والمعنوي، أم محمد ذكرتني بقصة فاطمة بنت سعيد بن المسيب أحد التابعين عندما سألت والدها فقالت: يا أبت قرأت كتاب الله فوعيته غير آية قال وما ذاك يا فاطمة؟ قالت إنه قوله تعالى: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) سورة البقرة، آية ٢٠١ يا أبت حسنة الآخرة هي الجنة فما حسنة الدنيا؟ قال أي بُنية حسنة الدنيا المرأة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في نفسها ومالها، فنعم الزوجة الوفية الطيبة، ونعم الرفقة والصحبة وأسأل المولى كما جمعني بك على هذه البسيطة أن يجمعني بك في دار رحمته ومستقر نعمته (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما) سورة الفرقان، آية ٧٤.

(واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري) سورة طه، آية ٢٩-٣١ أخي يوسف صدق مساعد المحامية عندما غبطني عليك فكم من المتاعب قد تحملت وتكبدت فجزاك الله خير الجزاء، إن ذكريات الطفولة ودنيا الشباب التي عشناها معا لها طعم لا يُنسى، جعل الله أيامك كلها السعادة .

شكر خاص

الدكتور أنسور الجبرقي
البروفيسور أمين كشميري
الدكتور سلطان السديري
الدكتور محمد السمان
الدكتور فتوان المهنا
الدكتور أحمد البراك
الدكتور محمد الحارثي
الأستاذ سعد الحسن
العم عبدالرحمن السريع
العم حسن مغفار
المهندس أحمد صالح
الدكتور محمد أباحسين
المهندس عبدالله الرشيد
المهندس عبدالله الضبيب
المهندس محمد السويلم
المهندس سلطان الرميان
المهندس سلامة رحمة
الأستاذ محمد الشارخ
المهندس رامي حجازي
الأستاذ معدي السريع

رسائل خاصة



١ - إلي مقام سيدي رسول الله صلح الله عليه وسلم

سيدي وحببي يارسول الله يا سيد ولد آدم ياهادي البشرية، ومبعوث الرحمة للعالمية ، كل مصاب بعدك هين.. قلت يا سيدي فصدقت :
(عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته ضراء صبر وإن أصابته سراء شكر وليس ذلك إلا للمؤمن) حديث شريف رواه مسلم .

سيدي وحببي يارسول الله كم سمعت عبر التاريخ!! وكم قرأت عن صحابتك عليهم رضوان الله وهم يفتونك بأرواحهم وآبائهم وأمهاتهم وأهليهم أجمعين، وأنا يا سيدي فرد من أمتك فديتك نفسي ومالي وأهلي، وكل غال عندي يا حببي يارسول الله .

سيدي وحببي يارسول الله إنا على الدرب ماضون وإن نبح النابحون وإن زجر المزجرون، وإن لم يرضوا وإن سخطوا وتأمروا والموعد الحوض -إن شاء الله- من يديك الشريفتين نشرب، من ماء الكوثر أبيض من الثلج وأحلى من العسل ، ونسأل المولى كراماً من جود كرمه وفيضاً من جليل فيضه مرافقتك بالجنة .

فصلى عليك الله يا علم الهدى، ما رفرت الحائم وصلى عليك الله ما تعاقب الليل والنهار وصلى عليك الله أفضل الصلاة وأتم التسليم إلى يوم الدين وعلى آلك وصحبك أجمعين.

كنتُ ومازلتُ في حيرة من أمري فأحبيتُ إشراكك فيما يجيرني،
أحبيتُ أن أسألك عن بعض التعريفات في قواميسكم وبعض المسميات
والشعارات التي سمعتها عنكم ومنكم .

سيادة الرئيس ماذا تعني كلمة الظلم؟ وكلمة الحق؟ وماذا تعني لديكم
شعارات المساواة والعدالة والحرية التي قامت عليها حضاراتكم؟.

ماذا تعني الخديعة؟..ماذا تعني الإهانة وامتهان الإنسان والإنسانية؟

ماذا يعني الذل والإذلال؟ ماذا يعني الاستبداد؟ ماذا يعني التعدي
والاعتداء؟.

وكثير من المصطلحات التي لن تستوعبها صفحتي ويرتفع قلبي عن
كتابتها حرصاً على حس القارئ الكريم.

لا أظنك سيادة الرئيس تملك الإجابة عن أسئلتني هذه، لكنني على
يقين يوماً ما ستقف للإجابة عنها وحدك فأعد للسؤال جواباً وليكن
صواباً فالأجوبة الدبلوماسية لن تنفعك آنذاك.

يا صغاري هذه وصية أبٍ خبر السنين وخاض التجارب الكثير فارعوا
إليّ بسمعكم، ولا تغرنكم الدنيا فإنها غرور وعمّا قريب ستزول.
يقول الحق عز وجل (اعلموا أنها الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر)
سورة الحديد، آية ٢٠. ويقول نبيكم الكريم (مالي وللدنيا ما أنا فيها إلا
كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) حديث شريف عن عبدالله بن مسعود
رواه الترمذي . وقديما قالت العربُ «ما كل بيضاء شحمة وما كل ما يلمع
ذهبا». مثل عربي يضرب لعدم الانخداع بظواهر الأمور والنظر إلى بواطنها

إن الأعداء- مابرحوا- يمحكون ويتآمرون على شباب أمة محمد صلى
الله عليه وسلم شباب الإسلام، الشباب يا بني ويا بنتي عتاد الأمم
ومصدر قوتها وإلهامها وعزها ورفعتها ، فحذار ثم حذار يا أبنائي
من الانجراف في تياراتهم ، وحذار ثم حذار من الوقوع في شركهم،
والانغماس فيما يصورونه لكم من لذات فإنها والله حسرات ويوم
الوقوف بين يدي الله ندامات .

بُنِي لعلك شاهدت بعض من شبابنا يتسابقون في تقليد الغرب في
حركاتهم و كلامهم في لباسهم و كل شيء مشين..

بُنيتي لعلك شاهدت بعض من فتياتنا يتنافسن في السفور، وإظهار ما
نهى الله ورسوله عنه من سيء الأمور مما لا يخفى عليك..

ولكنكما لم ولن تشاهدا شباب وفتيات الغرب قلدنكم.. فلماذا الانهماز
وعدم الاعتداد والاعتزاز بالنفس ؟ لماذا لا نقتدي بأعلام الإسلام
السابقين منهم والمعاصرين ؟ !

أوجه رسالتي مشفقاً ومخذراً ومذكراً ، فالقوة كل القوة والعز كل العز
يأتباع هدي نبيكم، وتعاليم دينكم، فالله الله يحرسكم ومن الشرور
يحميكم.

مرفقات الرواية



القضاء الأمريكي يبرئ السعودي عصام المهندس

بوسطن: أب

براً محلفون فيدراليون
السعودي عصام محمد المهندس
(33 عاماً) من تهمة حمله لمواد
حارقة على متن رحلة كانت قادمة
من السعودية مروراً بألمانيا قبل
أن تحط في مطار لوقان الدولي في
مدينة بوسطن، كما برئ المهندس
من تهمة الإدلاء بمعلومات خاطئة
للمسؤولين الأمريكيين في المطار
أثناء وصوله. وأبدى المهندس
امتنانه لهيئة المحلفين التي
اتخذت القرار ببراءته يوم أول من
أمس.

وكانت محامية المهندس
(مريم كونراد) قد ذكرت أن موكلها
قد تم استهدافه بطريقة غير عادلة
في المطار. وقالت إن موكلها "ليس
إرهابياً. مثله مثل (بابا الفاتيكان)
يوحنا بولس الثاني".

خبر البراءة - قرأته في طريق العودة

UNITED STATES DISTRICT COURT
DISTRICT OF MASSACHUSETTS

1004-3-21

UNITED STATES OF AMERICA

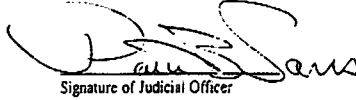
CRIMINAL ACTION
NO. 04-10004-PBS

v.

ESSAM MOHAMMED ALMOHANDIS

JUDGMENT OF ACQUITTAL

The Defendant was found not guilty on February 27, 2004. IT IS ORDERED that the Defendant is acquitted on all counts in the Indictment, discharged, and any bond exonerated.



Signature of Judicial Officer

The Honorable Patti B. Saris
Judge, United States District Court
Name and Title of Judicial Officer

Date

3/3/04

75.

صك البراءة الصادر من محكمة جون جوزيف موكلي ببوسطن



U.S. Department of Justice

*Michael J. Sullivan
United States Attorney
District of Massachusetts*

Main Reception: (617) 748-3100

*John Joseph Moakley United States Courthouse
1 Courthouse Way
Suite 9700
Boston, Massachusetts 02210*

February 28, 2004

To Whom It May Concern
Ministry of Interior
The Kingdom of Saudi Arabia
Riyadh, K.S.A.

Re: United States v. Essam Mohammed Almohandis

To The Interested Officer:

This letter accompanies Essam Mohammed Almohandis, who I expect to be returning to his home in Riyadh, Saudi Arabia on Sunday, February 29, 2004 aboard a Saudi Air flight originating from Frankfurt, Germany.

Mr. Almohandis traveled to Boston, Massachusetts in the United States on a validly-issued U.S. business visa, entering on January 3, 2004. While being inspected that day at the border, a U.S. Customs and Border Protection Inspection Officer found three small firecracker-type devices in Mr. Almohandis's carry-on luggage. As a result, Mr. Almohandis was placed under arrest and charged in the United States District Court for the District of Massachusetts with carrying an incendiary device aboard an aircraft, and with making false statements to a U.S. Customs and Border Protection officer.

Mr. Almohandis exercised his right under the United States Constitution to trial by jury, and the court and this office brought the matter to trial in the shortest time possible under American law. On Friday, February 27, after a five day trial, a jury of six men and six women, all citizens of the United States, determined that he was not guilty of either of the offenses with which he had been charged. He was thereby released from further obligations to the court. A formal judgment of acquittal will be

رسالة من المدعي العام يؤكد برائتي لحين صدور الصك من المحكمة

Ministry of Interior
February 28, 2004
Page 2

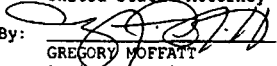
provided to Mr. Almohandis through his American attorney, but given the late hour at which the jury returned its verdict yesterday, no such document could be provided to him at the time. Please accept this letter in its place.

Should you have further questions, please do not hesitate to contact me in writing or by telephone.

Very truly yours,

MICHAEL J. SULLIVAN
United States Attorney

By:


GREGORY MOFFATT
Assistant U.S. Attorney
617-748-3370

cc: Miriam Conrad, Esq.

Saudi who comes to Boston for training is arrested, tried, acquitted and re-arrested

Essam Mohammed Almoahandis had every reason to be excited.

The 33-year-old biomedical engineer from Riyadh, Saudi Arabia had just become a father for the second time on December 29, 2003. After a difficult pregnancy, his wife Trifaha was home from the hospital with their new daughter. Visitors were coming in and out of the house to see the baby and wish Essam a good trip overseas to the US. The following day, he was going to Boston to learn how to use the DNA equipment his hospital had recently purchased. It would be his first trip to the United States.

It had taken Essam eight weeks to get a visa to visit the US. He had been interviewed and undergone background checks. On his departure from Riyadh Airport, his luggage was checked four times — three times by an x-ray machine and once by hand. It was checked again when he changed planes in Frankfurt. On January 3, 2004, after an uneventful flight during which he had a pleasant conversation with an American who worked for the government, he landed at Logan Airport and his sense of well-being vanished.

"A customs officers examined my back pack. He took three small things from a side pocket and asked me what they were. I had never seen them before and had no idea how they got in my bag. They were about an inch long, yellow with a pinkish tip. I said 'drawing pens.' My wife did art at home, and they looked like something she might use. He said, 'do you mean crayons?' and I asked what that was — my English is not so good — and then said yes. I took one and tried to write with it and then I realized it was not a pen or a crayon. Then the tip of the one he was holding broke off and some powder came out. When he asked me 'what is this?' I had no response. I was very afraid. I thought it might be drugs. He then called the supervisor who was very angry. He didn't give me a chance to explain anything. He said 'you are lying.' They took me to a room and questioned me for six hours. Then they said I was arrested."

Essam spent two nights in a police station, and then 20 days in detention in Plymouth County jail, locked down for 23 hours a day "for his own protection." In the beginning, he



ESSAM MOHAMMED ALMOHANDIS
Essam is pictured with investigator Andy Penehouse (right)

says, "the treatment was very hard. They made me take all my clothes off, except my underwear, and kept me in a cell that way for eight hours. It was very cold. While I was there some of the guards harassed me by saying things like, 'why don't you call on Mohammed to help you?' But one captain went out of his way to be helpful and kind. I was so worried about my family. I was worried about missing the training and losing my job."

On January 13th, he was indicted for having three inflicting "incendiary devices" on a plane and for "lying to federal agents about the nature of the devices." US Attorney Michael Sullivan's office announced that the charges, which could bring him 15 years in prison and a \$250,000 fine, were being investigated by the FBI, the Bureau of Immigration and Customs Enforcement, the Massachusetts State Police and the Bureau of Customs and Border Protection.

To build their case, government investigators interviewed Essam's fellow passenger, who said there was nothing suspicious about his behavior on board the plane. They also interviewed a Saudi co-worker, Mohammed al-Hayan, who had traveled with Essam as far as Frankfurt, and then caught a plane to San Francisco for another hospital training program. They admitted that there was nothing suspicious about al-Hayan, and that he was in fact very co-operative.

إحدى هيئات حقوق الإنسان الأمريكية،
أجرت لقاءً مطولاً معي بعد العودة إلى المملكة

But they revealed Mr. al-Hayen's visa anyway and incarcerated the terrified visitor for five days because he had "traveled with" Mr. Almohandis. When federal public defender Miriam Conrad attempted to bring Mohammed al-Hayen back into the US to testify at her client's trial, the government refused on the grounds that the revoked visa meant he was excluded from entering the country. Meanwhile, her investigation for the case revealed that there had been several instances of firecrackers being seized at Logan the previous year, and a 15-year-old American who was discovered on arrival at the airport with firecrackers, fireworks, a switchblade, gunpowder, a hashish pipe and hashish had been given a \$500 fine.

The jury that restored Essam Almohandis' faith in the US justice system. Conrad, his court-appointed attorney, spent long hours wrestling with US Embassy bureaucracy to arrange for other witnesses, including Essam's wife and father-in-law, to be allowed to enter the US for the trial. The expert witness for the defense testified that the suspicious objects were not incendiary devices, but resonators, that made a sound like a popping balloon. A government witness maintained that anything that could create a spark was an incendiary device. Essam's wife, who said she had never before seen the objects, described how she had packed his bag while visitors, including children, arrived at the house. Attorney Conrad introduced as exhibits artist's pastels that Trisha used in her artwork, which resembled the objects found in Essam's bag.

After the jury acquitted him of all charges on Friday, February 27, 2004, a jubilant Essam hugged his lawyer and thanked the prosecutor, Assistant US Attorney Gregory Moffitt. He thought his ordeal was at an end. Miriam Conrad told him to go out and celebrate with his wife and prepare to leave the country the following Monday.

Eight hours later, shortly after midnight, she got a call from a stranger on her cell phone. He told her that a distraught woman who speaks only a few words of English had come up to him on the street with Conrad's business card in her hand.

Conrad discovered that Almohandis had been taken away by FBI federal agents who burst into the South End apartment where he was staying and detained him for not

having a valid visa — it had been revoked at his arrest.

"They entered the room with guns in their hands," Essam said on a phone call from Riyadh. "They told me 'you are under arrest.' I asked them, 'again?' They wouldn't let me talk to my wife who had no idea what was happening and was crying. They wouldn't let me call her father or my lawyer. They wouldn't let me take my passport or my wallet with me. I later found out my wife went to the street and then to the Prudential Center and looked at people's faces until she found a kind-looking man and asked him to help."

Conrad wonders, "Why didn't the government take him into custody in the courtroom where it would have been less disruptive — or, better yet, use discretion to let him depart with his wife early the following week? Don't you think they would want to end this matter with Almohandis thanking the people of the US and praising our justice system?"

The prosecutor, Gregory Moffitt, must wonder the same thing. After Miriam Conrad called him at 1 AM to tell him of the arrest, he wanted to see Almohandis, apologized for what had happened and assured him he would be on a plane the next day. He also retrieved his wallet and passport, and took them to the airport with a letter explaining that their owner had been acquitted of all charges.

Would Essam Almohandis and Mohammed al-Hayen consider returning to the US if they got the opportunity to attend another training course? Right now, they don't have that option. It is likely that their visa applications would be automatically rejected because their visas had been revoked. Things are not easy for them in other ways. Some acquaintances are steering clear of them because they think they must have done something wrong. And they regret missing the training programs, which would have saved their hospitals considerable funds. But he refuses to be bitter. "I met many nice Americans, including an official at the airport who told me when I was leaving that he was sorry for everything that had happened to me. He was so different from those other airport officials, who were very inhumane during questioning and seemed to look at me in a bad way because of my country and my ethnic origin. But my impression is that most of the society is very helpful. I wanted to come to America to get knowledge, and if I were allowed to come back, I would not say no."



STAFF PHOTO BY ROBERT ENG

NO TERRORIST: Essam Al-Mohandis, who was acquitted of federal charges, holds artists' crayons that bear a resemblance to fireworks found in his bag by customs officials.

Jurors free fireworks detainee

By J.M. LAWRENCE

A Saudi Arabian biomedical engineer wept and thanked Allah yesterday after a jury acquitted him of federal charges stemming from three tiny fireworks found in his bag by customs officers.

"I thank God to save me," said Essam Al-Mohandis, 33, whose testimony convinced jurors he did not know he had the sparklers and did not lie to U.S. customs when they questioned him after his flight landed at Logan International Airport on Jan. 3. Al-Mohandis still doesn't know how the fireworks got into his backpack but understands why officials arrested him in a post-9/11 world, he said.

The lanky father of two hugged federal prosecutor, Gregory T. Moffatt, who almost sent him to prison for a year, and announced, "This is the man who is taking care of America."

Jurors said they believed Al-Mohandis, who came to Boston for medical research training, told the truth to agents when he first identified the fireworks as his wife's "artist pens."

"We believed he did not know they were in the bag," said juror Seth Hirschorn of Ashland.

Al-Mohandis' wife, Trifha Al-Rayhan, came from Riyadh, Saudi Arabia, to show the jury her crayons and a drawing. She also testified she did not pack fireworks in her husband's bag.

Al-Mohandis spent two months in federal custody, including 20 days in solitary to protect him from other prisoners. "They think I'm a terrorist and a dangerous person," Al-Mohandis said.

Al-Mohandis' court-appointed attorney, Miriam R. Conrad, questioned why the case wasn't resolved in the customs office. "Knowing how credible he is, I wonder why it didn't stop there. This guy is no more a terrorist than Pope John Paul," she said.

خبر البراءة في الصحف الأمريكية غطته الكاتبة جي. إم. لورنس

Saudi engineer says he didn't put firecrackers in baggage

By J.M. LAWRENCE

Testifying in his own defense, a Saudi Arabian biomedical engineer told a federal jury yesterday he did not put firecrackers in a bag he brought to Boston on a business trip.

Essam Al-Mohandis, 33, said he did not know the three tiny items were in his backpack Jan. 3 when he agreed to a search by U.S. Customs. When an agent pulled them from his bag, he thought the items were his wife's "drawing pens." But when a black powder spilled out, he became "afraid" and clammed up.

"I keep silent because I try to answer myself what is this," he said. "I am afraid it is a drug or something dangerous." Al-Mohandis is charged with carrying an incendiary device on an airplane on Jan. 3

and lying to federal agents. If convicted, he could face a year in prison.

He said he passed through airport security in Riyadh, Saudi Arabia, and in Frankfurt, Germany, without difficulty. His backpack was X-rayed numerous times, he testified. While in the baggage inspection area in Boston, he left his backpack unattended for seven to eight minutes while he was interviewed by officials, he said. Other defense witnesses yesterday testified Saudi children play with firecrackers and several children were in Al-Mohandis' home the night before he left for Boston.

Friends and relatives had come to see the family's new baby. Al-Mohandis' wife, Trifha Al-Rayhan, testified yesterday she packed her husband's bag. "I did not put any firecrackers in my husband's bag," she said, according to a translator.

خبر آخر في جريدة بوسطن هيرالد

United States District Court
District of Massachusetts
U.S. Pretrial Services Office

Electronic Monitoring Conditions

I, Essam Mohammed Almohandis Case No. 04-10004-PBS, understand that I have been placed in the electronic monitoring program as a condition of my pretrial release. I further acknowledge that I will comply with the rules of this program as well as any additional conditions set by the Court as requirements for my pretrial release.

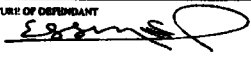
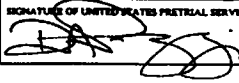
I shall reside at Copley House, ²¹⁵ 215 W. Newton St., Boston, MA, telephone number 617-267-5007, until I receive permission of the Court to change my residence.

I acknowledge the following conditions:

1. I must have a telephone at my residence. I understand that I may not have special phone services/equipment (i.e. call waiting, call forwarding, answering machine, cordless phone, etc.)
2. I understand that I am required to remain at the above address at all times unless granted prior approval (48 hour advance notice) by the Pretrial Services Officer in the following circumstances:
Court hearings, attorney meetings, and 911 emergencies
and shopping for a couple of hours on a predetermined day
3. In the event of an emergency, I will attempt to notify Pretrial Services at (617) 748-9213 or 1-800-759-8888 (PIN #2173364) prior to leaving the above address. I will contact Pretrial Services immediately about this emergency upon the earliest opportunity. I will be expected to provide documented proof of the emergency.
4. I will provide Pretrial Services with copies of medical appointment verifications and such documentation as may be required.
5. I understand that to insure compliance with the program I will be monitored by a tamper-proof, non-removable ankle bracelet which I agree to wear 24 hours a day during the entire period of my participation. I understand that this monitoring will be accomplished by a receiver attached to my residence telephone connected electronically by common carrier to a computer at Securicor EMS, Inc. I may also receive random telephone calls and personal visits by a Pretrial Services Officer which I agree to respond as directed.
6. I agree to notify Pretrial Services immediately of telephone or equipment failure.

شروط الإطلاق تحت برنامج المراقبة الإلكترونية

Amman
 liberty Union
 Union
 .ACLU.

PRETRIAL RELEASE REPORTING INSTRUCTIONS		
DEFENDANT Essam Mohamed Alshabhadis	DISTRICT COURT Massachusetts	DOCKET NO 04-10004-PBS
CASE SUPERVISOR Christopher Wylie \ David Picozzi (Beeper no. 1-800-759-8888 - PIN# 2173364)		TELEPHONE NUMBER (617) 748-9213
REPORT AS FOLLOWS:		
ELECTRONIC MONITOR HMU # 19168 WATCH# 36113		Copley House 215 W. Newton St., Boston, MA Tel: 617-267-8867 DOB: 8/3/70 SS# none
Additional Instructions: ELECTRONIC MONITORING, standard conditions. (see form) allowed out for attorney visits and shopping on a predetermined day for a number of hours to be decided by Pretrial Monitor residence Obtain no passport Summary conditions of release:		
Home visits will be conducted throughout your period of supervision. Notify your Pretrial Services Officer immediately of any change in address, telephone, or employment (if applicable). You shall not commit a federal, state, or local crime during the period of release. You shall inform the Pretrial Services Officer immediately if you are charged with an offense.		
DEFENDANT'S STATEMENT		
I understand the above stated instructions and understand that failure to comply will be reported to the Court and may result in the revocation of my bond and my detention pending the outcome of my case.		
SIGNATURE OF DEFENDANT 	DATE 1.23.04	
SIGNATURE OF UNITED STATES PRETRIAL SERVICES OFFICER 	DATE 1.23.04	

Essam Al-Mohandis Tells All About His Ordeal in US

Muawffak Al-Nuwaiser
Asharq Al-Awsat

RIYADH — Essam Muhammad Al-Mohandis, a Saudi biomedical engineer recently acquitted in the US of smuggling explosives, has described the vindictive behavior of US immigration authorities.

In an exclusive interview, Al-Mohandis, an employee of King Faisal Specialist Hospital and Research Center in Riyadh, spoke of how federal agents maltreated him during his ordeal.

He said his lawyer Miriam Conrad was successful in disproving all the charges against him. The charges — possession and smuggling of explosives and lying to Customs authorities — were enough to sentence him for 15-year prison with a fine of SR950,000 (\$250,000).

Al-Mohandis was arrested for carrying three small sparklers on a flight from Germany to Boston.

Al-Mohandis, who had flown to Boston for a five-day training seminar on how to use DNA equipment purchased by the Riyadh hospital, said he never thought his journey would end in a US prison for dangerous criminals.

US police arrested him again eight hours after his acquittal for not having a valid visa. Al-Mohandis did not have a current visa because the federal officers had revoked his visa after the arrest.

"While I was receiving congratulations for the acquittal, seven gun-wielding security officers came to our hotel



room and asked me to escort them. They told me they were from the Immigration Department," he said.

He said the officers did not allow him to call either his lawyer or his father. "They did not even allow me to take my clothes. They later took me to the deportation cell, where I was treated much better," he said.

He said prosecuting US Attorney Gregory Moffatt collected his wallet and credit cards and brought them to him in jail, along with a personal apology. "He said the decision to arrest him was taken by a colleague," he said.

The Customs officials in Boston also called him for a meeting before his departure for Riyadh. They asked him several questions including whether he was afraid of returning to the Kingdom and whether he had any problems with the Saudi government. "I told them no."

(Read the full report in tomorrow's Arab News)

لقاء نشرته جريدة عرب نيوز

Someone Put the Sparklers in My Bag: Mohandis

Musaffek Al-Nawaiser.
Ashraf Al-Awsat

RIYADH — Essam Al-Mohandis, the Saudi who spent 21 days in a US jail for alleged possession of explosives, has told his story in this exclusive interview with Ashraf Al-Awsat, a sister publication of Arab News.

The King Faisal Specialist Hospital and Research Center in Riyadh, where Al-Mohandis is in charge of medical equipment, had asked him to attend a training course in Boston at short notice, and he was booked on a Gulfair flight via Frankfurt.

Mohandis says he met a colleague at Riyadh Airport on Jan. 3. "While we were at the Riyadh airport we went through four security checks," he said. After arriving in Frankfurt, Al-Mohandis and the colleague toured the duty-free shops inside the airport for two hours. "At Frankfurt I was checked thoroughly again by German security officers and they allowed me to board the plane," he said.

After arriving in Logan airport in Boston he queued for nearly one-and-a-half hours to complete immigration procedures. "When they called me for the interview, an officer asked me politely to leave the bag outside. Another officer later interviewed me and asked me several questions. He asked me about the purpose of my visit, the nature of the course, the tentative period of my stay, my work and the type of equipment I would be trained to use and about the hospital where I work."

After the interview Al-Mohandis moved to the Customs department where they checked the visa and asked him to put his baggage on the X-ray machine. "They asked me two specific questions: whether I carried more than \$10,000 and did anybody give me anything to take into the country. I told them no."

The officer then inspected his bag and found some personal items, some brochures related to the course, and a book on linguistics which he was reading on the plane. "In the meantime, the officer took out some small tubes from the pocket of the suitcase. They were yellow and marked R1001. They asked me what this was, and I told them they could be sex capsules."

Al-Mohandis thought that his wife, who is an artist, might have kept them in the bag. "I asked the officer to allow me to check them to see what exactly they were, but he asked me not to touch them. One of the tubes, which was in the hands of the



Essam Al-Mohandis with his father Muhammad Al-Mohandis. (AN photo)

officer, was broken and a brown powder came out of it. I thought they were drugs and it really frightened me. The officer again asked him: what is this? I did not answer because I really did not know what they were and where they came from."

Al-Mohandis was taken to the head of the Customs department who asked him several questions, and authorities detained Al-Mohandis in a room alone while the Customs chief, the head of the FBI and national security officers held a meeting in the next room. Then they started questioning him for six hours after reading out the charges against him. He told them that he was ready to answer their questions without a lawyer. They asked him to contact his father and wife but he told them he did not want to do so because it would upset them. However, he agreed to inform the Saudi Embassy in Washington. But his refusal to inform his father and wife was taken as an attempt to hide vital information. "Then they told me I was under arrest."

After spending a night at the police station, Al-Mohandis was taken to court. Before that he had met with his court-appointed attorney, Miriam Conrad. The judge told Al-Mohandis that US Attorney General Gregory Mottatt had two charges against him: Possession of explosives on board the plane and lying to the Customs authorities.

Al-Mohandis was put in the Plymouth County Correctional Facility, 40 km from Boston, in the C category, which is allocated for dangerous criminals. While a police officer was completing procedures

at the jail, he saw a television report on the man's arrest and this changed his attitude toward him, Al-Mohandis believes.

The guard first put him in an isolated cell and later took him to another cell which was extremely cold and took all Al-Mohandis' clothes except his trousers. "They kept me there for 14 hours. I asked them why they were keeping me in such a cell. They said they were afraid I was hiding explosives in my stomach. They later gave me clothes and put me in another isolation cell with a security camera."

During this time, Conrad and her team were trying to get him released without bail. The public prosecutor insisted on bail of \$50,000 and a bond from Saudi authorities. But the lawyer was able to convince the judge to release Al-Mohandis on condition that he would wear an electronic tag, which allowed him movement only within five meters of a designated area. The authorities allowed him to go out shopping once in a week for three hours.

A trial date was set for one month later. The lawyer was able to convince the judge to issue an order for the US Embassy in Riyadh to expedite visas for the defense witnesses. The court also agreed to pay the expenses of the witnesses — his wife, her father, uncle and wife of the uncle and his superior and colleague.

Security authorities in San Francisco had sent the colleague back to Riyadh after putting him in jail for a week for traveling with Al-Mohandis on the same flight. The FBI also questioned an American who sat near Al-Mohandis on the plane.

Al-Mohandis father meanwhile met with Prince Muhammad bin Naif, assistant interior minister for security affairs, in Riyadh and told him the story. Prince Muhammad offered him all his support, and the Saudi Embassy in Washington notified Al-Mohandis after two weeks that they had received a confidential note from the Interior Ministry.

During the five-day trial, the public prosecution presented their witnesses including the customs officers and an explosive expert. "Their answers were contradictory. I looked at the Customs officer who accused me of lying. He was trying to avoid looking at me," Al-Mohandis said, adding this might have created doubts about the officer's truthfulness.

The explosives expert also failed to give correct information as he exaggerated the weight of explosives in one of the tubes found on Al-Mohandis. Defense witnesses also included an explosives expert, who was able to persuade the court that the two tubes were in fact sparklers and unlikely to be harmful. Al-Mohandis' wife submitted a number of her drawings to the court to show that his guess that the tubes were crayons had not been fanciful.

The colleague who had been on the same flight confirmed that they had both passed through several security checks. "This proves that (the sparklers) were put in my bag during the eight minutes when I left the bag outside the Customs room," he said.

Al-Mohandis left the courtroom on Feb. 19 at 11 a.m. The next day, the jurors acquitted him of both charges.

UNITED STATES DISTRICT COURT
DISTRICT OF MASSACHUSETTS

UNITED STATES OF AMERICA

v.

ESSAM ALMOHANDIS,
Defendant.

CRIMINAL NO. 04-10004-PBS

ORDER REGARDING WITNESSES

February 12, 2004

Saris, U.S.D.J.

This Court scheduled a trial for February 23, 2004 and the trial may last two weeks. The defense intends to call several witnesses whose testimony is relevant, necessary and exculpatory. Defendant argues that federal regulations permit aliens to enter the country to testify at trial. See 8 C.F.R. §212.5(b)(4) governing parole of aliens who will be witnesses at judicial proceedings.

These witnesses reside in Saudi Arabia. Two people on this list are males who are not witnesses, but I'm told it is necessary for males to accompany the female witnesses because of the law of Saudi Arabia. One person is the infant child of a witness.

By this Order, the Court hereby advises the Department of Homeland Security that the following individuals will be

مذكرة طلب الشهود

necessary for the trial:

1. Saoud Al-Rayhan, Date of Birth ("DOB") 3/6/54
2. Trifha Al-Rayhan, DOB 6/3/78
3. Musaid Al Rayhan, DOB 9/6/54
4. Wasan Al-Mohandis, DOB 12/29/03
5. Mohammed Al-Hayan, DOB 7/27/75
6. Hayla Al-Marzook, DOB 6/28/76
7. Ibrahim Al-Kholifi, DOB 2/9/70
8. Ossama Abbass, DOB 8/24/58

I am requesting that the applications for entry filed by these witnesses be expedited so that the trial can go forward as scheduled.


PATTI B. SARIS
United States District Judge



Embassy of the United States of America
Riyadh, Saudi Arabia

February 15, 2004

Mr. Essam Mohammed Y. Almohandis
Clinical Engineering
King Faisal Specialist Hospital and
Research Centre
MBC 42
Riyadh, Saudi Arabia

Dear Mr. Almohandis:

The U.S. Deputy Assistant Secretary of State for Visa Services Janice L. Jacobs has signed a Certificate of Revocation on February 04, 2004 revoking any and all nonimmigrant visas issued to you for travel to the United States. The following text is quoted from the Certificate of Revocation:

"This is to certify that I, the undersigned Deputy Assistant Secretary of State for Visa Services, acting pursuant to the authority conferred on the Secretary of State by Section 221(i) of the Immigration and Nationality Act (8 U.S.C. 1201(i)), which has been delegated to the Assistant Secretary of State for Consular Affairs and to me by Delegation of Authority no. 74 and Rodelegation of Authority no. 74-3-A, hereby revoke any and all nonimmigrant visas issued to Essam Mohammed Y. Almohandis; DPOB, 03 August 1970, Saudi Arabia..

This action is based on the fact that subsequent to visa issuance, information has come to light indicating that the alien may be inadmissible to the United States and ineligible to receive a visa under Section 212(a)(3)(b) of the Immigration and Nationality Act, such that the alien should be required to re-appear before a U.S. consular officer to establish his eligibility for a visa before being permitted to apply for entry to the United States.

This revocation shall become effective immediately on the date on which this certificate is signed unless the alien is present in the United States at that time, in which case it will become effective immediately upon the alien's departure from the United States."

Sincerely,

خطاب إلغاء التأشيرة صادر من السفارة الأمريكية بعد الاعتقال



Islamic Society of Boston
Prayer Schedule for Boston, Massachusetts
 2004 C.E. / 1424 - 1424 Hijra
 Latitude = 42° 21' N Longitude = 71° 02' W Zone Time = GMT - 04 Qiblah = 60.30° E (From Me)



FEBRUARY

Date	Day	Fajr	Sunrise	Dhuhr	Asr	Maghrib	Isha
Sun	1	5:39	6:59	11:58	2:35	4:57	6:17
Mon	2	5:37	6:57	11:59	2:37	5:00	6:20
Tue	3	5:37	6:56	11:59	2:38	5:01	6:21
Wed	4	5:37	6:56	11:59	2:38	5:01	6:21
Thu	5	5:35	6:54	11:59	2:41	5:04	6:23
Fri	6	5:34	6:53	11:59	2:42	5:05	6:24
Sat	7	5:33	6:51	11:59	2:43	5:06	6:26
Sun	8	5:33	6:51	11:59	2:43	5:06	6:26
Mon	9	5:30	6:49	11:59	2:45	5:09	6:28
Tue	10	5:29	6:48	11:59	2:46	5:10	6:29
Wed	11	5:28	6:47	11:59	2:47	5:11	6:30
Thu	12	5:28	6:47	11:59	2:47	5:11	6:30
Fri	13	5:26	6:44	11:59	2:49	5:14	6:33
Sat	14	5:24	6:43	11:59	2:50	5:15	6:34
Sun	15	5:24	6:43	11:59	2:50	5:15	6:34
Mon	16	5:23	6:41	11:59	2:51	5:17	6:35
Tue	17	5:21	6:38	11:59	2:53	5:19	6:37
Wed	18	5:19	6:37	11:59	2:54	5:20	6:38
Thu	19	5:19	6:37	11:59	2:54	5:20	6:38
Fri	20	5:17	6:34	11:59	2:56	5:23	6:41
Sat	21	5:15	6:33	11:59	2:57	5:24	6:42
Sun	22	5:14	6:31	11:58	2:58	5:25	6:43
Mon	23	5:14	6:31	11:58	2:58	5:25	6:43
Tue	24	5:11	6:28	11:58	2:59	5:28	6:46
Wed	25	5:09	6:27	11:58	3:00	5:29	6:47
Thu	26	5:09	6:27	11:58	3:00	5:29	6:47
Fri	27	5:08	6:25	11:58	3:01	5:30	6:48
Sat	28	5:05	6:22	11:58	3:03	5:33	6:50
Sun	29	5:03	6:20	11:57	3:04	5:34	6:51

نشرة أوقات الصلوات من الجمعية الإسلامية في بوسطن

Jury acquits Saudi flier who carried sparklers

By AP Staff
San Diego (AP) — A jury of 12 people acquitted a Saudi flier who carried sparklers on the tip of his nose out of the cockpit of a jetliner. "No blame at all on any party," the judge told the jury.

The flier, Tawfik Abdulaziz, was charged with carrying sparklers on the tip of his nose who testified that the plane was not landing. He said that other crew members who were not on the plane at the time of the crash had testified to the same.

But, both jurors said they thought the evidence was sufficient to believe the flier had carried sparklers from the US mainland and that the plane crashed because of the sparklers, which ignited shortly before the crash and caused the plane to crash.

"As a juror, I'm glad they found it," said the judge, adding that the evidence was sufficient to believe the flier had carried sparklers from the US mainland and that the plane crashed because of the sparklers, which ignited shortly before the crash and caused the plane to crash.

The District Judge Paul J. Smith thanked jurors for taking their time and thanked the judge.

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

...of the ...

"We didn't find any evidence that led us to believe he knew they were in the bag."

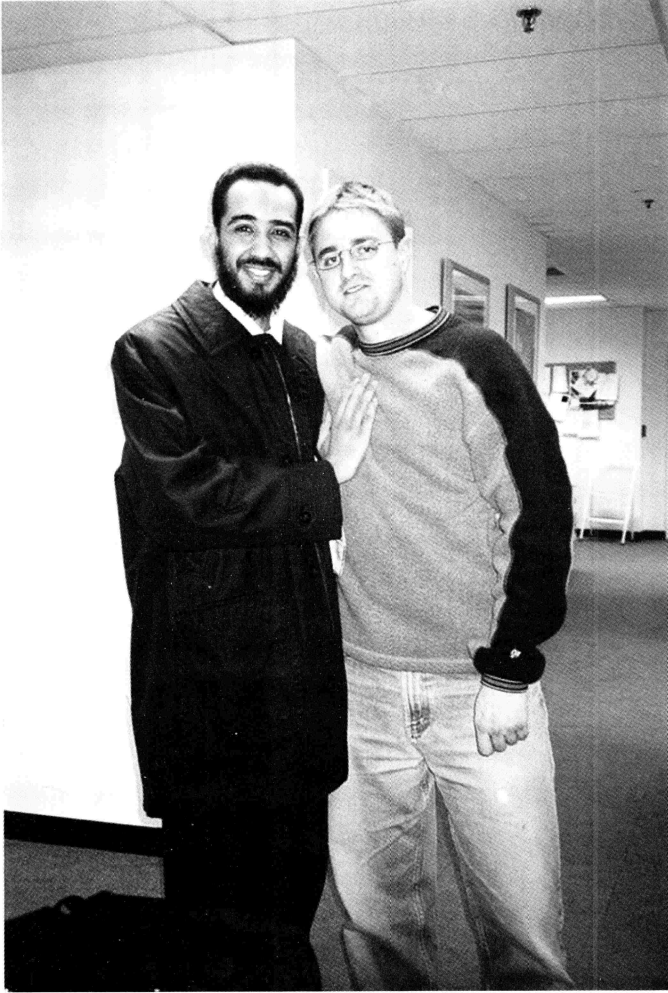
Steve Hirschman

June

...of the ...

...of the ...

...of the ...



في مكتب الدفاع الفيدرالي،
من اليمين مساعد المحامية المحقق وعصام المهندس



بعد تناولنا طعام الغداء بمطعم الرديليستر Red Labster،
من اليمين والد زوجتي العم مساعد الريحان،
الصديق أسامة عباس، عصام المهندس،
عم زوجتي العم سعود الريحان.

الفهرس



٩	وداعا بوسطن... لحظات أخيرة وذكريات حزينة... وإلى أعلى وطن
٢١	إلى الولايات المتحدة الأمريكية
٢٧	الانطلاق إلى مطار الملك خالد الدولي في العاصمة الرياض
٣١	إقلاع على جناح طائر ألماني
٣٥	في مطار فرانكفورت كانت لنا قصة
٤٣	كمين في مطار لوجن الدولي
٤٧	صالة الجمارك..... ومرارة المعاناة
٥٥	التحقيق ومسرحية الافتراء
٧١	وتوال أحداث السبب الكئيب
٨٣	شاهد الزور
١٠٩	شروط الإطلاق والعودة إلى الوطن
١١٥	كيف تسير الأحوال داخل أسوار الإصلاحية
١٢٣	باتي سارس.... إبقاء المتهم في بوسطن لحين المحاكمة وإصدار الحكم
١٢٧	يوم الجمعة ٢٣ / ١ / ٢٠٠٤
١٣٥	سكن مؤقت والله المستعان
١٤٣	اللقاء الأول بكونراد في مكتب الدفاع الفيدرالي
١٥١	التسوق والزيارة الغير متوقعة
١٥٧	البحث عن شقة أقل تكلفة... اللقاء مع المحامية
١٧١	اليوم الأول... بداية المحاكمة
١٧٩	اليوم الثاني..... الشهود
١٨٧	استمرار المرافعات....اليوم الثالث

- اليوم الرابع في المحاكمة ١٩٧
- القضية بين يديّ المحلفين.... وجاء البشير ٢٠٣
- الاعتقال الثاني ماذا حصل فيه؟! ٢١١
- العودة إلى أرض الوطن ٢١٩
- لماذا كتبت هذه السطور؟ ٢٢٣
- مواقف محفورة في الذاكرة ٢٢٧
- رسائل خاصة ٢٣٧
- مرفقات الرواية ٢٤٣